

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الخامسة عشرة

العدد ٥٧





رسالة الإسلام

مجلّة اسلامية عالمية

تصدرها دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تنشر الطبعة الثانية بإذن خاص من
المهندس القمى نجل المغفور له العلامة القمى، السكرتيرالعام
لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

تصدّى لنشرها

مجمع البحوث الاسلامية للآستانة الرضوية المقدّسة

و

مجمع التقريب بين المذاهب الاسلامية

١٤١١هـ/ ١٩٩١م

الأمور الفنيّة والطبع

مؤسسة الطبع والنشر فى الآستانة الرضوية المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم



إذا وجد الظلم وجد الخوف ، وإذا وجد الخوف وجد الملق والنفاق ، لأن الإنسان حينئذ يحاول أن يتقى المظالم ، وأن يبتعد عن إثارة الظالمين ، فهو يغض البصر عما يجد من سيئات ، بل يحاول أن يُسوِّغها ليرضى أصحابها ، ثم يحاول أن يختلق لهم من الحسنات ما لم يفعلوه ، ويسند إليهم من الحمد والثناء ما لم يستحقوه .

ومن هنا نجد الطغاة والظالمين يحيط بهم عادة أهل النفاق والتزلف ، وينصرف عنهم - أو لا يروج لديهم - أصحاب الخلق القويم ، الذين يقولون الحق ، ويخلصون النصح ، ولا يخافون فى الله لومة لائم ، وبذلك تفسد أمورهم ، وأمور الأمة بهم ، وقديماً قال أعرابى لسليمان بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين . إنه قد أحاط بك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ؛ فإنهم لا يألون الأمانة تضييعاً ، ولا يألون الأمة كسفاً ولا خسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غبنا ؛ من باع آخرته بدنيا غيره ! .

هذا شأن الطغاة والمتجبرين ، والملوك العتاة الظالمين ؛ يعيش النفاق فى كنفهم آمناً مطمئناً ، ويزداد كل يوم ترسخاً وتثبتاً .

أما إذا وجدت الحرية ، ووجد العدل ، وكان الحكم صالحا ؛ فإن النفاق ينحسر حينئذ ظله ، ويبطل كيده وسحره ، ويندرىء عن المجتمع فساده وشره ، ويخلو وجه الحاكم العادل لأصحاب المبادىء القويمة ، والأخلاق الكريمة ؛ ممن يعملون

يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الدين النصيحة » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ، ولرسوله ، ولولاة المسلمين ، ولعامتهم » ومعنى « النصيحة » فى هذا الحديث أن تنطوى القلوب على النصح لا على الغش ، ولا على الخداع والتضليل ، بتزيين القبيح ، أو بتشويه الحسن ، وإذا انطوت القلوب على النصح ؛ لم تنطق الألسنة إلا بالحق ، ولم يجد الخداع ولا الملق والتزلف سبيلا إلى المجتمع .

* * *

ولقد جاء الإسلام بالحرية ، وطبقها فى أوسع الحدود ، ولم يضق بها ذرعا ، فلم يترك مجالا لأخلاق النفاق والخديعة . وما كان المنافقون فى العهد الأول إلا نباتاً غريباً عن أرض الإسلام ، لم يجد له خصباً ولا ريا ، فذوى ثم صوَّح ثم أصبح غُثاءً لا جدوى فيه ، ولا وزن لأصحابه !.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكره أن يمدحه أحد فى وجهه ، ويقول : « احثوا فى وجوه المادحين التراب » .

ويقول عمر بن الخطاب : « المدح ذبح » - يشير إلى أن مدح الرجل ؛ إنما هو خديعة وتخدير له ، فهو بمثابة ذبحه وإلغاء وجوده بزحزحته حين يتقبله عن موقف الحزم والعزم الذى كان عليه أن يقفه ، ويقول عن الله بن المقفع : « إياك إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حبُّ المدح ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فيكون منفَذاً إليك ، واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمع إلى الرجل من الأعراب يسأله ويجادله ، دون أن يبدو عليه ما يدل على التألم أو التبرم ، ذلك بأنه يؤثر أن ينعم الناس بنعمة الحرية ، وأن يذوقوا لذتها ، ولا يحب أن يميت فى نفوسهم عزتها وكرامتها .

هكذا كانت الحرية ، فكانت الصراحة ، وكانت الشجاعة فى الحق ؟

محمد محمد المدني

تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت

شيخ الجامع الأزهر



— ٢ —

ربط بين هـذا المقال والمقال السابق ـ الفصل الثانى : (دعوة الإسلام على لسان محمـد صلى الله عليه وآله وسـلم هى دعوته على لسان من كان قبله من الرسل ـ نوح ـ هود ـ صالح ـ إبراهيم ـ لوط ـ شعيب ـ موسى ـ تعليق السورة على هـذه القصص السبع : أنبـاء الغيب التى يقصها القرآن ودلالتها ـ الظالمون هم الذين يجنون على أنفسهم ـ سنة الله فى المـكذبين) ـ تمهيد إجمالى عن الفصل الثالث ـ والتفصيل للعدد الآتى .

تبين من الكلام على سورة « هود » فى العـدد السابق : أن السورة تنقسم باعتبار ما اشتملت عليه من الموضوعات إلى فصول ثلاثة : (الفصل الأول فى تقرير الدعوة المحمدية بأصولها الثلاثة ـ الفصل الثانى فى تقرير أن هذه الدعوة بأصولها هى دعوة الرسل السابقين ـ الفصل الثالث فى توجيه الخطاب للنبي وصحبه فى الاستمساك بدعوة الله) .

وانتهى فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمود شلتوت من عرض الآيات الواردة فى أغراض الفصل الأول مع بيان ما تضمنته هذه الآيات تصريحاً وإشارة ، ثم مهد بذكر ما يتضمنه الفصل الثانى إجمالا .

وهذا هو تفصيل الإجمال كما كتبه فضيلته :

الفصل الثانى : إن هذه الدعوة التى شرحت بأصولها وبأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، وما كان من إعراض عنها ، هى دعوة الرسل السابقين من مبدأ الخليقة إلى عهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفى هذا - كما قلنا - تسلية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كإخوانه السابقين ، وفيه كذلك عظة وذكرى لقومه بما حدث لأسلافهم المتقدمين .

نوح :

ومن هنا ذكرت السورة « نوحا » وما كان من معارضة قومه له ، وسخريتهم به ، وموقف ابنه منه ، وموقفه من ابنه ، وتقرير أن الصلة التى لها قيمتها عند الله ، هى صلة الإيمان لا صلة البنوة ولا صلة الأرحام ، ثم ذكرت ختام القصة بنجاة نوح ومن آمن معه ، وهلاك قومه الذين عاندوه وبغوا على الحق .

« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

وفى هذا إشارة إلى أن من الأمم من ذرية نوح من سيكون كالذين أهلكهم الله على عهد نوح ، وقد أرانا التاريخ كثيراً من هذه الأمم بعد نوح عليه السلام .

وفى ختام قصة نوح تعاجل السورة رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقولها :

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وهو نوع من الإعجاز فى الإخبار بغيب لا سبيل له ولا لقومه إلى معرفته

إلا عن طريق ربه ، وإلا فى هـذا القرآن ، ثم هو تثبيت وتصبير وإبعاد للحرج واليأس من نفسه ، وتبشير وتطمين بحسن العاقبة لمن ظل متمسكا بتقواه .

هود :

وذكرت « هودا » ورسالته إلى عاد ، وما كان منه من توجيههم إلى ربهم ، وما كان منهم من معارضته ورميه بالجنون ، وما ختم الله به الأمر بينه وبينهم .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأُتبِعوا فى هـذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود » .

صالح :

وذكرت « صالحا » وقومه ثمود ، وختمت الأمر فيهم بنجاة صالح ، وأخذ الذين ظلموا بالصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين « كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود » .

إبراهيم :

وذكرت إبراهيم ورسل ربه الذين بشروه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وفى هـذه القصة لم تعرض السورة لموقف إبراهيم من قومه ، ولا موقف قومه منه فيما يختص بالدعوة ، وإنما ذكرت شأناً إلهياً يرشد إلى أن الله فى تصرفه لم يكن مقيداً بمألوف من السنن التى يعرفها النـاس فى الخلق والإيجاد ، وفى هـذا تطمين لحمَلة الحق إذا كانوا قلة أمام الكثرة المبطلة ، فإن نصرهم مع قلتهم وكثرة المبطلين إن لم يكن شأناً معروفا بين الناس ؛ لكنه ليس مما تعجز عنه القدرة ، فلا ييأس المحق صاحب القوة المحدودة من نصرته على المبطل صاحب الكثرة والقوة المرهوبة .

لوط :

وذكرت « لوطا » وما كان من سيئات قومه ، وكيف جعل الله عالى قراهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود « مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد » .

وفى هذا الختام هز لأعصاب المعارضين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

شعيب :

وذكرت « شعيبا » وقومه وما قابلوه به ، وتحذيره إياهم إن استمروا على الكفر والشقاق « أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد » .

وختمت القصة بمثل ما ختمت به قصص السابقين : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » .

موسى :

ثم ذكرت « موسى » وقومه ، من فرعون وملئه ، وختمت قصتهم بقول الله تعالى :

« يَقْدُمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود ، واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » .

وفى هذا إشارة إلى أن الأمم باتباعها لزعمائها الفاسدين ؛ لا بد أن تصاب بما يصابون به ، وأن واجب الأمم الحية أن تقف من حكامها الضالين موقف الحزم حتى تسلم من شرهم ، وتقطع صلتها بهم .

* * *

وبعد هذه القصص السبع تذكر السورة تعليقاً عليها بأمور ثلاثة :

أولا : ان هذه أنباء القرى التى أرسلنا إليها رسلنا ، منها قائم يرى قومك آثاره ويمرون عليه فى رحلاتهم ، ومنها حصيد هالك يتبينونه بعد سير فى الأرض ، وتدبر فيما تحمل من آثار ، فليلتفت إلى ذلك قومك ، وليعتبروا بما يرون « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

ثانياً : ان ما أنزلناه بهم من العذاب ماكان إلا جناية ظلمهم على أنفسهم « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب » .

ثالثاً : ان سنة الله فى هؤلاء المكذبين هى سنته النافذة فى الماضين ، وهى هذه لاهوادة فيها ولا مجاملة « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » وجدير بالعقلاء أن يأخذوا من سنة الله بالمكذبين فى الدنيا ، سنته بهم فى الآخرة ، ويعتبروا بها فيحذروا عذاب الآخرة الذى هو أشد وأبقى .

ثم أخذت تصف يوم ذلك العذاب ، وأنه يوم مجموع له الناس ، وأنه يوم مشهود ، وأنه ما يؤخر إلا لأجل معدود ، وأنه يوم تأخذ فيه النفوس حقها حسب أعمالها ، وأن من الناس يومئذ من هم سعداء ، ومنهم من هم أشقياء ، تختم ذلك كله بأن هؤلاء كهؤلاء ، وعبادتهم كعبادتهم ، ومآلهم كمآلهم ، وذلك كله فى قوله تعالى :

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير

مجذوذ ، فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » .

* * *

ثم تعود الآيات فتذكر بأن الله قد أعطى موسى الكتاب ، فاختلف فيه قومه ، وأنه لو لا كلمة سبقت من الله ببقائهم مع اختلافهم على كتاب موسى وعلى رسالته ؛ لقضى بينهم كما قضى بين الأنبياء السابقين وقومهم ، ولوقع بهم عذاب الاستئصال ، وذهبوا فى بطون التاريخ ، كما ذهبت الأمم السابقة ، وأن كلا لابد موفى جزاء عمله ، وذلك كله فى قوله تعالى .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب ، وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير » .

* * *

وهنا يأتى « الفصل الثالث » ويوجه الخطاب فيه إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومن تاب معه :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

فترسم لهم منهاجا كاملا لا يحتاجون معه فى الحصول على السعادة إلى شىء وراءه ، وقد جاء هذا المنهاج بعد أن صورت الدعوة وذكرت دلائلها ، وقدمت صوره تاريخية واضحة عن عاقبة الذين استقاموا على أمر الله ، والذين انحرفوا عنه .

* * *

وإلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ، لنعرف تفاصيل هذا المنهاج القويم ؟

معالم التقريب

للعلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامي

— ٢ —

لا ينافس التقريب أحداً على جاه أو نفوذ ديني أو دنيوى ، ولا يدعى لنفسه على أحد أى سلطان من أى نوع ، إذ من جوهر التقريب ألا يكون له سلطان ذاتى ، لأن كل سلطان يخلق ومعه مشاكله التى تشغله ، والتقريب لا يسمح معناه بأن يختصم المسلمون عليه ، ولا أن يشغلهم بنفسه باعتباره جماعة أو سلطة أو سلطاناً عن وحدتهم فى الله وكتابه ورسوله وهدى رسوله ، ولذا لا يجد المستبصر لمستقبله السياسى والاجتماعى شيئاً يشبع أو يسمن آماله وأطماعه وأمانيه عند جماعة التقريب .

وليس للتقريب ربقة فى عنق أحد ، ولا له عند أحد بيعة ، ولا ينثلم به ولاء مسلم لمذهبه أو طائفته أو بلاده أو حكومته ، لأن التقريب ليس مذهباً ولا حزباً ولا فرقة ولا طائفة ، لا ولا بيعة جديدة أو ولاء جديداً ، وإنما التقريب أولا وآخراً دعوة عامة للاهتمام بالإسلام والالتفات إليه كرأس مال مشترك بين المسلمين فى الماضى والحاضر والمستقبل وإلى آخر الدهر إن شاء الله تعالى ، وهذا الاهتمام أمر مقبول ومعقول عند كل مسلم أياً كان مذهبه وبلده .

والتقريب ليس ثورة تجمع المعارضين المعترضين ، أو الساخطين الناقمين ، لأنه ابتداءً وانتهاء دعوة إلى التعرف على وجوه الاتفاق بين المسلمين والالتفات إلى مواضع الاتحاد والالتحام والقربى ومعالم الأخوة التى تربطهم وتجمعهم وتبعد

بهم عن التفرق والتمزق ، ولذا لا يجد الساخط الناقم الثائر المتعجل للتغيير والتدمير مكاناً فى جماعة التقريب .

ولكن إذا لم تجد نوازع الرغبة فى الغلبة والتفوق ، ودوافع المصلحة الذاتية التى تسوق الرجال أمامها فى طريق مطامعهم وأمانيهم ، ولا نوازع العدوان والمقاومة وتوكيد الذات التى تحرك فى الناس النقمة والسخط والثورة والشوق إلى الهدم والإزالة والتغيير العاجل ، إذا لم تجد هذه القوى الغريزية المحركة مكانا لها فى التقريب ، فكيف يرجو أهل التقريب أن تسير سفينتهم إلى غايتها أو غاياتها ؟ .

هذا سؤال يتجه إلى أساليب التقريب ومناهجه ، وهو يثير ابتداء مشكلة المنهج الذى يتبع فى الدعوة الدينية فى العصر الحديث بصفة عامة ، فإن هذه الدعوة من حيث هى محاولة للتأثير على نحو معين فى السلوك الدينى للإنسان تشبه من بعض الوجوه غيرها من المحاولات التى يمكن أن تبذل للتأثير فى السلوك السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى للآدمى ، والدعوات السياسية والتجارية هى والدعوات الاجتماعية المادية تعمل على أسس احصائية باعتبار الآدمى وحدة مكررة فى مجموعة تتكرر فيتكون منها مجاميع أوسع وهكذا ، وتدور مناهجها وأساليبها على الاستفادة إلى أقصى حد من المعارف والمعطيات التى يقدمها علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الإحصاء ، وما يتصل بهذه العلوم من أبواب العلم الأخرى ، وعلى الانتفاع بالمخترعات والفنون والقدرات الحديثة فى تنشيط جانب من النوازع والغرائز والدوافع العميقة غير الواعية فى النفس الإنسانية وتحريكها ، لكى تحدث هذه القوى الغالبة تأثيراً معيناً مقصوداً فى سلوك الآدمى بالنسبة لموضوع معين ، وتنشيط هذه القوى النفسية الغامضة يتم فى الأغلب الأعم على حساب العقل والقوى الضابطة فيه ، وعلى حساب ملكة النقد ، وحساب المشاعر الأكثر رقياً والأبقى نفعاً للإنسان فى حاضره وقابله ، ثم هى - أى هذه المناهج - قد وضعت لكى تعمل فى عقلية الجماهير ونفسيتها ، وعلى أساس التسليم بأن عقليتها ونفسيتها تسودها تلك

النوازع والدوافع البدائية الغريزية غير الواعية ، تسودها الآن وفى المستقبل بقدر ما يمكن أن يتصور المستقبل فى حدود المعقول ، وقد حققت هذه المناهج على الجملة - ولكن بصورة سطحية - ما هو مطلوب منها ، وهو ما أغرى فريقاً من الناس فى بعض البلاد باستعمالها فى الدعوة الدينية ، مدفوعا إلى ذلك بالرغبة فى مسايرة الميل العام الذى يرى فى كل جديد رقيا وتقدما وشعوراً منه بأن الدين يقف اليوم فى موقف الاتهام بالتخلف والتقصير والقدم ، وإشفاقا منه كذلك على ما يتصور من عجز الدين وعدم قدرته على الصمود للدعوات السياسية والاجتماعية المادية ، فضلا عن قهرها والتغلب عليها .

وأيا ما كان الباعث على ذلك ومبلغه من الجد والإخلاص ، ومن الاهتمام بأمر الدين ونصرته ، فإن تطبيق هذه المناهج والأساليب فى الدعوة الدينية نقيض خضوع هذه الدعوة لمطالب هذه المناهج والأساليب ، وأولها ما يصح أن نسميه « بجمهرة » الدعوة وتحويلها إلى قضايا وشعارات مقولة أو مكتوبة بأسلوب العصر ولغته - أى بلغة الجماهير - وهو ما يستلزم إعادة تصفية وصياغة وترتيب وتكوين العقائد والأصول والقواعد والأفكار الدينية ، والاستغناء عما لا يصلح منها لهذه المناهج والأساليب ، مع التقليل من التركيز على الحياة الأخرى وما يتصل بها ، والاهتمام والتركيز على ما يستطيع أن يقدمه الدين للجماهير من حلول لمشاكل الدنيا وبخاصة مشاكل الفرد العادى العاطفية والاجتماعية والاقتصادية ، حتى يمكن أن تروق معروضات الدين فى عين جماهير هذا الزمان على نحو ما تروق فى عينها معروضات السياسة والتجارة والدعوات الاجتماعية المادية ، وقد حدث شىء كهذا من بعض رجال الطوائف المسيحية فى أوربا الغربية وأمريكا .

ولعل أخطر ما ينطوى عليه هذا الاتجاه هو منافسة الدين للسياسة والتجارة والاشتراكية والشيوعية وما إليها فى تملق الجماهير واسترضائها ، فيغرق الدين فى سيادة الشعب ، وتصبح إرادة الشعب فى السماء كما هى على الأرض !! إذ من المحال أن يبقى الدين ديناً إذا تخلى عن دور الوالد الآمر الناهى المطاع فى الحال والمآل

إلى دور خادم الجماهير الذى عليه أن يسترضى سيدته بخدمات ترضى عنها ، وإلا فلا يريها وجهه ، وفى هذا نهاية معنى الدين ، لأن فيه نهاية التسليم بالله إله الكل من الأزل إلى الأبد ، ونهاية ناموس الله الذى يدين له البشر بالطاعة أينما كانوا ، وفى ظله نما وينمو النوع الإنسانى إلى آخر الدهر ، ونهاية فكرة الآخرة التى ضمن بها الإنسان خلوده حين حمل أمام الله مسئولية لا تموت بموته ، وعقد التزامات لا تنحل بتحلل رفاته ، وأحسب أن الناس فى هذا الزمان بعد أن صاروا « جماهير » تنعت تملقاً بنعوت القداسة ، وتوصف مداجاة بأنواع الكمالات ، ويلعب بأفئدتها وأهوائها وشهواتها وغرائزها ونوازعها من يستطيع ويشاء ، أحسب أن الناس فى هذا الزمان أكثر خوفا من أنفسهم ، وقلقاً على مصيرهم من أى وقت مضى ، وأشد شعوراً بالضياع والحيرة ، وبذلك الإحساس المزعج الذى يحس به الولد حين يفتقد الوالد الحازم الذى يقف فى وجه أهوائه وعربدته ، ويرد إلى نفسه السلام والأمن الداخليين اللذين بدونهما تصبح الحياة عبثاً لا يحتمل .

أحسب أن ليس فى استطاعة الدين أن يقترب من الدعوات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى الحد الذى يطوعه لأساليبها ومناهجها دون أن يفقد معناه أو معظمه ، فالدين ليس علاقة بشرية بين الإنسان وأمثاله من الفانين الهالكين وإنما هو رباط فذ يتجاوز فيه الإنسان الفرد أفق بشريته ليحدد فى هذا العالم المتغير المتقلب مصيره هو كفرد لا مصير نوعه أو جنسه بالارتباط إلى الأبد بنقطة ثابتة باقية إليها تنتهى الخطوط كلها ومنها تبدأ ، ويحول ارتباطه بها بينه وبين الانطفاء والانطماس فى ظلمة العدم ، هو رباط فذ له معنى فذ لا يشاركه فيه غيره من الروابط التى يرتبط بها الإنسان على هذا الكوكب ، يميزه أساساً أنه ليس دين اليوم فحسب ، بل دين الأمس واليوم والغد ، كان ويكون وسيكون ، وهنا يكمن وقار الدين ورهبته وتعاليه باتساع مدى تجاربه على غرور الإرادة البشرية التى لا ترى من طريقها بوضوح إلا ما تسمح لها برؤيته حياتها القصيرة المليئة بالشواده والصوارف .

ويزيد مشكلة المناهج والأساليب فيما يتعلق بالدعوات الإسلامية خاصة أمور منها :

المزج فى الدعوة لدى كثير من المسلمين بين فكرة الدولة الإسلامية وبين الإسلام ذاته ، واعتقاد التلازم بينهما فى الدعوة ، وليس هنا مجال مناقشة هذه المسألة بالتفصيل ، ولكن يكفى أن نقول إن الإسلام باق ثابت ما بقى القرآن المجيد مصوناً محفوظاً كما وعد الله تعالى، أما الدولة الإسلامية بصورتها التاريخية المعروفة وبمفهومها فى كتب الفقه الإسلامى فقد انقضت ، والتفكير فى إعادتها إلى الوجود بذلك المفهوم عينه يقتضى بداهة استبدال ذلك المفهوم القديم بالأسس الحالية للقانون الدولى ، وهو مرامٌ لا يتعلق به خيال ، إذ الدولة بمعناها الحديث مفهوم سياسى وقانونى يحدد مقوماته القانون الدولى بالنسبة لجميع الدول ، ولا يدخل الدين فى هذا المفهوم كما لا يدخل فى مفهوم الجنسية باعتبارها رابطة الولاء الذى يربط الفرد بدولته ، وقد صارت البلاد الإسلامية والمستقلة دولا بهذا المفهوم الحديث فى ظل القانون الدولى ، وغلب على معظمها الطابع المدنى السائد بين دول العالم ، ولا تعارض بين إسلام المسلم وولائه لدولته المدنية ، ولا يعتبر ولاؤه لها قادحا فى إسلامه .

وهذا التلازم فى التصور بين الدولة الإسلامية وبين الإسلام أكثره أثر للشعور السائد بين المسلمين بالشوق إلى الاتحاد والنفور من التفرق والضيق بما يجدونه فى أنفسهم من الضعف والتخلف والتمزق بالقياس إلى سواهم من الأمم والشعوب ، ولكن إعادة الدولة الإسلامية إلى الحياة هدف سياسى بلا ريب ، لأنه يتضمن تغيير حكام بحكام ، وأوضاع بأوضاع أخرى فى الحكم ، وقيم بقيم أخرى سياسية واجتماعية ، وليس عجيباً إذن أن نلاحظ عند من يمزجون فى الدعوة بين الإسلام والدولة الإسلامية ميلا ظاهراً إلى تقليد بعض مناهج الدعوات السياسية وأساليبها .

على أن مشكلة المسلمين الأولى فيما يبدو ليست مشكلة امبراطورية تفككت ، فكل امبراطورية كانت أو تكون مصيرها إلى أن تتفكك وتبيد وتخلى الطريق لوحدات سياسية أضيق رقعة وأوسع نشاطاً وأكثر تماسكا وحيوية ، إن مشكلتنا هى مشكلة قيم ، ومشكلة موقف : هى مشكلة قيم معينة قد تضاءل اهتمام البيئات الإسلامية بها ، وقل حرصها عليها ، فلم تعد هذه البيئات تعيش وفق المبادىء التى

تعتنقها ، ولم تعد تستطيع أن تحمل أو تتحمل من يريد أن يعيش هذه المبادىء بشجاعة وإخلاص ، بل لم تعد تستطيع أن تكفل للمسلم كامل الحقوق التى قررها له الإسلام ، أو تقوى على إيجاد الثقة فيها وحسن الظن بها ، وتهيئة الفرصة للتماسك والتساند اللازمين لكل عمل مشترك قوى طويل الأمد .

ثم هى مشكلة موقف المسلمين من طابع المعارف الإسلامية ومن طابع المعارف الغربية أو الحديثة سمها ماشئت ، فالمعارف الحديثة غير شخصية فى الأغلب الأعم ، ولا تتوقف على وجود صلة إنسانية شخصية وثيقة ، فالأفكار والمعلومات متى صيغت وحصلت تنفصل عن الأشخاص ويصبح لها وجود مستقل تضمنه المطبعة أو الرسم أو الوسيلة التشكيلية التى تصاغ فيها ، وتنعقد صلة مباشرة بين المنتفعين وبين هذه الأفكار أو المعارف التى أحرزت على هذه الصورة دون حاجة إلى وساطة إنسان يتلقونها عن طريقه ، وهذا الانفصال بين الفكرة أو العمل وبين الإنسان المعين الحقيقى قد استقر ، حتى أن خلق صاحب الفكرة أو العمل لم يعد بذى شأن ، بل صارت الفكرة أو العمل فى ذاته سبباً للشهرة والمجد ، والمنزلة لصاحبهما برغم خلقه السيء أو سلوكه الفاضح ، أو برغم تنكره فى حياته كإنسان للقيم التى بها يكون الإنسان إنساناً ، بل برغم تنكره فى حياته لذات الأفكار والمبادىء التى قامت عليها شهرته فى مؤلفاته أو أعماله الأدبية أو الفنية .

وهذا الانفصال لا يعرفه الإسلام ، فالمعارف الإسلامية لا تحصل أساساً من كتاب ، ولا يمكن استخلاصها كاملة من أوراق ، لأنها قبل كل شيء معارف ينقلها إنسان مسلم إلى إنسان مسلم بعد أن تلقاها من إنسان مسلم كذلك ، ولا يختلف طابعها هذا سواء أكانت معارف مبناها الإنشاء والإيجاد أو مبناها النقل والرواية ، فهى فى الحالين لها تكملة بشرية لا تقوى على حملها الأوراق يدركها التلميذ أو المريد عن شيخه فى تصرفات الشيخ واهتماماته وما يظهر فى سلوكه أو أعماله من أثر تلك المعارف التى يترجمها الشيخ من صيغ لفظية إلى واقع حيوى يحمل حقيقتها الحية ،

ولا يتصور الإسلام أن رجلا معروفا بسوء السيرة وقلة الذمة والإخلاص يمكن أن يصبح صاحب فكرة أو مدرسة ، وأن يصير له مجد وشهرة بين المسلمين .

ومسلمو هذا الزمان إذ يستعملون المطبعة على أوسع نطاق فى مختلف أغراض حياتهم تصوروا أن الأفكار الإسلامية يمكنها بذاتها متى طبعت ووزعت أن تزاحم وتزحم غيرها من الأفكار والمعارف والعلوم فى تلك السوق الواسعة الغاصة بالأفكار لا المجردة من الاتصال الانسانى ، والتى لا تحتاج إلى هذا الاتصال ، ويكفى لمن يخالجه أدنى شك فى مبلغ هذا الوهم أن يلاحظ ما تلقاه المطبوعات الدينية من قلة الرواج حتى مع بذل غاية العناية فى إخراجها وطبعها ، بوساطة الهيئات الدينية المسيحية .

وينبغى أن نلتفت إلى أن الاسلام ليس مجرد فكرة أو أفكار ، ولا هو وصفة أو وصفات ، ولا صيغ يحرز مضمونها من يتعقلها . وإنما هو حياة تعاش أو طريقة للحياة لا تعرف حقيقة معناها ومضمونها إلا من خلال إنسان يعيشها ويحياها وهو ما تعجز عن نقله المطبعة وعن حمله الكتب .

ومن ظن من المسلمين أن غير المسلم يمكن أن يتحول إلى الإسلام إذا قرأ كتابا أو كتباً تعرض مبادىء الإسلام المصوغة عرضاً صحيحاً مشوقا ، فهو واهم يضيع وقته وجهده ، وما نظن أن هذه الطريقة على ما فيها من جاذبية كان أو يمكن أن يكون لها نصيب جدى فى نشر الاسلام ، إذ الاسلام لا تنشره الكتب وقراءة الأوراق ، وإنما ينشره الانسان المسلم حين يتصل بغير المسلم ، فيشهد هذا من يسر تناوله لحياته : سرائها وضرائها ، ويسر تقبله للخروج منها ما ينطبع أثره فى وجدانه ويصل إلى الأعماق فيدخلها الشوق إلى الاسلام قبل أن يتنبه العقل إلى النظر والتفكير فيه .

هذا هو الطريق الذى به انتشر الاسلام فى الماضى البعيد أو القريب ، وهو الطريق الرحب الطبيعى لكل دعوة إسلامية ، وفيه من آثار رسولنا وآله وصحابته وتابعيهم معالم هدى لا يخطئها قلب إذا أخلص فى اتجاهه إلى الله .

ومن هنا كانت خطورة تهاون المسلمين فى الخلق والسلوك ، وفيما يتعلق بالقيم التى أشرنا إليها ، فإن هـذا التهاون قد أدى باضطراد إلى قلة النماذج التى يمكن أن تبعث الشوق إلى الاسلام فى نفوس غير المسلمين ، كما أدى باضطراد إلى كثرة النماذج التى تبعث النفور منه عند أولئك ، ولا جدال فى أن الاسلام بطبعه قادر على إنتاج النماذج الطيبة ، ولهذا وصل إلينا وسيصل إن شاء الله إلى من بعدنا إلى آخر الزمان ، إنما محل الانزعاج والقلق هو اختلال التوازن والنسبة بين انتاج النماذج الطيبة التى تحمل فى تواضع وعفة وإخلاص رسالة الاسلام ، وتسلمها إلى القلوب والنفوس كل يوم ، وبين انتاج النماذج التى تحجب ظلمتها نور الإسلام ، وكثافتها رقته ، وثقلها لطفه ، وعربدتها نظامه واتساقه ، فإن هذه النماذج الأخيرة تتكاثر فى البيئات الاسلامية بما يشبه تكاثر الخلايا السرطانية ، ولا بد من وقفة جادة تقفها عقول المسلمين لمواجهة تكاثرها حتى لا يهدد حياة الاسلام ، وما يغنى مع تكاثرها أن نملأ الكتب والمجلات والمحافل والندوات بمحاسن الاسلام ومزاياه إذا كانت هذه النماذج التى تنتجها البيئات الاسلامية على هذا النطاق الواسع تحمل لعين المحايد بله المغرض المناوىء صورة غير كريمة عن الاسلام وأهله .

وينقلنا هـذا إلى عقدة أخرى من عقد المسلمين فى زماننا يتصل أمرها بمناهج التقريب ، فإنهم صاروا حريصين إلى حد المبالغة على أن يبدو الاسلام مقبولا من خارجه فى عين من ينظر إليه من غير المسلمين على وفق معايير الحسن والقيم السائدة فى الأمم التى بيدها مقاليد الحضارة الحديثة ، وهكذا وضعنا ـ دون أن نشعر ـ نبينا وقرآننا وملتنا فى موضع الاتهام ، وأخذنا نترافع لإثبات براءة الاسلام أمام محكمة لا يعنيها هذا الأمر كثيراً .

تلمس هذا فى كثير مما كتب ويكتب ، وقيل ويقال فى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحياته ، والقرآن وآياته ، والاسلام ودوره .

على أن أحداً لن يترك بطبيعة الحال إسلامه إذا لم يفلح فى إقناع الاوربيين والأمريكيين بجمال الاسلام وكماله ، فلماذا إذاً نكلف نبينا وقرآننا وديننا مهانة

المرافعة والمدافعة أمام تلك المحكمة الغريبة ، وما لصاحب المرافعة والمدافعة من كثرة التأويل أو التخريج التي لا تثبت شيئاً إلا مهارة المرافع وبراعة المدافع ، إن نبينا هو نبينا وهادينا لا نقبل أن يجادلنا فيه أحد ، وقرآننا هو كتابنا لا نرضى أن يشكك في قيمته إنسان ، وديننا هو الاسلام عشنا به ونموت ونلقى الله عليه ، جفت بذلك الأقلام .

هذا هو منهج التقريب في هذه المسألة ، فجال الاسلام في نظر التقريب يبدأ وينتهي من داخل الاسلام ذاته ، والناظر إلى الاسلام من خارجه إنما يحكم له أو عليه ، لا على أساس أن النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله كان له العذر أن يتزوج أكثر من واحدة أو لم يكن ، أو أن الصلاة فيها فائدة للبدن أو لا ، أو أن الصوم يفيد أو لا يفيد المصابين بالسكر وضغط الدم ، أو أن القرآن يحتوى أو لا يحتوى إشارات فلكية أو علمية طريفة ، إنما يحكم للإسلام أو عليه على أساس مايشهد من متانة بنيانه أو وهنه ، وتعلق أهله به أو انصرافهم عنه ، واتحادهم وتآزرهم فيما بينهم أو تمزقهم وتصدعهم ، وقدرة البيئات المسلمة على كفالة حقوق المسلم أو عجزها عن ذلك ؟ « يتبع »

طرائف
فى لقاء ابن خلدون بتيمورلنك

لحضرة الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

فى أوائل سنة ٨٠٣ هجرية جاءت الأنباء أن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام ، واستولى على مدينة حلب فى مناظر مروعة من السفك والتخريب والتدمير والعبث والنهب والمصادرة واستباحة الحرم ، وأنه فى طريقه إلى دمشق ، وكانت الشام حينئذ تابعة لسلطان المماليك فى مصر ، ففزع لذلك الخبر سلطان مصر حينئذ ، وهو السلطان الناصر فرج بن السلطان الظاهر برقوق ، وأسرع بجيوشه لصد ذلك المغير التترى ، وأخذ معه ابن خلدون فيمن أخذ من القضاة والفقهاء ، مع أن ابن خلدون كان قد عزل منذ قليل من منصب قاضى قضاة المالكية فى مصر ، فاشتبك جند مصر مع تيمورلنك فى ظاهر دمشق فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين ، ولكن خلافا حدث فى معسكر الناصر فرج ، فغادره بعض الأمراء خفية إلى مصر ، وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه وتولية أمير آخر مكانه ، فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعا إلى القاهرة .

فأزمع حينئذ عدد كبير من العلماء الذين اصطحبهم الناصر فرج فى هذه الحملة ، ومنهم ابن خلدون ، أن يقابلوا تيمورلنك ويطلبوا إليه الأمان على دمشق ، فتم لهم ذلك ، وأجابهم تيمورلنك إلى ما طلبوه .

ويصف ابن خلدون فى كتابه « التعريف » (الذى ترجم فيه عن نفسه وسرد تاريخ حياته) لقاءه بهذا المغير فيقول : « دخلت عليه بخيمة جلوسه ، وهو متكىء على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه ، يشير بها إلى عصب المُغُل (المغول) جلوسا أمام خيمته حَلقاً حَلقاً ، فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، وأوميت إيماءة

الخضوع ، فرفع رأسه ومد يده إلى فقبلتها ، وأشار بالجلوس لجلست حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فأقعده يترجم بيننا ».

وبعد أن ذكر ما دار بينهما من حديث يتعلق بتاريخ ابن خلدون ، وحياته فى مصر ، وحياة أسرته فى المغرب ، وما استطرد إليه هذا الحديث من الكلام على بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ، وسؤال تيمورلنك عن مواقع هذه البلاد ، قال إن تيمورلنك لم يكتف بما قاله له شفويا ، وقال له : « أحب أن تكتب لى بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، حتى كأنى أشاهده ، فقلت يحصل ذلك بسعادتك ، وكتبت له بعد انصرافى من المجلس ما طلب من ذلك » ولعل تيمورلنك كان يقصد غزو المغرب ، فأراد أن يقف على تفاصيل بلاده ومواقعها وجغرافيته .

ويظهر أن ابن خلدون كان قد عاوده حينئذ داؤه القديم ، وساوره الحنين إلى المغامرات السياسية ، فكان يعلق على صلته بتيمورلنك آمالا أخرى غير ما وفق إليه فى شأن دمشق ، ولعله كان يرجو الانتظام فى بطانة الفاتح والحظوة لديه ، ولذلك أخذ يطنب فى مدحه ، ويذكر له أنه كان عظيم الشوق إلى لقائه منذ أمد طويل ، ويتنبأ له فى مستقبله بملك عظيم ، مستدلا على صحة تنبؤاته بحقائق الاجتماع وأقوال المنجمين والمتنبئين بالغيب .

ولعل ابن خلدون قد آنس سذاجة فى هذا الفاتح وحبا فى المديح فأخذ ينفخ فى كبريائه بهذه التنبؤات ، ويروى ابن خلدون ما ذكره لتيمورلنك بدون أن يصرح بما دعاه إلى ذلك فيقول : « ففاتحته وقلت له : أيدك الله ! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك ، فقال لى الترجمان عبد الجبار : وما سبب ذلك ؟ فقلت أمران : الأول أنك سلطان العالم ، وملك الدنيا ، وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد مثلك ، ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف ، فإنى من أهل العلم . . . » (ثم أخذ يؤيد قوله بنظريات اجتماعية عن قوة العصبية وأثرها فى

الملك) » وأما الأمر الثانى مما يحملنى على تمنى لقائك فهو ما كنت أسمعه عن أهل الحدثان (وهم المنجمون والملهمون من المتنبئين بالغيب من حوادث العالم) بالمغرب والأولياء . . . » وذكر له طائفة من أقوال هؤلاء تتنبأ له بملك عظيم .

غير أن ابن خلدون لم يوفق إلى تحقيق ما كان يأمله من تيمورلنك ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق ، واستأذن تيمورلنك فى العودة إلى مصر فأذن له .

وفضلا عن إخفاق ابن خلدون فى الوصول إلى ما كان يأمله من تيمورلنك ، فإن هذه الرحلة كانت مغرما كبيراً له ، فقد تجشم فى أثنائها هديتين قدمهما لتيمورلنك ، وفقد فى طريق عودته منها جميع ما كان معه من مال ومتاع .

ويصف ابن خلدون الهدية الأولى فيقول : « كنت لما لقيته . . . أشار علىّ بعض الصحاب ممن يخبر أحوالهم بما تقدمت له من المعرفة بهم ، فأشار بأن أطرفه ببعض هدية ، وإن كانت نزرة فهى عندهم متأكدة فى لقاء ملوكهم ، فانتقيت من سوق الكتب مصحفاً رائعاً حسنا ، وسجادة أنيقة ، ونسخة من قصيدة البردة للأبوصيرى فى مدح النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة ، وجئت بذلك فدخلت عليه ، وهو بالقصر الأبلق جالس فى إيوانه ، فلما رآنى مقبلا مَثَل قائماً وأشار إلى عن يمينه . . . فجلست قليلا ، ثم استدرت بين يديه ، وأشرت إلى الهدية التى ذكرتها ، وهى بيد خدامى ، فوضعتها ، واستقبلنى ففتحت المصحف ، فلما رآه وعرفه قام مبادراً فوضعه على رأسه ، ثم ناولته البردة ، فسألنى عنها وعن ناظمها ، فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها ، ثم ناولته السجادة فتناولها وقبلها ، ثم وضعت علب الحلوى بين يديه ، وتناولت منها حَرفاً على العادة فى التأنيس بذلك ، ثم قسم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين فى مجلسه ، وتقبل ذلك كله ، وأشعر بالرضى به » .

ويصف ابن خلدون الهدية الثانية فيقول : « ولما قرب سفره ، واعتزم على الرحيل من الشام ، دخلت عليه ذات يوم ، فلما قضينا المعتاد ، التفت إلى ، وقال :

أعندك بغلة هنا ؟ قلت : نعم ، قال : حسنة ؟ قلت : نعم ، قال : وتبيعها فأنا أشتريها منك ؟ فقلت : أيدك الله مثلى لا يبيع من مثلك ، إنما أنا أخدمك بها وبأمثالها لو كانت لى ، فقال : إنما أردت أن أكافئك عنها بالإحسان ، فقلت : وهل بقى إحسان وراء ما أحسنت به : اصطنعتنى وأحللتنى من مجلسك ومحل خواصك ، وقابلتنى من الكرامة والخير بما أرجو الله أن يقابلك بمثله ، وسكتَ وسكتُّ ، وحُملت البغلة إليه وأنا معه فى المجلس ، ولم أرها بعد » !.

وهكذا ظن ابن خلدون أن باستطاعته - بفضل دهائه وألمعيته - أن يعود مزوداً من هذا التترى ، الذى ظنه غراً ساذجا ، بالمناصب والرتب والألقاب ، ولكنه عاد صفراً من كل شيء حتى من بغلته .

وزاد من كوارثه أنه قد دهمه فى طريق عودته جماعة من اللصوص فنهبوا جميع أمتعته وجردوه حتى من ملابسه ، ويصف ذلك ابن خلدون فيقول : « وسافرت فى جمع من أصحابى ، فاعترضنا جماعة من العشير (يقصد البدو) قطعوا علينا الطريق ونهبوا ما معنا ، ونجونا إلى قرية هناك عرايا ، واتصلنا بعد يومين أو ثلاثة بالصُّبَيْبة فخلفنا بعض الملبوس .... » .

* * *

وهكذا جزاء من يطلب عرض الدنيا بإرخاص كرامته والاستهانة بحقوق وطنه ، والزلفى لأعداء بلاده ؟

من ثمرات المعقول والمنقول

للشاعر الكبير الاستاذ على الجندى

العميد السابق لكلية دار العلوم

لا حول ولا قوة إلا بالله :

سُئل الإمام على - عليه السلام - عن معناها ، فأجاب : إنا لا نملك مع الله شيئاً ، ولا نملك إلا ما ملكنا ، فتى ملكنا ما هو أملك به منا كلفنا ، ومتى أخذه منا وضع تكليفه عنا .

خير القرون :

جاء فى الأثر : خيركم : القرن الذى أنا فيه ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه . ثم الذى يليه .

قال النقيب أبو جعفر يحيى بن محمد العلوى البصرى : مما يدل على بطلان هذا الخبر : أن القرن الثانى شر قرون الدنيا ، وهو أحد القرون التى ذكرها فى النص ، وكان ذلك القرن هو القرن الذى قتل فيه الحسين ! وأوقع بالمدينة ، وحوصرت مكة ، ونُقضت الكعبة ، وشرب خلفاؤه والقائمون مقامه ، والمنتصبون فى منصب النبوة الخمور ! وارتكبوا الفجور ، كما جرى ليزيد بن معاوية ، وليزيد بن عاتكة ، وللوليد بن اليزيد ، وأريقت الدماء الحرام ، وقُتل المسلمون ، وسُبى الحريم ، واستعبد أبناء المهاجرين والأنصار ، ونقش على أيديهم كما ينقش على أيدى الروم ، وذلك فى خلافة عبد الملك وإمرة الحجاج ، وإذا تأملت كتب التاريخ وجدت الخمسين الثانية شراً كلها لا خير فيها ولا فى رؤسائها وأمرائها ، والناسُ برؤسائهم وأمرائهم ، والقرن خمسون سنة ، فكيف يصح هذا الخبر ؟ ! .

أقول : لعل المراد بخيرية هذه القرون الأربعة : أن العرب يبلغون فيها منتهى قوتهم ، وأن الإسلام يصل إلى الغاية من العزة ، ويبسط ظله على الآفاق ، وقد تحقق

ذلك ، فالقرون المذكورة تمتد إلى خلافة المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وبوفاته بدأ العرب تضعف قوتهم ، وتخضد شوكتهم ، وأخذ مجد الاسلام فى التدلى والانهيار !! فليس الخبر صادقا فحسب ، بل هو من دلائل النبوة ! .

الطفل عاقل :

قيل لحكيم : متى عقلت ؟ قال : حين ولدت ! .

فأنكروا عليه ذلك ، فقال : أما أنا ، فقد بكيت حين جعت ، وطلبت الثدى حين احتجت ، وسكتت حين أعطيت .

يريد أن من عرف مقادير حاجته فهو عاقل .

قوة فراسة :

قال معن بن زائدة : ما رأيت قفا رجل إلا عرفت عقله ! قيل : فإن رأيت وجهه ؟ قال : ذاكتاب يقرأ ! .

فائدة النوم :

كان بعضهم ـ إذا استشير ـ قال لمشاوره : انظرنى حتى أصقل عقلى بنومة .

أولاد على :

ذكر المأمون ولد على ـ عليه السلام ـ فقال : خُصُّوا بتدبير الآخرة ، وحُرِموا تدبير الدنيا .

الرأى والعزيمة :

سمع محمد بن يزداد قول الشاعر :

إذاكنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تترددا

فأضاف إليه :

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا فإن فساد العزم أن يتفندا

صبر الكرام :

قال الإمام على ـ عليه السلام ـ للأشعث بن قيس معزيا عن ابن له :

إن صبرت صبر الأكارم ، وإلا سلوْت سُلوّ البهائم - فأخذ المعنى أبو تمام بل حكاه فقال :

وقال عليٌّ فى التعازى لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوَى عَزاءً وحِسْبةً فتُؤجرَ أم تسلو سُلوّ البهائم

عظة بليغة :

راود رجل امرأة عن نفسها ، فقالت له : إن امرأ يبيع جنة عرضها السموات والأرض بمقدار إصبعين لجاهل بالمساحة ! فاستحيا الرجل ورجع ! .

بين الجاهل والعالم :

قيل لأفلاطون : لم يُبغض الجاهل العالم ، ولا يبغض العالم الجاهل ؟ .
فقال : لأن الجاهل يستشعر النقص فى نفسه ، ويظن أن العالم يحتقره ويزدريه فيبغضه ، والعالم لا نقص عنده ، ولا يظن أن الجاهل يحتقره ، فليس عنده سبب لبغض الجاهل .

الاختصار فى الشرح :

قال الخليل بن أحمد : من الأبواب ما لو شئنا أن نشرحه ، حتى يستوى فيه القوى والضعيف لفعلنا ، ولكن يجب أن يكون للعالم مزية بعدنا .

الآل والأهل :

الألف فى آل منقلبة عن همزة هى بدل من هاء أهل ، ولا يستعمل الآل فى كل موضع يستعمل فيه الأهل ، وإنما يختص بالأشراف من الناس ، تقول : القراء آل الله ، والأتقياء آل محمد ، واللهم صل على محمد وآل محمد ، وفى القرآن الكريم : « وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » وتقول أهل الإسكاف مثلا لا آل الإسكاف .

التفسير والتأويل :

الفرق بينهما : أن التفسير للكشف عن المراد من اللفظ ، سواء أكان ذلك ظاهراً فى المراد أو غير ظاهر .

والتأويل : صرف اللفظ عن الظاهر إلى غيره مما يحتمله اللفظ ، فإذاً كل تأويل تفسير ، وليس كل تفسير تأويلا .

الشعير يؤكل ويذم :

هـذا مثل سائر ، يضرب لكل من يُنتفع به ويُجازى بالقبيح !! وذلك أن الشعير يؤكل فيسمن ويُغنى عن جوع ، وهو مع ذلك مذموم .

الزهد بين كلمتين :

قال الإمام على ـ عليه السلام ـ : الزهد كله بين كلمتين من القرآن ؛ قال الله ـ سبحانه ـ : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » .
ومن لم يأس على الماضى ، ولم يفرح بالآتى ، فقد أخذ الزهد بطرفيه .

حب الوطن :

كانت العرب إذا سافرت حملت معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحه ! وتطرحه فى الماء إذا شربته ! وكذلك كانت تفعل فلاسفة اليونان ! .
ومن الكلام القديم : لولا الوطن وحبه لخرب بلد السُّوء ! .

ندم السيدة عائشة :

قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ : إذا مر ابن عمر فأرونيه ، فلما مر قالوا : ذا ابن عمر ، فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهانى عن مسيرى ـ تعنى وقعة الجمل ـ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفيته ـ يعنى عبد الله ابن الزبير ـ فقالت : أما إنك لو نهيتنى ما خرجت ! .

شرب دم الرسول :

قال الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ : احتجم رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ثم دفع إلىّ دمه ، فقال اذهب به فواره حيث لا يراه أحد ، قال : فذهبت فشربته ، فلما رجعت قال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما صنعت ؟ قلت : جعلته فى مكان أظن أنه أخفى مكان عن الناس !! فقال الرسول الكريم : فلعلك شربته ، قال : نعم .

أقول : وهذا خاص بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن دمه طاهر ، وقد كان أصحابه يتنافسون فى شربه .

فظائع الحجاج :

قال على بن مجاهد : قُتل مع ابن الزبير فى حصار الكعبة مائتان وأربعون رجلا ، وإن منهم لمن سال دمه فى جوف الكعبة !! .

ولما مات ابن الزبير كانت أمه أسماء ـ رضى الله عنها ـ تقول : اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى بجثته ، فلما دفنته ـ بعد إنزاله من الصلب ـ لم يأت عليها جمعة حتى ماتت ! .

عفة العشاق :

دخلت بثينة إلى عبد الملك بن مروان فقال : ما أرى فيك يا بثينة شيئاً مما كان يلهج به «جميل» ! فقالت : إنه كان يرنو إلىّ بعينين ليستا فى رأسك يا أمير المؤمنين ! .
قال : فكيف صادفته فى عفته ؟ قالت : كما وصف نفسه إذ قال :

لا والذى تسجد الجبال له ... مالى بما ضمَّ ثوبُها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ... ما كان إلا الحديث والنظر

ويقول مجنون ليلى :

كأن على أنيابها الخمر شجه ... بماء الندى من آخر الليل غابق
وما ذقته إلا بعينى تفرساً ... كما شِيم من أعلى السحابة بارق

والغابق : الذى يسقى شراب العشى ، وشج الشراب : مزجه .

ووصف أعرابى امرأة ، فقال : ما زال العمر يرينيها فلما غاب أرتنيه ! .
فقيل له : فما كان بينكما ؟ قال : ما أقرب ما أحل الله مما حرم ! إشارة من غير بأس ، ودنو من غير مساس ، ولا وجع أشد من الذنوب ! .

من حكم سليمان :

قال سليمان ـ عليه السلام ـ لقومه : أوصيكم بأمرين أفلح من فعلهما ! لا تدخلوا أجوافكم إلا الطيب ، ولا تخرجوا من أفواهكم إلا الطيب ! .

التحرج من أكل الحرام :

قال جابر - رضى الله عنه - سمعت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول لكعب بن عُجرة : « لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت ، النار أولى به » .

ويقول الحسن البصرى : لو وجدت رغيفاً من حلال لأحرقته ، ثم سحقته ، ثم جعلته ذروراً ، ثم داويت به المرضى ! .

ومن ورع أبي حنيفة : أن غنم الغارة اختلطت بغنم أهل الكوفة ، فأمسك أبو حنيفة عن أكل اللحم ! وسأل : كم تعيش الشاة ؟ قالوا : سبع سنين ، فترك أكل لحم الغنم سبع سنين ! .

وعن حذيفة بن اليمان يرفعه : « إن قوماً يجيئون يوم القيامة ولهم من الحسنات كأمثال الجبال ، فيجعلها الله هباء منثورا ، ثم يؤمر بهم إلى النار » ! فقيل : حلِّهم لنا يا رسول الله ، قال : « إنهم كانوا يصلون ويصومون ، ويأخذون أُهبة من الليل ، ولكنهم كانوا إذا عرض عليهم الحرام وثبوا عليه » .

حسن تربية :

رئى واصل بن عطاء يكتب من صبى حديثاً ، فقيل له : مثلك يكتب من هذا ! . فقال : أما إنى أحفظ له منه ، ولكنى أردت أن أذيقه كأس الرياسة ، ليدعوه ذلك إلى الازدياد من العلم .

جليس قَعْقاع بن شَوْر :

كان قعقاع بن شور قدم إلى معاوية ، فدخل عليه والمجلس غاص بالناس ليس فيه مقعد ، فقام له رجل من القوم وأجلسه مكانه ، فلم يبرح القعقاع من ذلك الموضع يكلم معاوية ومعاوية يخاطبه حتى أمر له بمائة ألف درهم ، فجعلت إلى جانبه .

فلما قام القعقاع ، قال الرجل القائم له من مكانه : ضُمها إليك ، فهى لك بقيامك لنا عن مجلسك ، فقيل فيه :

وكنت جليس قعقاع بن شور ولا يشقى بقعقاع جليس
ضحوك السن إن أمَروا بخير وعند الشر مطراقٌ عبوس

أخذ الشاعر قوله : « ولا يشقى بقعقاع جليس » من قول سيد البلغاء ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .

مصيبة المسلمين بموت الرسول :

قيل للإمام على : لو غيرت شيبك يا أمير المؤمنين !! فقال : الخضاب زينة ، ونحن فى مصيبة برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ! .

رعاية حرمة الصديق:

نزل بعض الخوارج على بعض إخوانه مستتراً من الحجاج ، فشخص المضيف لبعض حاجاته ، وقال لزوجته : أوصيك بضيفى خيراً ، وكانت من أجمل النساء ! . فلما عاد بعد شهر ، قال لها : كيف كان ضيفك ؟ قالت : ما أشغله بالعمى عن كل شىء ! ولم يكن الضيف أعمى ، ولكنه أطبق جفنيه ، فلم ينظر إلى المرأة ولا إلى منزلها حتى عاد زوجها ! .

عفة الأحلام:

كان ابن سيرين يقول : ما غشيت امرأة قط فى يقظة ولا منام غير أم عبد الله ـ يعنى زوجته ـ وإنى لأرى المرأة فى المنام ، وأعلم أنها لا تحل لى فأصرف بصرى عنها !! وفى عفة الأحلام يقول اللتنى :

عواذل ذات الخال فىّ حواسد ... وإن ضجيع الخود منى لماجد
يَردُّ يدا عن ثوبها وهو قادرٌ ... ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

ويقول الجندى فى هذا المعنى :

عجبت لها تُهدى على النوم وصالها ... ولو وصلت يقظى لزال خبالى
أأقنع من « ليلى » بطيف خيالها ... وهل يقنع المضنى بطيف خيال
على أنه روّى غليل جوانحى ... ورَوَّح أحشائى وأنعم بالى
وكيف اهتدى ـ والليل بينى وبينه ـ ... إلى طلل رثّ المعالم بالى
فلله دَرِّى حين أغضى مَهابةً ... لطيف جمال زارنى وجلال
لبست له بُردَ الخشوع كأننى ... أقيم صلاتى والحطيم حيالى
سوى قبلة من كفه خلت وقعها ... على قلبى الحران برد زلال

من لطيف الكنايات :

يقال : فلان من قوم موسى ، إذا كان ملولا ، إشارة إلى قوله ـ تعالى ـ : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد » ويقال للجارية الحسناء : قد أبقت من رضوان ، ومن ذلك قول الشاعر :

أوحشية العينين أين لك الأهل ... أبالحزن حلوا أم محلهم السهل
وأية أرض أخرجتك فإننى ... أراك من الفردوس إن فتش الأصل
ففى خبرينا : ما طعمت وما الذى ... شربت ، ومن أين استقل بك الرحل
فإن علامات الجنان تدلنا ... عليك ، وإن الشكل يشبهه الشكل

ويقول الجندى فى معناه :

هى حوراء كاسمها للفراديس ... عليها وسامة قدسية
هبطت أرضنا لتبصر بالعين ... وبالقلب صنع رب البرية
ويرى المتقون ما ذخر الله ... لهم فى جنانه العلوية

ويقال للشيخ الضعيف : العاجن والكنتى . قيل له عاجن : لأنه إذا قام عجن الأرض بكفيه ، والكنتى : الذى يقول : كنت أفعل كذا وكذا ، وكنت أركب الخيل ، يتذكر ما مضى من زمانه ، ولا يكون ذلك إلا عند الهرم ، أو الفقر ، أو العجز . ويقولون لمن يخضب : يسود وجه النذير ، والنذير هو الشيب ، ويقول بعض المفسرين فى قوله ـ تعالى ـ : « وجاءكم النذير » إنه الشيب . ويقال لمن يفخر بآبائه : هو عظامى ؛ إشارة إلى فخره بالأموات من آبائه وقومه ، ويقول الشاعر :

إذا ما الحى عاش بعظم ميت ... فذاك العظم حى وهو ميت

ويقال لمن يفخر بنفسه: هو عصامى ؛ إشارة إلى قول النابغة فى عصام بن سهل حاجب النعمان :

نفس عصام سودت عصاما ... وعلمته الكر والإقداما
وجعلته ملكا هماما

ويكنى عن الموت بالقطع عند المنجمين . وعن السعاية بالنصيحة عند العمال .

وعن الجماع بالوطء عند الفقهاء . وعن السُّكر بطيب النفس عند الندماء .
وعن السُّؤال بالزوار عند الأجواد . وعن الصدقة بما أفاء الله عند الصوفية .
ويقال للمتكلف بمصالح الناس : إنه وصى آدم على ولده . وقد قال فى هذا بعض الشعراء .

فكأن آدم عند قرب وفاته أوصاك وهو يجود بالجوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم وكفيت آدم عَيلة الأبناء

ويقال : فلان خليفة « الخضر » إذا كان كثير السفر ، يقول أبو تمام :

خليفة الخضر من يَربَعْ على وطن أو بلدة فظهور العيش أوطانى
بغداد أهلى وبالشام الهوى فأنا بالرَّقتين، وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تبلغ بى أقصى خراسان

ويقال لمن لا يفى بالعهد : لا يحفظ سورة المائدة ، لأن أولها : « يأيها الذين آمنوا أَوفوا بالعقود » ، ويقال للطويل : خيط باطل ، وكانت كنية مروان بن الحكم ، لأنه كان طويلا مضطربا ، وفيه يقول الشاعر :

لحا الله قوماً أمَّروا خيطَ باطل على الناس يُعطى من يشاء ويمنع

وفى خيط باطل قولان :
أحدهما : أنه الهباء الذى يدخل من ضوء الشمس فى الكوة من البيت :
والثانى : أنه الخيط الذى يخرج من فم العنكبوت ، وتسميه العامة : مخاط الشيطان.
ويكنى عن السائلين على الأبواب بحفاظ سورة يوسف ـ عليه السلام ـ لأنهم يعتنون بحفظها دون غيرها .

بوركت من ثعلب :

جاء أعرابى إلى أبى العباس ثعلب وعنده أصحابه ، فقال له : ما أراد القائل بقوله :

الحمد لله الوهوب المنان صار الثريد فى رءوس القضبان

فأقبل ثعلب على أهل المجلس ، فقال : أجيبوه ، فلم يكن عندهم جواب .
وقال نفطويه : الجواب منك يا سيدى أحسن ! فقال ثعلب : أراد أن السنبل قد أفرك : أى صار فريكا . قال الأعرابى : صدقت فأين حق الفائدة ؟ فأشار عليهم ثعلب بره ، فقام الأعرابى ـ وهو يقول ـ : بوركت من ثعلب ! فما أعظم بركتك ! .

الحب قديماً وحديثاً :

قال بعض الظرفاء : كان أرباب الهوى يسرون فيما مضى بالنظر ، ويقنعون بأن يمضغ أحدهم لباناً قد مضغته محبوبته ، أو يستاك بسواكها ، ويرون ذلك عظيما . واليوم يطلب أحدهم الخلوة وإرخاء الستور ، كأنه قد أشهد على زواجهما أبا سعيد وأبا هريرة ، ورحم الله شوقى إذ يقول :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

من حكم الإمام على :

١ ـ سأله رجل ، فقال : بما ذا أسوء عدوى ؟ فقال : بأن تكون على غاية الفضائل ، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فاره ، أو كلب صيود ، فهو ـ لأن تذكر بالجميل وينسب إليك ـ أشد مساءة .

٢ ـ إلهى ، كفانى فخراً أن تكون لى ربا ، وكفانى عزاً أن أكون لك عبداً ، أنت كما أريد ، فاجعلنى كما تريد .

٣ ـ ثلاث مُنجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى ، والعدل فى الغضب والرضا .

٤ ـ إذا قُذفت بشيء فلا تتهاون به وإن كان كذبا ، بل تحرز من طرق القذف جهدك ، فإن القول ـ وإن لم يثبت ـ يوجب ريبة وشكا ! .

٥ ـ العشق مرض ؛ ليس فيه أجر ولا عِوض .

٦ ـ وشكا إليه رجل تعذر الرزق عليه ، فقال : مَهْ ، لا تجاهد الرزق جهاد المغالب ، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم ؛ فإن ابتغاء الفضل من السنة ، والإجمال فى الطلب من العفة ، وليست العفة دافعة رزقا ، ولا الحرص جالباً فضلا ، لأن الرزق مقسوم ؛ وفى شدة الحرص اكتساب المآثم ! .

٧ ـ إزالة الجبال أسهل من إزالة دولة قد أقبلت ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء ! .

٨ ـ أكثروا ذكر الموت ، ويوم خروجكم من قبوركم ، ويوم وقوفكم بين يدى الله ـ عز وجل ـ يَهن عليكم المصاب .

٩ ـ العمر أقصر من أن تعلم فيه كل ما يحسن بك علمه ، فتعلم الأهم فالأهم .

أقول هذه الحكمة للإمام الربانى عليه السلام : أصل من أصول التربية والتعليم الحديث ، وبها يعلم فائدة التوفر على نوع من العلم للإحاطة به ، وهو ما يسمى بالتخصص فى عصرنا .

١٠ ـ ليس كل ذى عين يبصر ، ولا كل ذى أذن يسمع ، فتصدقوا على أولى العقول الزَّمِنة والألباب الحائرة بالعلوم التى هى أفضل صدقاتكم ، ثم تلا قوله ـ تعالى ـ : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

١١ ـ وسئل عن القـدَر ، فقال : أقصر أم أطيل ؟ قيل بل تقصر ، فقال : جل الله أن يُريد الفحشاء ، وعز عن أن يكون له فى الملك إلا ما يشاء .

١٢ ـ يا حملة العلم ، أتحملونه ؟ فإنما العلم لمن علم ثم عمل ؛ ووافق عمله علمه ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يُجاوز تراقيَهم : تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ، يقعدون حلَقاً فيباهى بعضهم بعضا ، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ، أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله ـ سبحانه ـ ! .

١٣ ـ لقد سبق إلى جنات عدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاة ولا صياماً ، ولا حجاً ولا اعتماراً ، ولكن عقلوا عن الله أمره ، فحسنت طاعتهم ، وصح دينهم ، وكمل يقينهم ، ففاقوا غيرهم بالحظوة ، ورفيع المنزلة

١٤ ـ إن الله ـ سبحانه ـ أدب نبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بقوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فلما علم أنه قد تأدب قال له : « وإنك لعلى خلق عظيم » فلما استحكم له من رسوله ما أحب قال : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

١٥ ـ يسرنى من القرآن كلمة أرجوها لمن أسرف على نفسه « قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء » فجعل الرحمة عموماً ، والعذاب خصوصاً .

١٦ ـ كنت أنا والعباس وعمر نتذاكر المعروف، فقلت أنا: خير المعروف ستره. وقال العباس: خيره تصغيره، وقال عمر: خيره تعجيله، فخرج علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له، فقال: «خيره أن يكون هذا كله فيه».

١٧ ـ من كرم المرء: بكاؤه على ما مضى من زمانه، وحنينه إلى أوطانه، وحفظه قديم إخوانه.

١٨ ـ أربع، القليل منهن كثير: النار، والعداوة، والمرض، والفقر.

١٩ ـ أربعة من الشقاء: جار السوء، وولد السوء، وامرأة السوء، والمنزل الضيق.

٢٠ ـ أربعة تدعو إلى الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان الصدقة، وبر الوالدين، والإكثار من لا إله إلا الله.

٢١ ـ عاتبه عثمان ـ رضي الله عنه ـ فأكثر وهو ساكت، فقال: مالك لا تقول! قال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب.

٢٢ ـ بُليت في حرب «الجمل» بأشد الخلق شجاعة، وأكثر الخلق ثروة وبذلا، وأعظم الخلق في الخلق طاعة، وأوفى الخلق كيداً ونكيراً: بليت بالزبير لم يردّ وجهه قط، وبيعلى بن مَنيّة يحمل المال على الإبل الكثيرة، ويعطي كل رجل ثلاثين ديناراً وفرساً على أن يقاتلني، وبعائشة ماقالت قط بيدها هكذا إلا واتبعها الناس، وبطلحة لا يدرك غوره، ولا يطال مكره.

٢٣ ـ لا تَقبل الرياسة على أهل مدينتك، فإنهم لا يستقيمون لك إلا بما تخرج به من شرط الرئيس الفاضل.

٢٤ ـ وسئل عن الفرق بين الغم والخوف، فقال: الخوف: مجاهدة الأمر المخوف قبل وقوعه، والغم: ما يلحق الإنسان من وقوعه.

٢٥ ـ أنا عبد الله وأخو رسول الله لا يقولها بعدي إلا كذاب.

٢٦ ـ أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بيدي فهزها، وقال: ما أول نعمة أنعم الله بها عليك؟ قلت: أن خلقني حيا، وأقدرني، وأكمل حواسي ومشاعري

وقواى ، قال : ثم ما ذا ؟ قلت : أن جعلنى ذكرا ، ولم يجعلنى أنثى ، قال : والثالثة :
قلت : أن هدانى للإسلام ، قال : والرابعة : قلت : «وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها».

٢٧ ـ وقيل له : أى الأمور أعجل عقوبة ، وأسرع لصاحبها صَرْعة ؟ فقال :
ظلم من لا ناصر له إلا الله ، ومجازاة النعم بالتقصير ، واستطالة الغنى على الفقير .

٢٨ ـ المرأة تكتم الحب أربعين سنة ، ولا تكتم البغض ساعة واحدة .

٢٩ ـ ثلاث موبقات : الكبر ، فإنه حطّ إبليس عن مرتبته ، والحرص ؛ فإنه
أخرج آدم من الجنة ، والحسد ؛ فإنه دعا ابن آدم إلى قتل أخيه .

٣٠ ـ الفرق بين المؤمن والكافر الصلاة ، فمن تركها وادعى الإيمان ، كذبه
فعله ، وكان عليه شاهد من نفسه .

يلقمه حجراً :

دخل الجواليق على المقتفى العباسى ، فقال : السلام على أمير المؤمنين ورحمة
الله وبركاته ! وكان الطبيب : هبة الله بن صاعد بن التلميذ النصرانى حاضرا ، فقال :
ما هكذا يُسلم على أمير المؤمن ، يا شيخ !! فلم يلتفت إليه الجواليق ، وقال للمقتفى :
يا أمير المؤمنين ، سلامى هذا ما جاءت به السنة النبوية ، ثم روى له خبراً فى صورة
السلام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، لو أن إنسانا حلف : أن نصرانياً أو يهودياً لم
يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه المعتبر ، لما لزمته كفارة الحِنث ،
لأن الله ـ تعالى ـ ختم على قلوبهم ، ولن ينفك هذا الختم إلا بالإيمان ! .

فقال المقتفى : صدقت وأحسنت !! فكأنما ألقم ابن التلميذ حجراً ، مع فضله
وغزارة أدبه ، وكان الجواليق إماما فى فنون الأدب ، وله تصانيف مفيدة ،
وكان إماما للمقتفى يصلى به الصلوات الخمس .

اتقاء الموت بالعورة :

يقول أبو فراس الحمدانى :

ولا خير فى ردّ الرّدى بمذلة كما ردّها يوماً بسَوْءته عمرو

يريد عمرو بن العاص ، حين ضربه الإمام يوم صِفين ، فالتقاه بسوءته كاشفا

عنها ، فأعرض عنه قائلا : عورة المرء حِمًى . وقد وقع ذلك أيضاً لِبُسْر بن أرطاة فقد كان مع معاوية بصفين ، فأمره أن يلقى الإمام ، قائلا له : سمعتك تتمنى لقاءه ، فلو ظفرت به حصلت على دنيا وأخرى ، ولم يزل يشجعه ويمنيه حتى قصده فى الميدان ، فصرعه الإمام ، فكشف عن سوءته ، فتركه كما ترك عمرو .

أقول : لو أن الإمام ـ عليه السلام ـ كان يريد عرض الدنيا ولا يبغى وجه الله ، لاهتبلها فرصة لها ما بعدها ، ولكنه كان لا يرضى إلا الحق كل الحق لا شيء غير الحق بوسائل هى الحق !

وفى هاتين الحادثتين يقول الحارث بن النضر السهمى ـ وكان عدواً لعمرو ولبسر :

أفى كل يوم فارس ليس ينتهى ... وعورته وسط العجاجة باديه
يكُفُّ بها عنها « على » سِنانه ... ويضحك منها فى الخلاء « معاويه »
بدت أمس من « عمرو » فقنع رأسه ... وعورة « بسر » مثلها حذو حاذيه
فقولوا لعمرو ثم بسر ألا انظرا ... سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقيه[1]
فلولاهما لم تنجيا من حسامه ... وتلك بما فيها عن العود ناهيه
متى تلقيا الخيل المشيحة صُبحة ... وفيها « على » فاتركا الخيل ناجيه
وكونا بعيداً حيث لا تدرك القنا ... نُحوركما إن التجارب كافيه

لا بد للشاعر من النسيب :

كان ابن المولى الشاعر المدنى موصوفا بالعفة وطيب الإزار ، فأنشد عبد الملك ابن مروان شعراً جاء فيه :

وأبكى فلا « ليلى » بكت من صبابة ... لباك ولا « ليلى » لدى البذل تبذل
وأخنع بالعُتبَى إذا كنت مذنبا ... وإن أذنبت كنت الذى أتنصل

فقال عبد الملك : مَن ليلى هذه ؟ إن كانت حرة لأزوجنكها ، وإن كانت أمة

---

(١) الحيا فى الأصل : فرج المرأة ، والحياء بالمد : الفرج من ذوات الظلف والسباع ، وقد يقصر أيضاً .

لأشترينها لك بالغة ما بلغت ، فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، ما كنت لأصغّر وجه حر أبداً فى حرته ولا فى أمته ، وما ليلى التى أنست بها إلا قوسى هذه سميتها ليلى ؛ لأن الشاعر لا بد له من النسيب .

الأخذ بالظاهر :

كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يرد على أحد إسلامه ؛ أسلم عن علة أو عن إخلاص ؛ يكتفى بالظواهر ، ويكل السرائر إلى الله ! .

سخف الجاحظ وجرأته :

كان الجاحظ يفسق عمر بن عبد العزيز ، ويستهزىء به ويكفره ، وعمر ابن عبد العزيز يلقب بالخليفة الخامس ، وهو إن لم يكن من الصحابة فأكثر العامة يرى له من الفضل ما يراه لواحد من الصحابة .

الكهف والغار :

الكهف : النقب فى الجبل ؛ فإن لم يكن فيه سعة فهو : الغار .

السَّوْء والسُّوء :

السوء - بالفتح - مصدر ساءه : أى فعل به ما يكره ، والسوء - بالضم - اسم منه .

الجبان والشجاع :

نفس الجبان ونفس الشجاع سواء فيما يدهمهما عند الوهلة الأولى ، ثم يختلفان ؛ فالجبان يركب نفرته ، والشجاع يدفعها فيثبت ، ومن ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

فجاشت إلى النفس أول مرة ... فرُدّتَ على مكروهها فاستقرت

أولاد عبد مناف :

ولد عبد مناف : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ؛ وعبد شمس أكبرهم ، وهو وهاشم ، والمطلب أشقاء ؛ وأما نوفل فأخوهم لأبيهم .

أو بمعنى إلا :

قال امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينُك إنما ... نحاول مُلكا أو نموت فنُعذَرا

قال المرتضى : أو بمعنى إلا : إى إلا أن نموت .

في القصص القرآني

للأستاذ أحمد الشايب
وكيل كلية دار العلوم

— ٣ —

١٦ — والآن ، كيف ندرس القصص القرآني ؟ ! .

إن الخطأ الذي تردى فيه خصوم القرآن أنهم وجدوا ما يُوَجَّه إلى التوراة والإنجيل من نقد يتصل بالمتن والسند جميعا ، نقد يتبين به مافيهما من خلط ، وتناقض ، ووضع ، واعتراف من أصحابهما بذلك ، فأرادوا أن يسلكوا بالنسبة للقرآن نفس المسلك خطأ وزورا ، ولِمَ لا يُتَّهم القرآن عندهم بمثل ما اتهم به كل من التوراة والإنجيل ؟ أليست كلها كتب ديانات سماوية ؟ أليس من المنطق ، عند هؤلاء ، أن نسوى بينها في الحكم ؟ وما شأننا وشأن توثيق القرآن وصيانته من العبث والكذب والافتراء ؟ فلنتهمه بما اتهم به سواه ، ولنفرض عليه هذه التهم مقدما ، ثم تتناول قصصه تعسفا في التفسير ، ورمياً بالباطل ، وفرضا بلا دليل ، لنصل من وراء ذلك إلى ما نريد ، أما أننا ، نبتعد عن هذا الوضع المعكوس ، ونخضع في دراساتنا للنهج العلمي الطبعي فنبدأ من نصوص القرآن وندرسها في بيئتها ، وفي جوها ، وفي أهدافها ، وفي طبيعتها ، وننتهي من هذه الدراسات إلى نتائجها المنطقية الطبعية ، أما أننا نفعل ذلك نزولا على سلامة المنهج وصحة المادة ، فلا ، لا ، قالوا ذلك ، وادعوا أن الغرض من قصص القرآن هو الذي يبين قيمته التاريخية ، وما الغرض عند هؤلاء ؟ الضحك على الناس بأية وسيلة ولو كانت الخروج على التاريخ ، والكذب ، والافتراء ، والتدليس ، تملقاً للناس لينحازوا إلى جانب القرآن ، أما الهدف الحقيقي المباشر الذي تحدث به القرآن عن نفسه ، وأكده كثيرا من مثل العظة والاعتبار وتثبيت فؤاد النبي فليس له عندهم حساب ، إن هؤلاء قد عكسوا

الوضع ، ووضعوا العربة أمام الحصان ، إنهم بدءوا من حيث يجب أن ينتهوا ، إنهم بدءوا فقرروا النتائج أولا ولو لم تنتجها المقدمات ، ويجب ، عندهم ، على القرآن أن يقبل هـذه التهم الباطلة ، هكذا يفعل الجهلاء ، لماذا ؟ لأنهم يريدون أن يكون القرآن متهماً بالكذب والتزييف والتدليس ، هى عندهم بطولة على كل حال ، وإن كانت مزيفة جاهلة ضالة فاسدة ، يفعلون ذلك وأمام أعينهم الإبطال لهذه التهم والرد عليها ، حيث نهض بذلك الأقدمون والمحدثون أمثال الإمامين : الفخر الرازى ومحمد عبده ، وسنرى فيما يلى كيف تقوّل هؤلاء على الإمامين وعلى غيرهما ، وكيف نالوا كلامهم بالتحريف والبتر لعلهم يصلون إلى ما يدعون .

هذا ، وقد قال العلماء إن التفسير بالرأى يتعرض لخطرين يجب الحذر منهما :

أحدهما : حمل ألفاظ القرآن على معان اعتقدها المفسرون من قبل ، وأرادوا قسر النصوص القرآنية عليها تأييداً لعقائدهم ، فجعلوا مذاهبهم أصولا والقرآن فرعا لها يُحمل عليها ، وهذا شر أنواع البدع .

وثانيهما : التفسير بمجرد دلالة اللغة العربية ، وما يسوغ أن يريده بكلامه مَن كان من الناطقين بها من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن « الله تعالى الصادق » والمنزل عليه « محمد صلى الله عليه وسلم » والمخاطب به [1] ، وهـذا رد على من يتناولون القرآن مستقلا عن مقوماته الدينية والأدبية كأنه كتاب بشرى ، بل إن الكتب البشرية لا يمكن أن تدرس بنجاح إذا أهملت ملابساتها المكانية والزمانية والشخصية .

١٧ ــ فلنترك هؤلاء فى غيهم وضلالهم ، ولنحاول أن نشير فى إجمال إلى معالم المنهج السديد لدراسة القصص القرآنى ، تاركين التفاصيل إلى دراسة مستفيضة نرجو أن ينهض بها من يوفقه الله :

١ ـ يجب التمهيد لهذه الدراسة بالفرق بين القصص القرآنى وبين القصص بهذا الاصطلاح الحديث ، وذلك نزولا على طبيعة قصص القرآن ومنهجه وأهدافه ، كما بينا فيما سبق .

---

(١) راجع مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٠ ، والإحياء للغزالى ج ١ ص ٢٦١ ، وتفسير المنار ج ١ ص ٩ ، ومناهل العرفان للزرقانى ص ٥٠٢ ــ ٥٣٨ وغيرها .

٢ ـ كذلك يجب أن نفرق بين قصص القرآن وبين التاريخ من حيث المنهج والهدف ، كما شرحنا ذلك من قبل .

٣ ـ فإذا تقدمنا إلى قصص القرآن كان علينا أن نجمع آيات كل موضوع متصل بشخص أو أمة ، وأن نرتبها بحسب النزول ، وأن نفهم مناسباتها من جو القرآن نفسه أولا ، ومن أسباب النزول إذا صحت رواياتها .

٤ ـ يجب أن نضع نصب أعيننا أن هذه الآيات المتصلة بموضوع ما ، لا يلزم أن تكون مستوعبة جميع عناصره ، وبذلك لا نتهمها بالقصور ، فما كانت إلا نقرات واردة لمناسبات بيانية فى سبيل التبليغ الإسلامى ، ولذلك يجمعها جميعاً هدف العظة والاعتبار وتثبيت فؤاد الرسول .

٥ ـ ويأتى بعد ذلك عرض الفكرة القصصية مكررة ، وهنا نلاحظ ، كما قدمنا ، أن التكرار تختلف عناصره ، فقد ترد بعض العناصر مرة ، وقد تحذف أخرى ، وأهم من ذلك أن الموقف الواحد قد يُجزأ ما يَرد فيه من أحداث ، فيرد بعضه مرة وبعضه الآخر مرة أخرى ، وذلك حتى لا يقال إن هناك تناقضا فى قصص القرآن الكريم ، وقد يتكرر الموقف وترد فيه عبارات أخرى مناسبة له أو مشابهة لنظيرتها .

٦ ـ وإذا تم التنسيق التاريخى والموضوعى بين مجموع ما ورد فى الموضوع الواحد ، أمكننا ـ فى حدود ما ورد ـ أن نتبين حال المخاطبين بهذه القصة ، وما طرأ على مواقفهم من الإسلام والرسول ، ومقدار ما تأثرت نفوسهم بعناصرها ، كما نتبين تاريخ سير البلاغ الإسلامى نفسه ، وذلك يجعل القصص مصدراً تاريخياً من حيث أنباؤه أولا ، ومن حيث حياة الرسالة الإسلامية من وجه آخر .

٧ ـ فإذا صحت لدينا أنباء تاريخية وثيقة كان لنا أن نضعها فى الاعتبار ، وأن نستعين بها فى تفسير آى القصص ، وأن نوازن بينها وبين قصص القرآن مع ملاحظة الفرق بين المنهجين حسبما وضحنا فيما مضى .

٨ ـ وهنا يمكن أن نعقد موازنة ـ ولا أقول مقارنة ـ بين القرآن وبين التوراة

والإنجيل فى هذا الباب - مع عدم تحكيم هذين فى القرآن - وإنما يكتفى بالعرض أولا وبيان خصائص كل فى قصصه ، فإذا تعارضت النصوص كان علينا أن نتحرى الحقيقة من التاريخ الوثيق إن وجد ، وإلا كنا مضطرين بحكم المنهج أن نتبع النص الوثيق ، وقد بينا ذلك فيما مضى.

٩ - وبتسجيل الخصائص العامة لقصص القرآن ، سواء فيما يتصل به مستقلا ، أو فيما ينتج عن الموازنة بينه وبين غيره ، يمكن وصف القصص القرآنى وصفاً يتناوله ويتناول ما يُقوِّمه من ملابسات زمانية ومكانية وإنسانية ، أو بالاختصار يمكن تأريخه تأريخاً إن لم يكن كاملا فهو مقارب على كل حال.

١٠ - وأخيراً يجب الوقوف طويلا عند أسلوب القصص القرآنى وتبين ما فيه من خواص بيانية ، ولعل أسلوب القرآن فى مقدمة ما عاجز به البشر وتحداهم ، وفى هذا الدرس البلاغى تتركز خصائص لعلها خلاصة ما بينا فى هذا المنهج الوجيز.

١٨ — والآن نورد مثالا موجزا لبيان طبيعة القصص القرآنى ومنهجه ، تطبيقاً لما ذكرنا هنا ، وقد اخترنا ما ورد فى القرآن من أنباء صالح عليه السلام.

وردت قصة صالح مع قومه ثمود فى السور الآتية مذكورة بحسب ترتيب النزول الوارد فى المصحف المتداول فى مصر الآن : هود ، والأعراف ، والشعراء ، والنمل ، والشمس ، والقمر.

١ - فنى سورة هود خلاصة موجزة لمعالم القصة : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب (٦١) قالوا يا صالح قد كنت فينا مَرجوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ، وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير (٦٣) ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا

صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين (٦٧) كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود (٦٨) » .

٢ ـ وفى سورة الأعراف : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، هـذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عـذاب أليم (٧٣) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين (٧٤) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (٧٥) قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون (٧٦) فعقروا الناقة وعتوا من أمر ربهم وقالوا يا صالح إئتنا بما تعدِنا إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين (٧٨) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولـكن لا تحبون الناصحين (٧٩) » .

ويمكنك منذ الآن ملاحظة ما بين آيات السورتين من تقديم وتأخير وإجمال وتفصيل وغيرها ، كما يمر بك بعد حين ، وكما ترى فى آيات السور الآتية .

٣ ـ وفى سورة الشعراء : « كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إنى لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون فيما ههنا آمنين (١٤٦) فى جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨) وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (١٤٩) فاتقوا الله وأطيعون (١٥٠) ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون (١٥٢) قالوا إنما أنت من المسحرين (١٥٣) ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (١٥٤) قال هذه ناقة لها شِربٌ ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم

عـذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العـذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٥٩) ».

٤ - وفى سورة النمل : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون (٤٥) قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطّيرنا بك وبمن معك ، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧) وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون (٤٨) قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون (٤٩) ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين (٥١) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣) ».

وهنا ورد من التفصيل ما لم يرد فى السور السابقة فلننتظر .

٥ - وفى سورة الشمس ، وهى من قصار السور : « كذبت ثمود بطغواها (١١) إذ انبعث أشقاها (١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها (١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها (١٤) ولا يخاف عقباها (١٥) » .

وهنا تنويه بعقر الناقة وعاقرها وبآثار ذلك .

٦ - وفى سورة القمر : « كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسُعر (٢٤) أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غداً من الكذاب الأشر (٢٦) إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابى ونذر (٣٠) إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) » .

وهنا عناية بالجدل حول صالح ودعوته ..

١٩ — ١ - فإذا اتخذنا ما ورد فى سورة هود على أنه إجمال لمعالم القصة وترتيب لوقائعها ، مع ملاحظة عدم الاستقصاء رأينا الدعوة إلى عبادة إله واحد

أنشأ ثمود واستعمرهم فى الأرض ، فيجب أن يستغفروه ويتوبوا إليه ، ولكنهم يقولون : إن صالحا خيب ظنهم به إذ كانوا يعدونه لمهام الأمور ، فكيف ينهاهم عن دين آبائهم بدين يشكون فى أمره ، ولكنه على بينة من ربه الرحمن الذى لا قبل له بمعصيته ، ثم قدم لثمود آيته ، وهى الناقة تأكل فى أرض الله ولا تمس بسوء فعقروها ، فأنذرهم ثلاثة أيام ، ثم أخذتهم الصيحة ـ إلا صالحا ومن آمن به ـ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

٢ ـ فإذا انتقلنا إلى سورة الأعراف ظفرنا بتفصيل يتصل باستخلاف ثمود فى أرض عاد ، وإغداق النعم عليهم ، وبانقسامهم بين مستضعف مؤمن ، ومستكبر كافر ، وبتقديم ذكر الناقة بعد أن كانت متأخرة فى ترتيب آيات هود ، ثم يسجل عليهم صالح عدم الاستماع إلى نصحه ، فباءوا بالعذاب المبين .

ومن الواضح تشابه الأسلوب فى القصتين وضوحا وقوة وجمالا .

٣ ـ وفى سورة الشعراء يقدم النص على تكذيب ثمود لصالح ، ويؤخر الآية فى الذكر ، ويفصل بذكر ما دار من جدل حول رسالته ، واستنكارهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم ، وتحديه أن يأتيهم بآية ، فكانت الناقة .

٤ ـ وفى سورة النمل تفصيل جديد يحكى افتراق ثمود فريقين يختصمان أمام دعوته ، وباستعجالهم السيئة قبل الحسنة ، وتطيرهم به وبمن آمن معه ، وبهؤلاء الرهط المفسدين ، والمتآمرين عليه ، وبما مكروا فكانت عاقبة مكرهم أن دُمروا وخويت بيوتهم بما ظلموا ، ولم يصرح هنا بالآية « الناقة » .

ويجب أن نلاحظ منذ الآن أن الموقف الواحد فى القصص قد ترد فيه عبارات مرة غيرها فى مرة أخرى ، وتفسير ذلك أن القرآن يحكى جزأ مما حصل فى المرة الأولى ، وجزأ آخر فى المرة الأخرى ، وهكذا .

٥ ـ وأما سورة الشمس فقد نوهت بعقر الناقة وعاقرها ، وما تبع ذلك من عذاب حل بثمود ، وهذا تصوير رائع يرتفع بقوته إلى الغاية .

٦ - وفى سورة القمر تكرار - ولكن بأسلوب جديد - للمعانى التى وردت فى بعض السور الأخرى من استنكارهم أن يكون الرسول بشرا ، ومن تكذيب صالح ، وتوعد القرآن لهم ، وذكر الآية ، وقسمة الماء بينهم وبينها - وهذا جديد - ثم عقر الناقة وما أعقب ذلك من عذاب .

٢٠ — فإذا لاحظنا ما ورد فى سورة الأعراف بعد هود ، تبين لنا أن ثمود كانوا فى جملتهم معاندين ينتظرون دليلا أو آية ، فعجل لهم القرآن بذكر الناقة ، ونبههم إلى عاد قوم هود الذين سبقوهم إلى الأرض التى يعيشون فيها ، ثم نراهم انقسموا فريقين مؤمن وكافر به ، ثم كان عقر الناقة والعذاب ، وخروج صالح من المهدة بعد ما نصح لثمود فلم ينتصحوا ، وفى الشعراء ما يدل على تعنت القوم ورمى صالح بأنه من المسحرين ، فإذا كانت النمل رأينا المؤامرة بصالح ، وفى الشمس كانت العاقبة الوخيمة لثمود ، وقد تكررت فى سورة القمر بأسلوب مفصل .

ذلك ما يتسع له المقام هنا مما يتصل بمنهج القصص القرآنى ، وربما كان الواجب أن نلم ببعض الشبهات التى يوردها خصوم القرآن ؟

الثروات الطبيعية والتصنيع من خلال آيات القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

— ١ —

القرآن الكريم يخاطب النوع الإنسانى بعناية وتقدير ، على أساس أن الإنسان مخلوق له رسالة عظيمة الشأن استخلفه الله فى الأرض لتحقيقها ، ويسر له جميع وسائلها ، حيث زوده بالعقل ، وأقدره على الحركة الفكرية التى لها طابع المتابعة ، واستنباط المجهول من المعلوم ، وزوده بأعضاء وجوارح تعينه كذلك ، ثم جعل الأرض نفسها مزودة بكل شىء « وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » وهيأ للإنسان فيها جميع الثروات الطبيعية ، والمواد الأولية ، ثم سخر له مع ذلك كل شىء خارج نطاق الأرض .

والروح الذى يدرك من هذا كله : أن الأرض وما حولها ميادين عظيمة خلقت وهيئت بقوانين وسنن ثابتة حكيمة ، وسخرت للنوع الإنسانى ، كى يجول فيها ، ويستثمر ثمراتها ، وينتفع بخيراتها ، ويولد منها ما شاء وما هداه إليه عقله ، وما استطاعه دون حجر ولا تحديد .

لقد منح القرآن الكريم الإنسان بهذا شخصية قوية ، وغرس فيه الاعتداد بالنفس ، والثقة بالقدرة ، والرغبة فى توليد كل ما يعينه من الإمكانيات الطبيعية والصناعية ، ليتقدم من نصر إلى نصر ، ويرتفع من علو إلى علو ، تحقيقاً لقوله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » .

وهذه العناية الإلهية بشأن الإنسان راجعة إلى علمه تعالى وحكمته ، ولذلك تساءل الخلق الأخيار ـ وهم الملائكة ـ لما استخلفه الله فى الأرض ، عن سر اختياره دونهم ، فأعلمهم الله أنه أقدر منهم على تحقيق الرسالة التى اختير لها ، لما هيأه الله

عليه من صفات ، وزوده به من قدرة وإمكانيات : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون » ، وهذا حكم فاصل من شأنه أن يرفع معنويات الإنسان ، حيث يرى أن الإله الخالق القادر الحكيم العليم اعتبره أصلح لعمارة الكون من الملائكة الأبرار الأطهار ، مع أنه مخلوق يصدر عنه الفساد أحياناً ، وسفك الدماء أحياناً ، ومع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

ثم حكم حكما آخر على منافس آخر للإنسان ، هو إبليس عدو بنى آدم اللدود ، حيث أمره بالخضوع لآدم ، فلما لم يخضع تكبراً واستعلاء ، وعصى أمر الله ، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، لعنه الله وطرده من رحمته ، ونصر الإنسان عليه فى موقف التحاكم ، وحذره منه ومن ذريته مبيناً له أنه عدوه المبين « قال اخرج منها فإنك رجيم ، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين » .

وإذن فالإنسان هو النوع المختار الذى علم الله جدارته بالرسالة التى استخلفه فى الأرض من أجلها ، دون الطيبين الأبرار من الملائكة ، والمفسدين الأشرار من الأبالسة .

وما دام الإنسان مخلوقاً له رسالة ، وقد استخلف فى هذا الكوكب لغاية ، فلا يمكن أن يرضى الإسلام الذى يقرر هذا ويؤكده مرة بعد مرة فى آيات من كتابه الخالد ، بأن يقضى الإنسان حياته فارغا أو قابعا مستسلما لما حوله ، مستمرئا رتابة الحياة ونعيمها السهل الميسر دون أن يعمل ويشقى .

وليس الإسلام هو دين الرهبنة الذى يرضى أو يطلب من الإنسان أن يعيش كما يعيش الراهب فى صومعته ، أو كما يعيش المنقطع فى الجبل ، لا يعمل ، ولا يزرع ، ولا يحصد ، ولا يفكر ، ولا يؤلف ، ولا يوجه ، ولا يشارك فى أى نشاط ، بحجة أنه متفرغ للعبادة ، وأداء حق الشكر لله تعالى على ما أنعم ، وأنه مؤثر للزهد فى الحياة ، واحتقار الدنيا وزينتها .

وذلك لسبب بديهى هو أن هذا هروب من الرسالة التى خلق لها ، وتخلص من الأمانة التى هيىء لتحملها ، وغفلة عن قاعدة أساسية قررها الإسلام ، وهى أنه

يعتبر كل عمل يقوم به المرء للإصلاح والتعمير، والتوليد والتثمير، عبادة لا تقل فى أهميتها عن الصلاة والصيام والحج، بل ربما تفضلها، وأن الله تعالى حين قال: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» لم يحصر نوع العبادة بالنسبة للإنس فى أداء الفرائض والنوافل الروحية، وإنما بين فى غير هذه الآية أن كل عمل صالح فهو عبادة ما دامت النية فيه حسنة، والقصد سليما مشروعا، وما دام المرء مؤديا به حقاً عليه لنفسه أو لمجتمعه، أو لأمته، أو للإنسانية عامة.

* * *

إذا تبين لنا هذا علمنا أن الإسلام يريد تهيئة النوع الإنسانى للعمل والسعى وتعمير الأرض واكتناه شأن الكون، والانتفاع بما سخره الله فيه.

وبذلك يكون قد أمد الأرض بالموارد البشرية، أي هيأ لها ـ باعتبارها منجماً كبيراً أو مستودعاً هائلا ـ موارد لا تنقطع من القوى البشرية العاملة الدائبة المفكرة المدبرة، المقبلة على السعى بفطرتها وطبيعة تكوينها، ولم يحل بالدين بينها وبين هذا السعى والدأب، بل جعله دافعاً لا مثبطاً ولا مخذلا ولا معوقا.

فهذا هو المورد الأول والأساسى من موارد الإعمار والكشف والتثمير والتحصيل والتصنيع، لولاه ما كان للأرض قيمة، ولا لثرواتها الطبيعية من ينتفع بها، ولا لما حول الأرض دلالة ولا إشارة تنبىء عن عظمة الخلق، وبديع الصنع، ولظل العالم كالقصر المنيف الذى هيىء أعظم التهيئة بكل شىء، ثم ترك خالياً خربا لا يسكنه أحد!.

وإن هذا ليتفق مع النظريات الاقتصادية كل الاتفاق، فإنه لا فائدة فى أى مورد من الموارد الاقتصادية الطبيعية إلا إذا توافرت لها الموارد البشرية التى تستنبطها وتستحييها وتعمل فيها العقل والفكر، وتصنعها أو تهذبها على نحو من التصنيع أو التهذيب.

* * *

والقرآن الكريم بعد أن يبين الغاية من خلق الإنسان، وبعد أن يحشد أفراد هذا النوع للعمل والسعى والدأب، كمورد أساسى للإعمار والتصنيع يلفت الإنسان

فى كثير جداً من الآيات ، إلى الثروات الطبيعية التى خلقها الله ، وأعدها للإنسان لينتفع بها على وجه طبيعى أحياناً ، وصناعى أحياناً ، فهو يلفت إلى الثروة الزراعية ، أو النباتية حيث يقول :

« هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميتِ من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » .

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد » .

« أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء جعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون » .

« أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » .

« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون » .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم » .

« وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافا » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تلفت إلى الثروة النباتية التى هى أساس عيش الإنسان وغذائه وطعامه وفاكهته ، والتى يرجع إليها شطر كبير من عمل العاملين ، وتجارة المتجرين ، وحركات النقل ، والمصانع .

ويلاحظ أن القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى هذه الثروات بأسلوبه الذى ينتهز كل فرصة تواتيه حتى ينفذ من خلالها إلى العبرة والدلالة على بديع القدرة ، وواسع الرحمة ، لأنه يربط دائماً بين الأشياء والأعمال ، وما توحى به من حقائق توجب الإيمان ، وتحول بين الإنسان وما قد يعتريه من الطغيان ، وتعرفه بربه وما له من حق عليه .

ولذلك نراه لا يسرد أصناف النبات والزرع سردا كما لو كان يقدم بها جدولا اقتصاديا ، أو كشفا حسابيا ، وإنما يذكرها موزعة فى مواضع مختلفة ، ويقدمها إلى العقول كى ترى فيها عظمة الخالق : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » .

« إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ، « إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » ، « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ، « فلينظر الإنسان إلى طعامه » ، « أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » وهكذا يأتى لفت الأنظار إلى الخيرات والثمرات مقترنا بلفت الأنظار إلى واهبها والمنعم بها ، وهذا من أسرار البلاغة والإعجاز فى القرآن الكريم ، إذ يثير العواطف فى قلوب المؤمنين حتى وهو يقدم صورة اقتصادية تلفت إلى بعض الموارد الطبيعية .

ثم يلاحظ أيضاً أن القرآن الكريم يلفت فى أثناء ذلك إلى تصنيع هـذا النوع من الثروات ، حيث يقول فى بعض الآيات : « تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فالاتخاذ لا يكون إلا بنحو من الصنعة والعمل والتحويل ، وحيث يقول : « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات » والتعريش إنما يكون حيث يتعاون الإنسان مع السنن الكونية للنبات والزرع ، فهو لون من ألوان الصنع الإنسانى الذى يدخله الناس على بعض الموارد الطبيعية تنظيما للانتفاع بها ، وتحويلا لها عن أوليتها الفطرية ، وسذاجتها الأصلية ، ويقول الله تعالى فى التفرقة بين ما يكون من فعل الإنسان وفعل الخلاق : « أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » فالحرث هو فعل الإنسان ، إذ هو الذى يقلب الأرض ويهيئها لتلقى البذر ، ويثير باطنها ، أما الزرع فهو صنع الرحمن إذ هو الذى سن قانون النبات ، وأودعه القوة التى تجعله يمتص الماء بقدر ، ويأخذ من التربة بقدر ، ومن ضوء الشمس بقدر ، فينزرع وتتمكن جذوره ثم ينمو ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه ، وليس للإنسان فى هذا الجانب أى عمل ، وكذلك قوله تعالى : « أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » فالشجر فى الغابات وفى غيرها منشأ من الله تعالى بتكوين عناصره التى يمكن معها أن يكون نارا ، وليس للإنسان دخل فى تكوين هذه العناصر وتأليفها ، وقد اكتشف الناس فيما بعد أن هذه الشجرة التى توقد منها النار هى الأصل للفحم الشجرى ، وقد مرت عليها أعصار طويلة فى المصنع الإلهى حتى صارت فحما يستخرج ويستوقد بفعل الله ، أو كما يقولون : بفعل الطبيعة ، وما الطبيعة إلا قوانين التكوين والتحويل التى سنها الله ، فسبحان الخلاق العليم .

— ٢ —

يتصل الإنتاج الحيوانى بالإنتاج الزراعى اتصالا وثيقا ، فكلما كان هناك رواج زراعى ، كان هناك رواج حيوانى .

وسبب ذلك واضح ، وهو أن الحيوان ككائن حى يحتاج إلى الغذاء ويفتقر إلى العوامل الطبيعية للنمو والتوالد ، وهو يجد ذلك بصورة سهلة منتظمة فى البيئات الزراعية .

حتى أن علماء « الجغرافية الاقتصادية » يعتبرون أن الإنتاج الزراعي بمعناه الواسع يشمل الإنتاج الحيواني ، وهذا صحيح في واقع الأمر ، لأن الحقل الذي ينتج الحبوب والمراعي ، ينبت أيضا اللحوم بطريق غير مباشر ، إذ أن الحيوانات المقصودة للحم تتغذى مما ينتجه الحقل فيتحول غذاؤها إلى لحم بنمو الحيوان وتوالده .

والقرآن الكريم يربط بين الزراعة والإنتاج الحيواني حين يصرح بأن ما تخرجه الأرض من النبات يقصد منه فيما يقصد أن يكون طعاماً للإنسان والحيوان ، وأن الماء الذي تروى منه الأرض لتنبت زرعها ، يسقى منه الإنسان والحيوان كذلك ، فالله تعالى يقول :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم » .

« الذي جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن في ذلك لآيات لأولى النهى » .

« أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم » .

« أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون » .

ونجد في الآية الأخيرة من هذه الآيات تقديماً في الذكر للأنعام على أنفس الآدميين ، تأكيداً لحق الأنعام في الزرع ، كما نجد في الآية التي قبلها تسوية بين النوعين في اعتبار ما تنبته الأرض متاعاً لهما ، إذ تقول : « متاعاً لكم ولأنعامكم » .

ويقول الله عز وجل في شأن الماء الذي أنزله :

« وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً » .

فالماء أيضاً شركة بين الناس والأنعام والنبات .

والقرآن الكريم يشير إلى ارتباط العوالم الثلاثة : عالم الإنسان، وعالم الحيوان، وعالم النبات ، فيما يتصل بالحجم العددى لأفراد هذه العوالم، وأنها وجدت على قانون يجعلها متوازنة ، وذلك باستعماله لفظ « ذرأ » الذى يدل على الإيجاد بالبث والكثرة والتوليد ، لا على مطلق الإيجاد .

فالله تعالى يقول فى شأن الناس : « وهو الذى ذرأكم فى الأرض » .

وفى شأن النبات : « وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه » .

وفى شأن النبات والحيوان جميعا : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » .

وفى شأن الإنسان والأنعام : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه » .

فالقانون الإلهى العام الذى جعل سنة كونية ثابتة لتحقيق النسبة بين الإنسان والنبات والحيوان ، هو قانون « الذرء » أى البث والتكثير والتوالد والتضاعف ، فكلما كثر الناس ، كثر الزرع والنبات ، وكثرت الأنعام .

وكما وصف الله تعالى فى لسان الشرع بوصف « البارىء » الدال على مجرد الخلق والإبداع ، وصف بوصف « الذارىء » الدال على الإيجاد بسنة التكثير والتضعيف والتوليد .

والقرآن الكريم كما يلفت إلى الموارد والثروات الحيوانية فى آيات كثيرة أيضا ، وأسلوبه هنا هو أسلوبه هناك : لا يكتفى بأن يمر على الأشياء ، مراً عابراً ، ولكن يقف وقفات يربط فيها بين النعمة والمنعم ، ويهدى الناس إلى الأساس الذى يجب أن يقيموا عليه صروح انتفاعهم واستغلالهم ، وهو أساس الإيمان بالخالق الوهاب ، ومعرفة حقه ، وما أمر به فيما بين أيديهم من هبات .

والثروة الحيوانية التى أنعم الله بها على الناس أصناف :

فمنها ما يراد للانتفاع بلحمه وشحمه ، ومنها ما يراد للبن الذى يدره ، ومنها

ما يراد لأشعاره وأوباره ، ومنها ما يراد لجلوده او ريشه ، ومنها ما يراد لغرائه أو أنيابه ، ومنها ما يراد للركوب والحمل والجر والحرث . . . وهكذا .

وقد ذكر القرآن الكريم ، وبينت السنة هذه الأصناف ، وكان أسلوب القرآن فى عرضها أسلوباً رائعاً من شأنه أن يهز النفوس ، ويثير إعجابها وإقرارها بعظمة الله تعالى ، كما يثير انتباهها إلى هذا اللون من الثروات .

يقول الله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » .

وهذه الآيات تقرر فى مطلعها حقيقة يريد الله من الإنسان أن يعلمها ، ويجرى فى حياته على مقتضى علمها ، وهى أن هذه الأنعام مخلوقة للإنسان ، أى أن له أن يملكها ، وأن يستهلكها فى مصالحه ، وأن يسخرها كما يشاء ، وذلك قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم » .

ثم تبين الآيات ما تقصد له هذه الأنعام ، فنراها تذكر : الدفء ، والمنافع ، والأكل ، والتجمل والزينة ، وحمل الأثقال ، وبلوغ الأهداف بعد قطع المسافات الطويلة .

وفى هذا استقصاء شامل لكل ماتراد له الأنعام ، فإذا نظرنا إلى قوله جل شأنه : « فيها دفء » أمكننا أن نفهم منه هذا الدفء الذى يحصل لنا بأصواف الغنم ، أو أشعار البقر ، أو أوبار الإبل ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

« ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » .

ولنا أن نفهم منه ذلك الدفء الذى يحدثه أكل اللحم ، فإنه مكون من عناصر فيها كثير مما يبعث الحرارة والقوة والقدرة على مكافحة تيارات البرد ونزلاته .

وقوله تعالى : « ومنافع » فيه إجمال تام لكثير مما يراد له مصدر الدفء ، وهو الجلود والأصواف والأشعار والأوبار ، فليست منافعها أو منافع الحيوان

الذى تصدر عنه قاصرة على التدفئة ، بل هناك عشرات من وجوه الانتفاع يعرفها أهل الصناعات ، ونشهدها فيما بين أيدينا من أمتعة مستخدمة ، وكلما تقدمت الصنعة ، وقوى الإنسان بالعلم ، ازدادت معرفته بهذه الوجوه ، وظهرت له ألوان المنافع .

ولسنا بصدد تفسير الآيات ، ولكننا نريد فقط أن نوجه الأنظار إلى منافعها من أسرار ترشد إلى الثروة الحيوانية ووجوه تصنيعها والانتفاع بها .

وما أحسن قوله تعالى بعد ذكر الخيل والبغال والحمير :

« ويخلق ما لا تعلمون » فإن فيه إشارة إلى أن الله تعالى سيعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، وأنه إذا كانت هذه الحيوانات يراد بعضها للركوب والزينة والحمل والجر والحرث وغير ذلك ، فإن زمان الآلة سيأتى على الناس ، وسيؤدى كثيراً من وظائف هذه الحيوانات ، وقد حدث ذلك فلم يلبث الناس حتى رأوا « الموتورات » تأخذ المكان الأول فى التصنيع والتحريك ، والحمل والجر ، والغوص ، والطيران ، وكل ذلك مندرج تحت قوله تعالى : « ويخلق ما لا تعلمون » ولو أن القرآن يوم كان ينزل زاد الناس إفصاحا ، وصرح بهذا الذى أشار إليه ، فذكر الحديد الطائر ، أو الغائص ، أو المتحرك ، أو المحرك ، لشق ذلك على أذهان الناس يومئذ ، وما قبلوه ، ولو أنه اكتفى بذكر الأنعام والخيل والبغال والحمير ، ولم يشر إلى ما سوف يكون من آلات ، لكان لنا أن نقول فى عصرنا : أين هذه الحيوانات من الوسائل الآلية التى استحدثها العلم ، وازدهرت بها الصناعة ؟ فسبحان الحكيم العليم .

ويقول الله تعالى فى شأن نوع من أنواع الحيوان سخره للناس :

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » .

ولا شك أن عالم النحل وما يمتاز به من نظام ، وما يؤديه لبنى الإنسان من خدمات وثمرات هو عالم جدير بالتأمل والاعتبار والاستفادة بما يرشد إليه من

جوانب القدرة فى الدقة والمثابرة وقوة الصبر على المتابعة ، فالمناحل ماهى إلا مصانع مدوية تمتلىء بألوان النشاط والسعى والعمل الدائب ، ولكل عامل فيها دوره ، وليس فيها موطن لكسلان أو متخلف أو متعطل .

وما زالت الأبحاث العلمية فى الشرق والغرب ، دائبة على محاولة استكشاف ما فى عسل النحل من شفاء للناس ، وقد عرفوا بعض الحقائق فى ذلك ، وسوف يعلمون أكثر منها « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

ويقول الله تعالى واصفاً لنوع من أنواع الإنتاج الحيوانى وهو اللبن :

« وأن لكم فى الأنعام لعبرة : نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصاً سائغاً للشاربين » .

ولا شك أن هذه الآية الكريمة تشير ، بل تصرح ، بوجوب الاعتبار عن طريق التحليل الكيماوى للبن ، وكيف أنه يخرج خالصاً سائغاً للشاربين من بين « الفرث » الذى هو الزبل فى الكرش ، والدم الأحمر المعروف ! .

ويقول الله تعالى ذاكراً الأنعام وما يستند إليها من صناعات :

« والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » .

وأن هذه الآية لتشمل كثيراً من وجوه النشاط الصناعى المتصلة بالجلود والأصواف والأوبار والأشعار ، فكم قامت على ذلك صناعات ، وأقيمت مصانع ، وعملت أيد ، وفكرت عقول ، وراجت أسواق ، ودرت أرزاق ! .

ويقول الله تعالى فى لفت الأنظار إلى اختلاف ألوان الدواب والأنعام ، كما تختلف الألوان فى الثمرات ، وفى الجبال ، وفى الناس :

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك » .

إلى غير ذلك من آيات القرآن الكريم التي تلفت النظر إلى ما وهبه الله الإنسان من ثروات حيوانية سخرها له ، ومكنه منها ، وحثه على الانتفاع بها ، وهيأه لتحويل منتجاتها بالصناعة إلى ملابس وأثاث وزينة ووقاية وبيوت مستخفة فى السفر والإقامة ، وغير ذلك من وجوه التصنيع والانتفاع .

* * *

وقد أباح الله أنواعاً من الحيوان فأذن بأكلها والانتفاع بلحمها وشحمها وجلودها وسائر أعضائها ومستخرجاتها فيما وراء الأكل ، وحرم أنواعا أخرى ، فلم يبح أكلها لما فيها من مضرة علينا ، كتحريمه - على لسان رسوله - كل ذى مخلب من الطير ، وكل ذى ناب من السباع ، وكتحريمه فى القرآن الكريم أكل لحم الخنزير وأباح الانتفاع ببعض أشياء من تلك المحرمات فى غير الأكل ، كالفراء ، أى جلد النمر أو السبع أو نحوهما ، فإنه داخل فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « أيما أهاب - أى جلد - دبغ فقد طهر » ، وكذلك ورد تحليل الانتفاع بناب الفيل ، ومن الفقهاء من يجعل الفيل نفسه مباح الأكل .

وإذن فالمدى واسع أمام الإنسان ، للانتفاع بسائر أنواع الحيوان ، وليس فى الشريعة ما يحول بين الإنسان وهذا الانتفاع المباح .

وقد سفه الله أحلام قوم حرموا ما لم يحرمه الله من الأنعام افتراء عليه فقال :

« ومن الأنعام حمولة وفرشا ، كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

« قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

تعريفٌ بالقرآن

المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء
ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بريرى

— ٢ —

الباب الثانى : جمع النص الموحى :

يقدّم إلينا القرآن الآن فى سفر واحد يتألف فى شكله الأكثر دوراناً من نحو ٥٠٠ صفحة ، وفى كل منها خمسة عشر سطرا ، وينقسم إلى ١١٤ سورة - أو بابا - تختلف طولا بعد الفاتحة المؤلفة من خمسة أسطر صغيرة - تأتى السور مرتبة عموما بحسب طولها النسبى الأطول أولا ، فالمتوسطة فى الوسط ، فالأقصر - بعضها من سطر واحد - فى الآخر . ويجد المطالع ما يرشده من العلامات الصوتية والوقوفية والإملائية ، وعلامات الترقيم وكل ما يرشده نطقاً ووقفاً .

ولم يكن القرآن كذلك على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان النص قد بقى تماماً كما أملاه فإن المظهر قد تغير كثيراً . . أولا لم يكن حين ذاك ما يسمى مجلداً أو سفراً ، كما أمكن أن نشهد فى الأمثلة المذكورة آنفا ، فلقد ظهر القرآن نجوماً تطول وتقصر ، وتختلف من سورة تامة إلى آية بل أحياناً بعض آية ، فكل قطعة يوحى بها إلى النبى يتلوها ، ويحفظها سامعوها ، ويذيعونها بين الذين لم يسمعوها مباشرة من فمه ، فكل ينتظر الوحى فى حرارة ويود أن يتلقاه بقدر ما يتنزل ، وأعداء النبى أنفسهم بعيدون عن أن يكونوا غير مكترثين لقرآنه ، بل هم يحاولون فى الغالب أن يستمعوا إلى تلاوته ، إما ليجدوا نقطة ضعف تنفع فى المناقشة أو المهاجمة ، وإما ليشبعوا حاجتهم العاطفية الملحة إلى الأدب . تصور إذن مقدار

الرغبة التى يوحيها إلى أنصاره .. أولئك الذين صار القرآن غذاءهم الروحى وقاعدتهم السلوكية ، ونص صلاتهم ، وأداة دعائهم ، إنه أنشودتهم وتاريخهم .. إنه قانونهم الأساسى ، بل المجموعة القانونية لكل ملابسات الحياة .

ولكن النص المقدس ليس قرآناً فحسب أو مجموع ما يتلى شفاها بقصد حفظه عن طريق الذاكرة وحدها ، بل هو أيضاً كتاب ، فهما مظهران متعاونان مترافقان أبدا على التبادل ، لذلك فكل قطعة يوحى بها إلى النبى ويتلوها تقيد كتابة على شىء فى متناول الكاتب : ورق وألواح وقطع جلد مدبوغ أو غير مدبوغ وحجارة مسطحة ... الخ ، وأوثق العلماء يرفع عدد كتاب الوحى إلى تسعة وعشرين ، هم الذين كان يملى عليهم النبى ، والأعرف منهم الخلفاء الخمسة : الأول : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، ثم الزبير بن العوام ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ولكن معاوية وزيد بن ثابت كانا مخصصين لهذا العمل أكثر من غيرهما .

وإذا لم يكن عدد الكتاب بمكة كثيرا ، ولم يكن لهم طابع رسمى ، فإن المؤمنين من البداية ما كانوا ليقصروا حتى فى أحرج أيام الاضطهاد عن كتابة الوحى فى صحف شخصية لاستعمالهم الخاص ، وإن الآثار لتحدثنا أن عمر يدين بإيمانه لتلاوة ورقة وجدها عند أخته محتوية أوائل آيات السورة العشرين ، على أن تلك الوثائق فى شكلها المكتوب هذا لم تكن فى أوليتها مجموعة مرتبة منسقة مرقومة . ولم يكن عند النبى أية قطعة مكتوبة ، كذلك لم يكن عند الأفراد فى ذلك العهد أية نسخة كاملة .. بل كانت النصوص هكذا مشتتة بين المؤمنين ، ولم يكن فى الإمكان أن تأخذ صورتها النهائية فى الذاكرة العامة إلا قرب نهاية حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان لوحظ منذ وقت مبكر أن تلك المتنزلات منجمات ما كانت لتصير إلى أن تبقى هكذا متفرقات كلها ، ولا أن تتعاقب بحسب تاريخ نزولها ، لقد روى أن مجموعات كثيرة من الآيات آخذة فى التكامل مفترقة بعضها عن بعض لتكوّن شيئا فشيئا وحدات مستقلة بإضافة الآيات الأخر التى تأتى فيما بعد لتلحق بها ، فكان يجب أنّ

هذه الآية مثلا تضاف هنا وتلك هناك فيما بين أولئك، حسب بيان الرسول الصريح، مؤكدا أن هذا البيان نفسه موحى به كما أمر أمين السماء، وكيما يترك الباب مفتوحا لهذا البناء المطرد التقدم كان لزاماً أن ينتظر تمام الكتاب قبل أن يوضع فى جسم واحد..
على أن التتابع المستمر للآيات إذا لم يأخذ الشكل المكتوب منذ البداية، فلقد كان على العكس من حيث التلاوة، وفى كل مراحل تنزل الوحى معروفا أن كل فقرة لها موضعها المحدود: سورة كذا [1]، كذلك كان الأمر فى الصلاة والتعليم والموعظة والتلاوات الأخر، وكذلك وجد فى حياة الرسول مئات من الصحابة سموا « حملة القرآن » إذ اختصوا بتلاوة الكتاب، فحفظوا عن ظهر قلب كل سورة فى صورتها المبينة مؤقتا أو نهائيا، فنرى ابن مسعود مثلا يفخر بأنه أخذ أكثر من سبعين سورة من فم النبى الذى يؤكد لنا من ناحيته أنه فى شهر رمضان من كل سنة كان يراجع القرآن مراجعة عامة بتلاوة الآيات التى تنزلت فى حضرة جبريل الذى راجعه معه مرتين فى السنة الأخيرة، فكان ذلك إيذاناً بدنو ساعته صلى الله عليه وسلم، وما ان ينقضى عام على وفاته عليه الصلاة والسلام حتى تمس الحاجة إلى جمع تلك الوثائق المبعثرة فى مجموعة يسهل استعمالها والرجوع إليها، ويتتابع فيها أجزاء كل سورة حسب النظام الذى تحدد واستقر فى الذواكر دون أن ينقطع استمراره، أوحى بالفكرة عمر بن الخطاب للخليفة الأول بعد وقعة اليرموك مع مسيلمة الكذاب التى استشهد فيها مئات من الصحابة، منهم سبعون من حملة القرآن، فقد خشى أن يطارد نقص عدد الحفاظ من جراء الحروب المحتملة.. إنها لوسيلة لم يرد بها حفظ تلك الوثيقة كاملة بحيث يتيسر الرجوع إليها عند الحاجة فحسب، بل أراد أيضاً إعطاءها الصورة الرسمية الموحدة بتأييد أولئك القراء الأحياء هم، وجمع أصحاب الرسول الذين يحفظ كل منهم جزءاً من القرآن قل أو كبر.

---

(١) ربما باستثناء الآية الأخيرة من السورة الرابعة التى نزل بها الوحى قبيل وفاة النبى، فلم يسمح الوقت للصحابة بأن يستفسروا عن الموضع الذى يجب أن توضع فيه، فأضيفت إلى هذه السورة لوحدة الموضوع الذى تعالجه.

عهد بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت الذى أحس ثقل التبعة التى يفرضها مثل هذا العمل فتردد ، ولكن أبا بكر يلح عليه : « إنك لرجل ذكى ، وليس عندنا أدنى شك فى نزاهتك ، ولقد كنت تكتب الوحى عند إملاء النبي ، فلتضطلع إذن بعبء جمع القرآن »[1] .

وثم سبب آخر يبدو أنه كان ذا أثر فى هذا الاختيار ، ذلك أن زيدا لم يكن من حملة القرآن وكتاب الوحى فحسب ، ولكن من ناحية أخرى حضر تلاوة النبي الأخيرة للقرآن[2] .

وزيادة على كل ضمانات الصحة تلك وضع للعمل قاعدة روعى أن تطبق تطبيقاً دقيقاً : ذلك أنه لا يقبل أى مكتوب لم يشهد اثنان بأنه حرر لا من الذاكرة ، بل بإملاء النبي نفسه ، وأنه أحد أجزاء النص فى وضعه الأخير ، يقول لنا الليث ابن سعد إن طلب الشاهدين كان من نتائجه استبعاد نص عن رجم الزانى ، لأن عمر كان وحده شاهده ، ولما أتم زيد العمل بكل تلك الاحتياطات وضعه بين يدى أبى بكر الذى حفظه مدة خلافته ، وعهد به قبل موته إلى عمر بن الخطاب المعهود إليه بالخلافة ، والذى استحفظ عليه فى اللحظات الأخيرة بنته حفصة إحدى أمهات المؤمنين ، لأن الخليفة لما يكن اختير بعد .

هذا المجموع الأول الذى يمكن أن نتمثله ملفاً يضم صحفا مرتبة ، إلا أنها غير متصلة زيادة على كماله يفترق عن النسخ الأخرى التى كانت لدى الآخرين كاملة أو جزئية بالدقة الشديدة الموفية التى تجنبت كل ما ليس جزءا من النص نفسه المتلو فى آخر صوره ، فالواقع أن مثل ابن مسعود أو أبى بن كعب إذ يكتبون من الذاكرة كانوا يعيدون صورة قراءة ربما كانت ترتبط بتاريخ سابق ، أو يستبيحون أن يكتبوا على الحاشية أو بين السطور فى نسخهم الخاصة ، وفى الغالب بلون مختلف

---

(١) يكتب « ليبلوا » مذكرا بهذه الوثيقة : «من ذا الذى لايتمنى لو أنه بعد موت المسيح كلف أحد تلاميذه المباشرين أن يعطى تعليماته الصورة المكتوبة » القرآن والتوراة العبرية ليبلوا ص ٤٧ حاشيه ٥ .

(٢) انظر السيوطى فى الإتقان جزء ١ ص ٥٨ .

مذكرات تفسيرية صغيرة [١] ، أو « صيغ دعوات » خارج النص [٢] ، فى حين أن المجموع الرسمى صاف خال حتى من عناوين الأبواب أو السور ، ولكن مهما تعظم قيمة تلك الوثيقة ، ومهما يستحق الجهد الذى بذل فى سبيلها من ثناء ، فإنها بوصف كونها محافظاً عليها فى أمانة عند الخليفتين يكون لها صفة الشىء الخاص إلى حد صغير أو كبير ، وهى فى الواقع لم تكتسب صفة الصحة العامة إلا منذ تاريخ نشرها ، ومناسبة هذا النشر لم تعرض إلا فى خلافة عثمان بن عفان الخليفة الثالث بعد مواقع أرمينية وأذربيجان ، فإن جيوش سورية والعراق تجمعت لهذه المناسبة ، فلوحظ اختلاف فى التلاوة بين الفريقين ، فالسوريون يتلون بقراءة مواطنهم « أبىّ » والعراقيون بقراءة مواطنهم « ابن مسعود » قال أحد الفريقين للآخر : إن قراءتنا خير من قراءتكم ، ويجزع لهذا المشهد حذيفة بن اليمان ، ويذهب إلى الخليفة فازعا إليه أن يعجل بوضع حد لهذه المنافسة التى عساها أن تؤدى إلى فرقة كتلك التى حدثت بين اليهود وبين النصارى فى موضوع « الكتاب المقدس » ويكون عثمان حينئذ لجنة من أربعة كتاب : زيد نفسه من المدينة ، وثلاثة من مكة : عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن حارث بن هشام ، ويطلب إليهم أن ينسخوا من الأصل الذى عند حفصة نسخا [٣] بقدر ما يوجد من المدن الرئيسية فى العالم

---

(١) مثلا يوجد فى مجموع ابن مسعود بجوار عبارة والصلاة الوسطى هـذا الشرح : وهى صلاة العصر ، أفهذا التحديد صحيح فى ذاته ؟ لا نريد أن ندخل فى هـذه المناقشة التى احتدمت بين أصحاب الرسول أنفسهم ، ولكن حتى لو سلمنا مع البراء أن هذا التعريف كان موجوداً فى الأصل بدل المعرف ، ثم ألغى وحل محله فإنه لم يصحبه قط فى النص المتلو بدليل تلك المناقشة نفسها فى المعرف ، فابن الأنبارى يذكر أنه فى أثناء الإحصاء الأول طلبت حفصة أن تضاف تلك العبارة المفسرة إلى النص ، ولكن بالنظر إلى أنها لم تقدم أى دليل على الصحة عارض عمر فى ذلك معارضة حاسمة « انظر السيوطى فى الدر المنثور ج ١ ص ٣٠٢ » .

(٢) كذلك نجد فى نسخة أبى زيادة على السور الدعاءين المشهورين المسميين قنوتا .

(٣) هذا النسخة الشخصية لعثمان يتفق أصحاب الحديث على أن خمس نسخ وجهت إلى مدن مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق ، إلا أن أبا حاتم يذكر نسختين أخريين : إحداها لليمن ، والأخرى للبحرين .

الإسلامى ، ثم يحدد لهم : إذا اختلفتم فى إملاء كلمة [١] فاكتبوها بلهجة قريش التى نزل بها القرآن أول مانزل ، ويتم العمل تماماً على الأصل الذى يعاد لحفصة ، وتجمع تلك المصاحف متصلة الصحف وتوزع على الأمصار بوصفها أئمة أو مثلا ثابتة يعد كل ما عداها باطلا ما دام يخالفها فى شىء .

بعض الشيعة استطاع أن يستريب فى أن عثمان انتقص بعض نص الكتاب ، أو بعبارة أصح أهمل شيئاً ما يمكن أن يتعلق بعلى ، ولو كان ذلك صحيحاً فإن حملة القرآن وكانوا جد كثيرين حين ذلك النشر ماكانوا ليقصروا فى تصحيحه وفق ما يحفظون عن ظهر قلب ، ولكن ابن مسعود الذى كان عنده أكثر من سبب يحمله على عدم الرضا بالسياسة حينئذ لم يسعه إلا الاعتراف بدقة العمل ، بل لقد تنبأ أنه فى زمن لاحق سيتوافر القراء ، ويقل العلماء ، وأن حرف القرآن سيحترم ولكن تطبيق أوامره سيهمل [٢] ، وإذا أدخلنا فى حسابنا أن غيرة المسلمين الأولين على كتاب الله كانت أشد مما كانت لدى من جاء بعدهم ، فإنا نجد من المستحيل أن يكون روح التوفيق هو الذى جعلهم يقبلون صحف عثمان دون معارضة ، بل أن « نولدكه » يستنتج أنه يجب أن نرى فى ذلك أحسن دليل على أن النص جاء تاماً صادقاً على قدر ماكان يجب أن ينتظر .

مهما يكن الأمر فإن تلك النسخة هى المعمول بها منذ ثلاثة عشر قرنا فى العالم الإسلامى كله ، بما فيه الشيعة ، ولنستمع فى هذا إلى رأى الشيعة الإمامية « أهم طوائف الشيعة » كما ورد فى كتاب أبى جعفر القمى « عقيدتنا فيما يتعلق بكم القرآن الذى أوحى به الله جل جلاله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله أنه هو المحفوظ الآن بين الدفتين ليقرأه الناس لا أكثر ، وعدد السور فيما تعرف عامة المسلمين ١١٤ ، أما نحن فنرى أن السورتين ٩٣ و ٩٤ تكونان سورة واحدة ، وكذلك السورتان ١٠٥ و ١٠٦ ، والسورتان ٨ و ٩ ، والذى ينسب إلينا عقيدة أن القرآن أكثر من هذا إنما هو كاذب .

---

(١) وكذلك كلمة تابوت التى تكتب بلغة المدينة « تابوه » احتفظت بالشكل المكى .
(٢) مالك : كتاب جامع الصلاة .

ومن أجل هذا استطاع ليبلوا أن يؤكد : أن القرآن هو وحده الآن الكتاب المقدس الذى لا يوجد فيه خلافات تذكر [1] ، ولقد أعلن هذا قبل « موير » لقد وصلت مجموعة عثمان إلى أيدينا دون أن يعتورها أى نقص ، ولقد حفظت بأمانة لدرجه أنه لا اختلاف يذكر ، بل يمكن القول لا اختلاف إطلاقا فى نسخ القرآن التى لا تحصى ، والتى تتداول فى العالم الإسلامى المتسع .. فليس ثم إلا مصحف واحد لكل تلك الفرق المتناحرة ، وهذا الإجماع على قراءة نسخة موحدة الذى قبله الجميع حتى أيامنا هذه لدليل من الأدلة التى لا يمكن نقضها على صحة النص الذى نملكه الآن ، والذى يرجع إلى عهد الخليفة المنكوب « مات عثمان مقتولا ».

على أن هذه الأحكام مع عدم تحيزها التاريخى المسلم تتطلب تصحيحا مزدوجا ففيها إفراط وتفريط . فأما التفريط أو التقصير ففى أنها تنتهى من حيث المصدر إلى عهد عثمان ، فى حين أنه لم يزد على نشر النسخة التى جمعت على عهد أبى بكر. ولقد رأينا كذلك أن ذلك الجمع كان نسخاً كاملا للقرآن بترتيب التلاوة ، هذا الترتيب الذى لا يجوز أن يختلط بترتيب الوحى كما أملاه النبى نفسه .

---

(١) تولدكة جوشتست دى كوران : الجزء الثانى ص ٩٣ ، انظر ميرز الكسندر كاظم الجريدة الأسيوية سنة ١٨٤٣ ، الخلاف الوحيد إذن فى طريقة تقسيم القرآن إلى سور وعددها بل إن هذا الخلاف نفسه ليس إلا نظريا بين العلماء ، ولا أثر له عملا فى نسخ المصحف التى لا تختلف عن نسخ السنيين ، وإذا وجد بعض الموالى المتعصبين الذين يذكرون كلمات أهملها عثمان فإنهم لا يستبيحون إدخالها فى مصاحفهم ، فالإمام الشرعى لم يجزها ، وكذلك الأمر ، ومن باب أولى بالنسبة إلى القطعة التى لا يدرى من تاريخها « سورة النورين » التى نشرها «جارسان ويتاس» بعنوان : باب غير معروف من القرآن ، والتى أثار ميرز الكسندر قضيتها فبين ذلك العالم لا أن هذه السورة المزعومة لا توجد فى مصاحف الشيعة فحسب ، بل إنه لا ذكر لها فى مؤلفات المناقشات السلفية ، والتعبير نفسه « النوران » مطبقا على محمد ، وعلى لم يظهر عند الشيعة إلا فى القرن السابع الهجرى بعد الطوسى ، ويكفى قراءة القطعة التى لا تعدو أن تكون شرحا عاديا لكلمات وعبارات مختلسة من القرآن لتتبين التضاد الذى يصدم بينها وبين تناسق الأسلوب القرآنى ورشاقته . انظر أيضاً تولدكة : ج ٢ ص ١٠٧ ـ ١١٢ -

ولكن ْ مإفراطاً أيضاً ، إذ يؤكد أن تلك النسخ على الرغم من إيجادها من حيث الشكل الإملائى - لا تحتمل أى اختلاف فى النطق ، وإن كل من له أدنى إلمام بالكتابة العربية ليعرف ذلك ، فمن ناحية إذا كانت الحروف المتحركة الطويلة تظهر فى رسم الكلمات العربية ، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الحروف المتحركة المتوسطة ولا القصيرة ، ومن ناحية أخرى نجد كثيراً من مجموعات الحروف لا تتشابه فحسب بل تتحد ، فلا تتميز إلا بنقط تسمى نقط الإعجام ، فالياء مثلا يمكن أن يقرأ نونا أو تاء أو باء أو ياء حسب نطقها واحدة أو اثنين فوق أو تحت ، وما كانت النقط مستعملة لا فى عهد الرسول ولا فى عهد الخلفاء الأربعة بعده . . وإذا كان الذوق السليم يكفى أحياناً لإحساس النطق الصحيح ، فهو فى الغالب يقتضى توجيهاً شفويا .

والسنة تدلنا على أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يقتصر دائما على نطق واحد ، ولكن فى الكلمة الواحدة ، أى بعبارة أخرى فى المقطع الأساسى لم يكن نادراً أن يختار نطقين كلاهما حسن ومبين ، فكذلك كلمة « ملك » يمكن أن تقرأ مالك ، أى صاحب مُلك و مِلك ، أى صاحب رعية ، وأيضاً « فتثبتوا » يمكن أن تقرأ تبينوا من « التبيين » أو فتثبتوا من « التثبيت » وكلتاهما قراءة مأثورة ، وما دام السامعون لم يكونوا دائماً فئة واحدة بالضرورة ، فلقد ترتب على ذلك أن نشأ عند الصحابة منذ الزمن الأول طرق مختلفة للتلاوة ، وصاحب كل طريقة يجهل الآخر فى الغالب ، والبخارى يذكر أن عمر غضب يوماً غضباً شديداً على هشام بن هاشم ابن حزام ، إذ سمعه يتلو السورة ٢٥ تلاوة تختلف عن التى يرويها هو عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وبصعوبة استطاع أن يكتم غيظه حتى يتم الرجل صلاته ، وما أن أتمها حتى لببه وسأله : من أين له تلك التلاوة فأجاب : من فم النبى - أنت تكذب لأن النبى علمنيها بطريقة أخرى ، وقاده إلى الرسول الذى طلب إلى هشام أن يقرأ وبعد الموافقة على قراءته قائلا أن السورة هكذا نزلت ، فعل الشىء نفسه مع عمر مضيفاً أن القرآن نزل فى الحقيقة على سبعة أحرف ، فليتله كل بالطريقة التى تتيسر له ، والطبرى يحدثنا أن أبى بن كعب صدمه أيضاً اختلاف فى تلاوة السورة ١٦ ، وأنه احتكم إلى النبى فأجاز القراءتين ، أفيكون عثمان إذن أكثر تشدداً من سيده

ويمنع تلاوة أجازها ؟ كلا فيما يبدو لنا ، ولم يكن من هم عثمان كما ظن فى الغالب صور النطق المختلفة ، فنسخته كغيرها من النسخ السابقة لا تتألف من هيا كل الألفاظ الصالحة لكل القراءات فحسب ، بل كان من همه الدائب الإبقاء على تلك التلاوات السلفية المختلفة ما دام رسم اللفظ يحتمل أكثر من تلاوة ، وكذلك نرى كلمة مسيطر مكتوبة بسين فوقها ص أو بصاد فوقها سين ، وكذلك نجد فى إحدى تلك النسخ الأئمة « سارعوا » وفى أخرى « وسارعوا » وأيضا « بما تشتهى » أو « بما تشتهيه » « سيقولون الله » أو « سيقولون لله » فى رأينا أن نشر عثمان النص القرآنى إنما كان يرمى إلى غرض مزدوج :

(١) فهو - إذ يصحح ويحمى التلاوات المختلفة التى كانت باقية فى إطار النص المكتوب ، والتى كانت ذات نسبة نبوية تعترف بها الأمه - يمنع المناقشات غير التقية لمناسبتها ، كأن يقال مثلا : أن هذه التلاوة خير من تلك ، فهو يبين أن مثل هذا القول تقريبا عدم إيمان .

(٢) وهو - إذ ينفى كل ما لا يتفق اتفاقا تاما مع الأصل - إنما ينفى أن تتفرق كلمة المسلمين تفرقا خطرا ، كما يتقى احتمال أن يشاب النص مع طول الزمن بما يدخله من تلاوة قل فيها النزاع أو كثر ، أو شروح يدخلها الأفراد بحسن نية فى نسخهم .

كذلك لا يجوز الاعتقاد أن النسخة العثمانية - والنسخ التى أخذت منها - تتضمن كل التلاوات التى أجازها الرسول على الراجح بوصف كونها من الأحرف السبعة - أو طرائق التلاوة السبع - لأنه إذا كانت قد حفظت التلاوات التى اتفقت عليها الشهادات أنها أضيفت إلى النص فى صورته النهائية ، فهى على العكس قد أقصت كل صورة نقلت عن الطريق الشخصى ولم تتوافر لها تلك الضمانة ، هذا الأصل الأساسى اتفق عليه منذ البداية رأى آلاف الصحابة الحاضرين[١] ، ولنضف أن إقصاء ما أقصى من التلاوات لم يكن القصد منه ، ولم تكن نتيجته إلغاء تلك

---

(١) السيوطى : الإتقان ج ١ ص ٥٧ .

التلاوات عملا ، بل إن وضع الأمور فى نصابها يقتضى أن نقول إن القاعدة تركت الذين يؤكدون أنهم سمعوا النبي يتلو النص بطريقة ما أحراراً فى تلاوتهم الماضية ، وتحت مسئوليتهم الأدبية دون أن يكون لذلك حجية عند سائر الأمة ، هذا الوضع المعقول المشروع يؤكده لنا أولا إجابة عثمان نفسه ، إذ تحدث إلى الثائرين السياسيين « أما عن القرآن فإنى لم أمنعكم إلا خشية تفرق الكلمة ، ولكنكم تستطيعون أن تتلوا بالحرف الذى تريدون [1] » ، ثم فتوى الإمام مالك حيث أجاز تلاوة « فامضوا » حسب تلاوة عمر بدل « فاسعوا » آية ٩ سورة ٦٢ .

إلا فى الصلاة المكتوبة كما يحدد ابن عبد البر ، لأن التلاوات غير العثمانية ليست قرآناً محققا بما فيه الكفاية لأداء هذا الواجب [2] ، ففيما عدا التلاوة الرسمية والإلحاق بالمجموع الرسمى كذلك ، تظل التلاوة من الوجهة العملية حرة تمام الحرية ، ولقد كان التفسير الإسلامى فى كل زمان ما ينفك يعنى بتلك التلاوات الماضية ، ولكن الدكتور « أوتير جيفرى » كتاب المصاحف لم يكن صائب النظرة فى تلك المسألة المزدوجة .

---

(١) ابن أبي داود : كتاب المصاحف ص ٣٦ .

(٢) الزنجانى : ص ١٦ .

منهج الإسلام
فى إصلاح عقائد الألوهية والربوبية

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يس سويلم طه
من كبار علماء الأزهر

— ١ —

كانت الأمم قبل ظهور دعوة الإسلام قد ضلت فى عقائدها ضلالا بعيداً ، ولم يكن هذا الضلال قاصراً على الأمم التى استحوذت عليها الوثنية بأوهامها وخرافاتها ، بل طغى أيضاً على الأمم التى كانت على صلة برسالات الله تعالى وشرائعه ، فقد امتدت أيدى قادتها الدينيين إلى كتب أنبيائهم ورسلهم ، فحرفوا فيها وبدلوا بجهلهم وسوء طوياتهم ، وافتروا على الله الكذب فى صفاته وأفعاله وشرائعه ، وشوهوا بذلك توحيد أنبيائهم وشرائع رسلهم ، وبقى هذا الضلال شائعاً فى عقائدهم وتدينهم ، حتى جاء الإسلام فى جلال الحق وجمال الصدق ، فحرر العقول من أباطيل الوثنية وخرافاتها ، وأصلح ما ضل من العقائد وما فسد من الأعمال ، وكشف عن جنايات المحرفين والمبدلين ، وأعاد توحيد الأنبياء إلى أصوله الخالصة من شوائب التضليل والتلبيس ، وأرشد الضالين والمنحرفين إلى ينابيعه العذبة الصافية ، ورد العقول الضالة إلى رشدها ، وأرجع النفوس الشاردة إلى ربها ، ولم يدع فى ذلك حجة لمحتج ، ولا معذرة لمعتذر .

وكان إصلاح عقائد الألوهية والربوبية أول ما عنى به الإسلام فى تصحيح هذه الأوضاع الفاسدة ، لأن إصلاحها هو أساس الدين فى كل تشريع سماوى ، والمقصود الأول من مقاصد الإصلاح الدينى .

وقد عنى القرآن الكريم بتقرير عقائد الألوهية والربوبية عناية كبرى ، وجلاها للعقول فى أساليب جمعت بين التأثير القلبى والإقناع العقلى ، وذلك بما أودع الله فيها من الروعة البلاغية ، والقوة الروحية القدسية ، وما اشتملت عليه

من قضايا العقل والعلم ، وودائع الفطرة والوجدان ، والإبداع فى تجلية الحقائق وتصوير المعانى ، والإحكام فى تصريف فنون القول وضروب البيان ، ووجوه الحجاج والإقناع والإلزام .

كما يتجلى ذلك فيما نذكره من أنواع الأساليب الآتية :

« النوع الأول » الأساليب التى توجه العقول إلى مسارح النظر فى عوالم السموات والأرض ، وما فيها من الآيات الكونية والدلائل العلمية على وجود الله الذى خلقها بعد أن لم تكن ، إذ كان سبحانه فى الأزل موجودا ولا موجود معه ، فأحدث العوالم الكونية إظهاراً لقدرته وحكمته ، وتعريفاً بوجوده وجلاله وعظمته وإعلاماً بسلطانه وقهره وهيمنته ، كما فى قوله تعالى فى سورة ق : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وفى سورة آل عمران : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » وفى سورة الذاريات : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

بهذه الآيات القرآنية وغيرها من مئات الآيات ، خاطب القرآن العقول والأفهام ، وأيقظ الحواس والمشاعر ، وعرض عليها بدائع المخلوقات ، وعجائب الكائنات ، وروائع النظم الكونية ، وجلائل السنن الإلهية ، لتتخذ منها كتاب نظر وعلم وهداية ، تقرأ فى صحائفه دلائل وجود الله جل جلاله ، وتطالع فى سطوره سننه تعالى فى الخلق والتدبير ، وتشاهد فى كلماته جماله الذى ظهر فى بدائع الموجودات ، وترى فى أحرفه جلاله الذى تجلى فى روعة الكائنات .

فالعوالم الكونية هى مسارح العقول والأفهام ، ورياض الأحاسيس والمشاعر ، وتبصرة القلوب النقية والبصائر النيرة ، والنظر فيها هو أقرب طريق إلى معرفة جلال خالقها وعظمة مبدعها .

فإذا نظر الإنسان إلى نفسه وهى أقرب مجال إلى فكره ، وفكر فيما أجراه الله عليه وهو فى بطن أمه من أطوار الخلق والتكوين ، وكيف جعله الله نطفة

فى قرار مكين ، ثم جعل النطفة علقة ، ثم جعل العلقة مضغة ، ثم جعل المضغة عظاماً وعصباً ولحماً ، ثم أنشأه بشراً سويا كامل البنية والحواس ، معتدل الخلقة بديع التركيب والصورة ، وجعله إنساناً ناطقاً مفكراً ، يزداد على الأيام قوة ونماء ، وعلى السن عقلا وتفكيراً ، وفيما أجراه عليه فى نشأته وحياته من أطوار الطفولة والشبيبة ، والكهولة والشيخوخة ، ثم هو فى جميع هذه الأطوار مشمول بالعناية الإلهية ، والرعاية الربانية .

أو نظر إلى الأرض كيف جعلها الله فراشاً ومهادا ، وفجر فيها العيون وأجرى الأنهار ، وأنبت فيها الزروع والنخيل والأشجار ، وكيف جعلها مختلفة فى أحجامها وأشكالها وألوانها ، وفى عناصرها وثمارها وطعومها ، مع أن الكل ينبت فى بقاع متلاصقة ، ويسقى بماء واحد ، وينمو فى جو واحد ، كما قال تعالى فى سورة الرعد : « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » وكيف جعل فيها جبالا ثوابت من فوقها ، لتحفظ توازن الأرض وتمنعها من الميدان والاضطراب ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وأرزاقها ، ووضع لعوالمها ميزانية مقدره بتقدير معلوم ، كما قال تعالى فى سورة فصلت : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ... » وفى سورة هود : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » وفى سورة الحجر : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

أو نظر إلى السماء كيف أحكم الله بناءها ، ورفعها بغير عمد نراها ، وإلى الشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، وإلى الكواكب فى تألقها وإشراقها ، وهى تسبح فى أفلاكها ومداراتها « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ، ٣٦ : ٤٠ » وتسبح

بحمد خالقها ومبدعها ، كما قال جل جلاله فى سورة الإسراء : « تسبح له السموات والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً » .

أو تدبر قول الله عز وجل فى سورة الواقعة : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » وفى سورة الحاقة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وأدرك ما فى هـذا القسم الإلهى من توجيه للنظر ، وإيقاظ للفكر ، وإثارة للعبر ، وتنويه بشأن هذه المواقع التى أقسم الله بها ، وما فيها من الدلائل على عظمة المبدع وجلال الخالق ، وأخذ يفكر فى عظم هذه المواقع التى أعظم الله شأن القسم بها ، ويسائل نفسه عن مدى هـذه العوالم التى لا نبصرها ولا نعلمها ، وعرف أن منها ما يحيط بنا ويشاركنا فى وجودنا وحياتنا ، ولكنها لا تزال محجوبة عن العلم على رغم اتساعه وتقدمه ، ومنها ما يغيب عنا وراء حجب الغيب وأبعاد الفضاء ، فلا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بعظمتها العقول والأفهام ، إذ لا يحيط بالعوالم الكونية إلا الذى خلقها وأبدعها .

إذا هُدى الإنسان إلى كل هذه الأنظار أو إلى بعضها ، فإنه يجد نفسه منساقة بدافع قوى من عقله وفكره ، وجاذب شديد من ضميره ووجدانه ، إلى الإيمان بوجود الصانع المقتدر الذى خلق هـذه العوالم الكونية بقدرته ومشيئته ، العليم الخبير الذى أحكم تقديرها وتنظيمها بعلمه وإرادته ، المدبر الحكيم الذى يدبر أمورها ويصرف شئونها بحكمته ورعايته ، لأنه إذا كانت مصنوعاتنا لا يمكن بالبداهة أن تخرج إلى عالم الوجود متماسكة الأجزاء والحلقات ، بديعة الإتقان والإحكام ، جامعة لعناصر الوجود ووسائل البقاء ، مستكملة لجوانب الوفاء بالمقاصد التى صنعت لأجلها ، إلا إذا كانت صادرة عن صانع ماهر صنعها وأحسن صنعها ، ومنظم خبير نظمها وأحكم تنظيمها ، فإنه لا يمكن بالبداهة أن يوجد هذا الكون العظيم على هذا النظام البديع المحكم ، وأن يبقى سائراً فى وجوده على هذا النظام والإحكام ، إلا إذا كان صادراً عن صانع قدير صنعه بقدرته ومشيئته ، وأحكم تقديره وتنظيمه بعلمه وإرادته ، ومدبر حكيم يدبر أموره ويصرف شئونه بحكمته ورعايته .

وإذا كانت سفينة المحيط المحدود فى أبعاده ونهاياته ، لا يمكن أن تسير فيه سيراً منتظما بغير ربان ماهر يسيرها ، ويرعى سيرها ويوجهها إلى الغاية التى رسمت لسيرها فإنه لا يمكن بالبداهة أن تسير سفينة الكون كله فى هذا المحيط الذى لا تعرف له حدود ولا نهايات ، بغير رب قادر يسيرها ويدبر أمورها ويصرف شئونها ، ويرعاها فى سيرها بالعين الساهرة حتى تبلغ بعوالمها الغاية التى خلقت لأجلها .

فطريق الوصول إلى معرفة الله والإيمان به واضح المعالم قريب المنال ، متى صلحت القلوب واستنارت البصائر ، وتحررت النفوس من ظلمة الجهل وطغيان الهوى ، واستقامت العقول فى نظرها وتفكيرها واتجهت بمقاصدها إلى طلب الحق والكمال وصحة الاعتقاد ، وخضعت فى أحكامها لدلالة الحجة والبرهان ، واستجابت فى تفكيرها لوحى الفطرة والوجدان ، فإن وجود الله تعالى ماثل أمام العقول فى جميع الكائنات ، والإحساس بألوهيته وربوبيته كامن فى أعماق النفوس ، والشعور بعظمته وجلاله منبث فى حنايا الضلوع ، ولكن أكثر الناس ضلوا عن هذه الحقائق وهى على كثب منهم .

فريق حجبه إلف العادة أو ظلمة الجهل والتقليد الأعمى عن الاستماع لوحى الفطرة والوجدان ، والنظر فى آيات الله الكونية التى تحيط بهم وهم عنها غافلون ، وتطالعهم بدلائلها فى كل لحظة وهم عنها معرضون ، كما قال تعالى فى سورة يونس : « وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » وفى سورة يوسف : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وفريق حجبه عن هذه الحقائق مرض القلوب ، واعتلال البصائر ، وانحراف العقول فى نظرها وتفكيرها ، والخضوع لسيطرة الأهواء وطغيانها ، والإقبال على شئون الدنيا ، والإعراض عن شئون الآخرة ، ففرحوا بالحياة الدنيا ، وكفروا بآيات ربهم ولقائه ، وضل سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً كما يشير إلى ذلك قول الله تعالى فى سورة الرعد : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » وفى سورة الكهف قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم

فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ، ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً » .

فأولئك وقفوا من آيات الله موقف الغفلة والجهل والإعراض ، وهؤلاء وقفوا منها موقف الغرور والجحود والكفران ، وفى ذلك يقول بعضهم :

يقـولون أين الله أين عجائبـه ... وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشـكون والإيمان ملء قلوبهم ... و يُبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرىء فى الجو يرسل طرفه ... إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول : الله فى عرش مجده ... وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرىء ما سبح الله مرة ... إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام عظيمة ... ولكن جهل المرء لا شك غالبه

فإن قال قائل : إذا كان النظر فى ملكوت السمات والأرض يهدى إلى معرفة خالق الكون ومبدعه ، والإيمان القلبى بألوهيته وربوبيته ، فما بال كثير ممن عنوا بدراسة العوالم الكونية ، ووقفوا على كثير من أسرارها وخواصها ، ينكرون العوالم الغيبية والأديان السماوية ، ولا يؤمنون إلا بالقوى المادية والنواميس الطبيعية ، بل كلما توسعوا فى الدراسات الكونية استحوذ عليهم الغرور العلمى ، وتوغلوا فى مجاهل الإلحاد وإنكار وجود الله جل جلاله ، وزاد افتتانهم بالحياة الدنيا ووقفوا عند حدودها ، وفرحوا بما عندهم من علوم الدنيا وأقبلوا عليها ، استخفوا بعلوم الآخرة وأعرضوا عنها .

قلنا : سر ذلك أن النظر فى عوالم الكون تختلف آثاره باختلاف دوافعه وبواعثه ، فإن كان قائماً على بواعث وحى الفطرة والوجدان ، وشوق النفوس وحنينها إلى معرفة خالق الكون ومبدعه ، والاستجابة لدعوة الدين ، ومطالبته بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، فإن هذا النظر القائم على بواعث الدين الفطرى والدين التعليمى ، يسمو بأصحابه إلى الملأ الاعلى ، ويرقى بعقولهم وأفهامهم

إلى أفق الإيمان والتوحيد ، لأنهم يجدون فيه تجاوباً مع أحاسيسهم ومشاعرهم ، وتفسيراً لما هو كامن فى فطارهم وضمائرهم ، ونوراً لعقولهم ، وحياة لقلوبهم ، وإن كان قائماً على بواعث حب الاستطلاع والكشف عن أسرار الكائنات وخواصها ، لتسخيرها فى جلب المنافع المادية وتحقيق المطالب الدنيوية البحتة ، والاستعانة بها على الطغيان والسيطرة على الشعوب والأمم ، واستغلال مواردها وامتصاص دمائها ، فإن هذا النظر القائم على البواعث المادية البحتة ، يقف بأصحابه عند حدود هذه المقاصد والأغراض ، ولا يَرقى بعقولهم وأفهامهم إلى أفق الإيمان والتوحيد ، لأن ذلك خارج عن محيط نظرهم وتفكيرهم ، وبعيد عن مجالات أغراضهم ومقاصدهم ، كما تشير إلى ذلك قول الله تعالى فى سورة غافر : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » وفى سورة الروم : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » وفى سورة النجم : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » .

النوع الثانى ، الأساليب التى تقيم البراهين العقلية على وحدانية الله عز وجل ، وأنه تعالى لا إله غيره ولا رب سواه ، كقوله تعالى فى سورة المؤمنون : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » وفى سورة الإسراء : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » وفى سورة الأنبياء : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

فإن من القضايا التى تضافر عليها العقل والعلم والمشاهدة ، أن عوالم السموات والأرض مرتبط بعضها ببعض من جهة صلاحها وبقائها ، وانتظام سيرها وتدبير أمورها ، وقائمة على نظام كونى عام ينظم هذه الروابط التى لا صلاح ولا بقاء لها بدونها وأن الخلق والإيجاد ، والقهر والغلبة ، ونفوذ السلطان والإرادة ، هى من خص شئون الألوهية وصفات الربوبية ، فلا يجوز فى حكم العقل أن يكون الإله

عاجزاً مغلوباً على أمره ، أو مقهوراً لسلطان غيره وخاضعاً لإرادته ، لمنافاة ذلك لصفات الألوهية والربوبية ، فلو كان مع الله آلهة كما يزعم القائلون بتعدد الآلهة ، لوقع التنازع والتصادم بينهم فى الأفعال والإرادات ، والنفوذ والسلطان ، ولذهب كل إله بما خلق ، واستقل بتدبير أموره وتصريف شئونه ، ومنع غيره من الاستيلاء عليه أو التصرف فى شئونه ، ولعلا بعضهم على بعض بالقهر والغلبة وتنازع النفوس والسلطان ، ولطلبوا سبيلا للوصول إلى صاحب العرش وهو الله جل جلاله ، الذى أخبر على ألسنة رسله بأنه هو مالك الملك وحده ، ليقاتلوه وينازعوه الملك والسلطان والنفوذ .

ولو حصل شىء من ذلك لفسدت عوالم السموات والأرض ، واضطرب نظام سيرها وتدبير شئونها ، وانقطع ما بينها من روابط صلاحها وانتظام أمورها ، واختل النظام الكونى الذى ينظم هذه الروابط التى لا صلاح للعوالم الكونية ولا بقاء لها بدونها ، لكن فساد السموات والأرض وما فيهما من العوالم معلوم الانتفاء بالمشاهدة ، فإن العوالم الكونية قائمة على أكمل ما يكون الإبداع والإحكام ، وسائرة على نظام كونى واحد يسيرها ويصرف شئونها ، وينظم قوانين التعاون بين العوالم السماوية والعوالم الأرضية .

وانتفاء فساد العوالم الكونية اللازم لتعدد الآلهة ، يستلزم بالبداهة انتفاء ملزومه ، وهو وجود آلهة مع الله تعالى كما يزعمون ، لأن انتفاء اللازم يستلزم انتفاء الملزوم قطعاً ، فثبت بهذا ثبوتاً قطعياً ، أن الله تعالى إله واحد لا شريك له فى الألوهية ولا مثيل له فى الربوبية ، وأن كل شىء فى الوجود خاضع لسلطانه وقهره ، وسائر بتدبيره وتصريفه ، وملحوظ بعنايته ورعايته ، وقائم على مشيئته وإرادته ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

« النوع الثالث » الأساليب التى تحيل المخاطبين على ما هو مركوز فى فطرهم وسرائرهم ، لتقيم الحجة عليهم بما يعترفون به فى قرارة نفوسهم ، وما يعلمونه حق العلم بوحى فطرهم وأحاسيسهم ، كقوله تعالى فى سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله ، فأنى يؤفكون »

وفى سورة يونس : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ، فذالكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون » .

فانظر إلى روعة هذا الحجاج القرآنى وقوته ، يسألهم الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، عمن خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ومن يرزقهم من السماء والأرض ، ومن يملك الأسماع والأبصار خلقاً وحفظاً ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر أمر الكائنات كلها ، يخبر تعالى - وهو العليم بما فى سرائرهم - بأنهم سيجيبون بما هو معلوم لهم ومركوز فى فطرهم ، ويعترفون بإسناد ذلك كله إلى الله وحده ، ثم يقيم الحجة عليهم بمقتضى اعترافهم وتسليمهم ، ويُحْكِمُ عليهم حلقات الافحام والإلزام ، ويبكتهم على انصرافهم عن الإيمان والتوحيد مع قيام البرهان ، وتماديهم فى الشرك والضلال مع اعترافهم بالحق وقيام الحجة عليهم ، يقول عز وجل : « فذالكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون » ولا يخفى ما فى هذا الحجاج القائم على ودائع الفطرة والوجدان ، من الإبداع فى تصريف وجوه الإقناع والإلزام ، وقوة التأثير فى القلوب ، والاتصال بأعماق النفوس .

« النوع الرابع » الأساليب التى تطالب الناس بتحكيم عقولهم ومراجعة ضمائرهم فيما عرضته عليهم من شئون الخلق والإيجاد والتدبير ، كقوله تعالى فى سورة النمل : « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون[1] ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات

(١) أى يساوون بالله تعالى غيره — من العدل بمعنى المساواة — أو يعدلون عن الحق الواضح وهو التوحيد ، إلى الباطل البين وهو الشرك — من العدل بمعنى الميل والانحراف .

البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله ، تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وفى سورة الفرقان : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تناجى القلوب والأرواح ، وتنبه الحواس والمشاعر ، وتطالب المخاطبين بتحكيم عقولهم ومراجعة ضمائرهم ، فيما عرضته عليهم من شئون الألوهية والربوبية ، وما يدركونه بأبصارهم وبصائرهم من ثبوتها لله وحده وانتفائها عمن اتخذوهم من دون الله آلهة ، وجعلوهم أنداداً لله رب العالمين ، وما فى ذلك من الدلائل الواضحة على تفرده تعالى بالألوهية والربوبية ، لتقيم الحجة عليهم بما هو كامن فى عقولهم وضمائرهم ، وما يرونه بأبصارهم ويدركونه ببصائرهم وأفهامهم .

فأى حجاج أبلغ فى البيان والتأثير ، وأقوى فى الإقناع والالزام ، من هذا الحجاج القائم على تحكيم العقول ومراجعة الضمائر ، وشواهد الواقع ومدارك الأبصار .

فحكموا عقولكم ، وراجعوا ضمائركم يا أولى الألباب لعلكم تتقون .

« النوع الخامس » الأساليب التى تقرر عقائد التقديس والتنزيه عن صفات الحوادث ، كما فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » وفى سورة مريم : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إداً [١] ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » وقوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » فالله جل جلاله أحد ، أى واحد فى الألوهية والربوبية ، واحد فى ذاته العلية ، منزه عن التركيب والتجسيم والتحيز ، فليس مركباً من جواهر مادية أو أصول غير مادية ،

---

(١) أى أمر منكراً وجرما عظيما .

وليس متحيزاً فى مكان أو جهة ، وهو سبحانه الصمد ، أى السيد الذى ليس فوقه سيد ، والذى يصمد إليه ويقصد فى الحوائج والمطالب . فهو الغنى المطلق الذى لا يحتاج إلى شىء ويحتاج إليه كل شىء ، والمقصود الذى يقصده كل كائن لإمداده بما يحتاج إليه فى وجوده وبقائه ، سواء كان قصداً إراديا أو طبيعيا أو استعداديا ، فكل شىء متجه بإرادته أو بطبيعته أو باستعداده إلى الله تعالى ، فى طلب حوائجه وكمالاته منه جل جلاله « لم يلد ولم يولد » أى لم يلد أحداً ، لأن الوالدية تستلزم التركيب والمجانسة ، لأن الولد جزء من أبيه ومجانس له فى ذاته وصفاته ، والله تعالى منزه عن التركيب والمجانسة والمماثلة ، ولم يلده أحد ، لأن المولودية تستلزم التركيب والمجانسة ، والحدوث وسبق العدم ، والله تعالى منزه عن ذلك كله ، فهو واجب الوجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه « ولم يكن له كفواً أحد » أى ليس أحد مكافئاً ومماثلا له فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وقوله تعالى فى سورة الحديد : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » أى السابق على جميع الموجودات بلا بداية ، والباقى بعد فنائها بلا نهاية ، والظاهر وجوده فى بدائع الكائنات ، والمحتجب بذاته تعالى عن إدراك الحواس والعقول ، وهو بكل شىء عليم .

فالله جل جلاله منزه عن الوالدية والمولودية ، والتركيب والتجسيم ، والتحيز والاحتياج ، وسابقية العدم ولاحقية الفناء ، وسائر صفات الحوادث ، وكل ما لا يليق بذاته العلية ، قائم بنفسه فى الأزل [1] وفى الأبد ، أى منزه عن الأحياز والأزمان ، فلا يحده مقدار ، ولا تحويه أقطار ، ولا تحيط به جهات ، ولا تكتنفه الأرض والسموات ، ولا تجرى عليه الأزمان والأوقات ، أزلى ، أى لا أول لوجوده ولا بداية ، أبدى ، أى لا آخر لبقائه ولا نهاية ، فوجوده عز وجل لا يسبقه عدم ، وبقاؤه تعالى لا يلحقه فناء .

---

(١) الأزل : هو استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب الماضى ، والأبد : هو استمرار الوجود فى أزمنة مقدرة غير متناهية فى جانب المستقبل .

ولم تقف عناية الإسلام بعقائد التنزيه والتقديس عند تقريرها وتفصيل أصولها، بل حاطها بسياج من الاحتياط وسلامة الاعتقاد، والتحفظ والاعتدال فى النظر والتفكير، وسد على الوهم والخيال منافذ التشبيه ومسالك الزلل، كما فى قوله تعالى فى سورة الأنعام: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» وفى سورة طه: «يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً» وفى سورة الشورى: «ليس كمثله شىء وهو السميع البصير» إلى غير ذلك من الآيات التى تقرر أن الله جل جلاله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الحواس، وتعالت ذاته العلية عن الإحاطة والإدراك، وتنزهت صفاته القدسية عن المشابهة والمماثلة، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم» فأقصى ما تدركه العقول والأبصار من شئون ذاته العلية، إنما هو أسماؤه الحسنى وصفاته العليا، ومظاهرها وآثارها التى تجلت فى بدائع الكائنات وعجائب المخلوقات، كما يشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «تفكروا فى مخلوقات الله ولا تتفكروا فى ذاته» وفى ذلك يقول بعضهم:

تبصر حيث كان لك التبصر وفى ذات الإله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل فى نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات أصول من لُجَيْنٍ زاهرات
على أغصانها ذهب سَبِيك

رياض مونقات منعشات وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرك ناضرات على قُضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

«يتبع»

الدعوة إلى العامية وأسرارها

لصاحب الفضيلة الشيخ على محمد حسن العمارى

— ١ —

لعل أول من أشار إلى ضرورة التعبير بالعامية ـ فى بعض الأحايين ـ أديب العربية الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فقد رأى أن « النكتة » البلدية لا تؤدى الغاية منها فى إطراف السامعين ، وإضحاكهم إلا إذا حُكيت ملحونة ، أما إذا قيلت بالعربية الصحيحة الفصيحة فإنها تفقد رونقها ومغزاها ، وفى ذلك يقول : « ومتى سمعت ـ حفظك الله ـ بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخارج كلام المولدين ، والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، أن تتخذ لها لفظاً حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذى أريدت له ، ويُذهب استطابتهم إياها ، واستملاحهم لها [١] » .

ويقول فى نفس الموضع : واللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر ، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد .

ويذكر ـ فى هذا الموضع أيضاً ـ شعر مالك بن أسماء فى استملاح اللحن من بعض نسائه :

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤٦ . ط . الخانجى سنة ١٩٦١ م .

وحـــديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحــيــاناً ، وخير الحديث ماكان لحنا

هكذا فهم الجاحظ اللحن فى هـذين البيتين بمعنى الخطأ فى المنطق ، وقد روى ياقوت الحموى فى معجم الأدباء أن الجاحظ رجع عن هذا الفهم ، قال : حدّث يحي ابن المنجم قال : قلت للجاحظ : مثلك فى علمك ومقدارك فى الأدب يقول فى كتاب البيان والتبيين : ويكره للجارية أن تشبه بالرجال فى فصاحتها ، ألا ترى إلى قول مالك بن أسماء « وذكر البيتين » فتراه من لحن الإعراب . وإنما وصفها بالظرف والفتنة ، وإنما تلحن أى تورى فى لفظها عن أشياء ، وتتنكب ما قصدت له ؟ فقال : فطنت لذلك ، قلت : فغيره ، قال : فكيف لى بما سارت به الركبان ؟ فهو فى كتابه على خطئه [1] .

وذكر أبو على القالى فى كتابه « الأمالى » هذا المعنى الأخير للحن ، ونسبه إلى أبى بكر بن دريد ، ونسب معنى إلى ابن الأعرابى ، وهو أن اللحن فى هـذا النص معناه الإصابة ، فيكون المعنى : منطق صائب ، وتصيب أحيانا ! .

غير أن ياقوت نقل انتصار أبى حيان للتفسير الذى ذهب إليه الجاحظ أولا ، ثم رجع عنـه ، وذلك حيث يقول أبو حيان : وعندى أن المسألة محتملة للكلام ، لأن مقابل المنطق الصائب المنطق الملحون ، واللحن من الغوانى والفتيات غير منكر ، ولا مكروه ، بل يستحب ذلك ، لأنه بالتأنيث أشبه ، وللشهوة أدعى ، ومع الغزل أجرى ، والإعراب جد ، وليس الجد من التغزل ، والتعشق ، والتشاجى فى شىء .

وهذا ـ عندى ـ كلام حسن ، وهو أشبه بهذا الشاعر الغزِل مالك بن أسماء ، مع مناسبته للمقابلة « منطق صائب » .

ولا أدرى ـ إذا كانت الحكاية صحيحة ـ ما الذى حمل الجاحظ على التنكر لهذا التفسير ، والإقرار على نفسه بالخطأ فى فهم الخطأ من اللحن ؟ .

* * *

ثم نطوى القرون لنقف عند ابن خلدون فى مقدمته فنجده يتحدث عن الإعراب ،

(١) جـ ١٦ صـ ٩٠ . ط . المأمون .

وعن مدى حاجة البلاغة إليه ، فيذهب يدافع بحماس شديد عن لغة أهل عهده ، وينعى على النحاة أنهم يحكمون بأن هذه اللغة لا بلاغة فيها ، ويصف لغة جيله بأنها لا تنقص شيئاً عن لغة مضر إلا الإعراب ، وفقدان الإعراب لا يؤثر فى الإبانة ، ولا يحرم من بلاغة ، وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ، ومذهبهم لهذا العهد ، ولا تلتفتن فى ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربى فسد اعتباراً بما وقع فى أواخر الكلم من فساد الإعراب الذى يتدارسون قوانينه ، وهى مقالة دسها التشيع فى طباعهم ، وألقاها القصور فى أفئدتهم [1] .

ويذهب يصرف القول ، ويعترض ، ويستدل ، ونلخص مناقشاته فيما يلى :

١ - كل مقومات اللغة المضرية موجودة فى لغة « الجيل » ما عدا الإعراب ؛ فالكثير من ألفاظ العرب لم تزل فى موضوعاتها ، والتعبير عن المقاصد ، والتفاوت فيه بتفاوت الإبانة موجود فى كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجود فى مخاطباتهم ، وفهم الخطيب المصقع فى محافلهم ومجامعهم ، والشاعر المفلق على أساليب لغتهم حاصل لهم . . .

ويعلن أنه لم يفقد من لسان مضر المدون إلا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، وهو بعض من أحكام اللسان .

٢ - أن العناية إنما وقعت بلسان مضر لما فسد بمخالطة الأعاجم ، وكان القرآن منزلا به ، والحديث النبوى منقولا بلغته ، وهما أصلا الدين والملة ، فخشى تناسيهما وانغلاق الأفهام عنهما بفقدان اللسان الذى نزّلا به ، فمست الحاجة إلى وضع مقاييس ، واستنباط قوانين ، وسميت علم النحو ، كما أن الذى دعا إلى العناية بلسان مضر هو حفظ الشريعة ، فحمل ذلك العلماء على الاستنباط والاستقراء .

قال ابن خلدون : وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل ذلك ويدعونا إليه [2] .

٣ - من الممكن إذا اعتنينا باللسان العربى لهذا العهد ، واستقرينا أحكامه أن

---

(١) المقدمة : ص ٥٥٦ . ط . التجارية . (٢) المصدر السابق : ص ٥٥٧ .

نعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه تكون بها قوانين تخصها، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر، بل إن أهل هذا اللسان اعتاضوا عن الحركات الإعرابية فى الدلالة على الفاعل والمفعول بالتقديم والتأخير، وبقرائن أخرى تدل على خصوصيات المقاصد.

٤ - كان اللسان المضرى مع اللسان الحميرى بمثابة « لغة العهد » مع اللسان المضرى، ولا عبرة بمن يحمله القصور على الزعم بأن المضرى والحميرى لغة واحدة، فلغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها، وتصاريفها، وحركات إعرابها، كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر.

* * *

ولا يفتأ ابن خلدون يكرر أن الإعراب لا مدخل له فى البلاغة، لأن البلاغة مطابقة الكلام للمقصود، ولمقتضى الحال، وهذه المطابقة موجودة سواء كان الرفع دالا على الفاعل، والنصب دالا على المفعول، أو بالعكس.

ويدافع عن أشعار العرب، وأهل الأمصار لعهده، مع أن أهل الأمصار نشأت فيهم لغة أخرى مخالفة للغة سلفهم من مضر فى الإعراب جملة، وفى كثير من الموضوعات اللغوية، وبناء الكلمات، ولكن الشعر موجود بالطبع فى أهل كل لسان، سواء كان عربيا، أو أعجميا، فقد كان فى الفرس شعراء، وفى يونان شعراء، وكان فى حمير أيضاً شعراء متقدمون.

والعرب من أهل جيله يقرضون الشعر فى سائر الأعاريض، ويأتون فيه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر، وأغراضه، من النسيب والمدح والرثاء والهجاء، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر، ثم بعد ذلك ينسبون، ويسمى أهل المشرق من العرب هذا النوع من الشعر بالبدوى.

ولهؤلاء العرب فى هذا الشعر بلاغة فائقة، وفيهم الفحول والمتأخرون، ولكن بعض العلماء - كما يقول ابن خلدون - لعهده يستنكر هذه الفنون، ويمج نظمهم،

ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها ، وفقدان الإعراب منها ، ثم يقول : وسبب ذلك عند هذا القائل أنه لم تحصل له ملكة من ملكاتهم ، ولو حصلت له لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره [1] .

* * *

ويبدو من كل ما لخصناه من كلام ابن خلدون أنه لا يرى مانعاً من استعمال لغة ملحونة ، أو لغة ناقصة الإعراب ، ولا لغة بينها وبين اللسان المضرى اختلاف كبير فى كثير من الأوضاع والتصاريف ، وأن البلاغة موجودة فى هذه اللغات ، وينكر على من يستهجنها من أصحاب الأذواق العربية الخالصة ، ويحتكم إلى الذوق السليم ، والطبع القويم فى كل أحكامه .

ولكن ابن خلدون غفل عن أمر بالغ الأهمية هو الذى أبدأ فيه وأعاد ، وأطال القول والاستدلال ؛ ذلك أنه أكد أن الذى نشأت له ملكة فى لغة ، واستقرت عنده ، ورسخت ، لا يستحسن إلا بلاغتها ، ويمج كل بلاغة مخالفة لها ، ولو أراد لسانه على بلاغة أخرى لما قدر عليه ، فكيف ينكر على صاحب الذوق العربى الأصيل أن يستهجن هذه الأشعار ، وكيف يحتكم إلى الذوق - وهو طبعا يريد الذوق العربى - فى الحكم على أدب ليس فى « دائرة اختصاصه » ؟ .

ثم كيف غاب عن ابن خلدون أن العناية باللسان لاستنباط قوانين الشريعة ، وإن لم تلزم فى عهده ، لأنه لا يوجد علماء يمكنهم أن يجتهدوا ، قد تلزم فى عهد آخر ، أو فى قطر آخر ، وأن المسلمين - إلى يوم القيامة - فى حاجة إلى المحافظة على لغة مضر لهذا الغرض الذى قال ابن خلدون أنه لا تدعو إليه حاجة .

نفهم أن ابن خلدون - وهو يؤرخ الاجتماع والعمران - من حقه أن يصف ويقرر ، ويتحدث عن أنواع اللغات ، وأنواع الشعر فى عصره ، ومن حقه أن يثبت البلاغة - على عمومها - لكل هذه الألوان الأدبية ؛ لأننا نؤمن معه بأن فى أدب اللغات العامية بلاغة وبيانا ، وأريحية ، وجودة ، ولكن ليس من حقه أن

---

(١) المصدر السابق : « فصل ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

يقول إن ذلك جارٍ على الذوق العربى ، لأن صاحب الذوق - كما كرر هو وأكد - إنما يدرك ، ويستحسن البلاغة التى نشأت ملكته عليها .

وفقدان الإعراب ، لا يمنع البلاغة ، والتخلى عن العربية جملة بالنظم بأية لغة أعجمية لا يحرم القائل من البلاغة ، ولكن ليس شيئا من ذلك بلاغة عربية .

ويبدو لى - مع تقديرى لهذا النابغة العبقرى ابن خلدون - أنه صدر فى أحكامه هنا عن إيحاء من شعوره الباطنى ، فقد كان الرجل - على الرغم من سعة أفقه - متعصبا لموطنه الأصلى ، ومن آية ذلك أنه كان - كما قال بعض من كتبوا عنه - يأبى أن يلبس زى القضاة - حين تولى القضاء فى الشرق - ويحتفظ بزيه المغربى ، وقد علل هذا الصنيع فى عهده بأنه من حب المخالفة الذى كان يحرص عليه ابن خلدون ، ولكن سببه - فيما يبدو - هو التعصب الباطنى لكل ما هو مغربى .

* * *

وإذا التفتنا إلى الوراء قليلا ، واستحضرنا ما نقلناه عن الجاحظ رأينا الفارق الكبير بين تشدد الجاحظ ، والعلماء القريبين من عهده فى أمر العامية - فمع أن الجاحظ أباح العامية فى « النكتة » ، ومن الجوارى الحسان نراه يرجع بعد ذلك عن فهمه فى بيتى مالك بن أسماء ، وبين ترخص ابن خلدون ، ودفاعه عن عامية عهده ، وبلاغتها ، ولعل السر فى ذلك - بعد ما قلناه - هو الزمن ، فابن خلدون جاء بعد الجاحظ بأكثر من خمسة قرون كانت الأحداث ، والرطانات والأعجميات قد تركت آثارها البالغة فى لغة مضر ، والجاحظ عاش فى بغداد حيث علماء اللغة والنحو ، وكبار الكتاب والشعراء ، أما ابن خلدون فقضى ردحا من دهره فى المغرب حيث العجمة ، والرطانة ، وحيث يقول إنه ماكان من الشعراء المشاهير فى افريقية إلا ابن رشيق ، وابن شرف ، وأكثر ما يكون فيها الشعراء من الطارئين عليها .

والجاحظ وضع كتابه فى البيان العربى ، أما ابن خلدون فوضع مقدمته فى العمران ، وذكر مايعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما إلى ذلك من العلل والأسباب ، فالرجل مؤرخ

لهذه الظواهر العمرانية ، والشعر والنثر بعض فروعها ، فإذا انساق إلى حكم من أحكام الذوق والصنعة - بعد ذلك - صدر فيه عن مشاعره النفسية .

وغلطة ابن خلدون الكبرى أنه قصر المتعة والتذوق بهذه الأشعار البدوية على من كانت له ملكة فى هـذا اللسان ، كأنه يريد من الناس أن يطيلوا النظر فى هـذه الأشعار ، وأن يحفظوها ، ويتفهموها حتى ترسخ فى أذهانهم ملكتها ، ثم بعد ذلك يدركون بلاغتها ، وحسبنا ذلك ضياعا ؛ لأن هذا الذى ننفق فيـه العمر والجهد لا يفيدنا إلا أن نتذوق هذه الأشعار ، ولو أنه دعا أهل هذه اللغات البدوية أن ينفقوا وقتهم وجهدهم فى تحصيل العربية وتذوقها لكانت فائدتهم أكثر ، والخـير عليهم أعود ، فإن كانت ظروف حياتهم هى التى اضطرتهم إلى أن يبقوا على هـذه اللغات ، وأن ينظموا فيها أشعارهم فلندعهم وشأنهم ، ولا حاجة بنا إلى النظر فى بلاغتهم ، لأنها - حينئذ - تفسد علينا أذواقنا العربية ، أو تخدشها ، ونحن إنمـا نجهد لننميها ، لا لننقص منها .

* * *

ونترك ابن خلدون فى أواخر القرن الثـامن الهجرى لنجيل النظر فى بعض مادبجه الـكتاب ، وعلماء الاجتماع ، ونقاد الأدب فى الاحتجاج للعامية ، أو الهجوم عليها وعلى أنصارها .

وهى قضية ضافية الذيول ، وقد كثر الجدل حولها ، لا سيما فى أيامنا هـذه ، ونحن سنقتصر على الجوانب البارزة فيها ، وربما استخرجنا بعض الخبايا من الزوايا .

* * *

لعل بعض المنتصرين للعامية لو اطلعوا على حقيقة الدوافع عند دعاتها الأوائل فى هذا العصر الذى نعيش فيه لرجعوا عن الانتصار لها ، والدفاع عنها ، ولأيقنوا أن دينهم الإسلامى ، ولغتهم العربية الفصيحة يهيبان بهم أن يتنبهوا للسموم الخفية التى دسها هؤلاء الدعاة فى دعوتهم ، زاعمين - كما يبدو لغير المتأمل - أنهم يريدون خدمة الأدب ، وخـدمة الشعوب العربيـة التى لا يكاد معظم أفرادها يفهمون العربية الفصحى .

ولم أشك لحظة واحدة منذ بدأت أدرس هـذه القضية أن لدعاتها الحقيقيين أهدافاً بعيدة المدى ، يجهلها الكثيرون ممن يحطبون فى حبالهم دون وعى ، أو تقدير ، أو إحساس بمـا وراء هذه الدعوة من أخطار ، وأيقنت أن وراء هـذه الدعوة أغراضاً دينية ، وسياسية ، وقومية ، لم يشأ أن يفصح عنها دعاة العامية ، بادىء ذى بدء ، بل لعلهم كانوا حريصين على إخفائها إلى الأبد ، ولـكن سوء حظهم أطلقها على ألسنتهم ، أو على ألسنة الذين لايتحرزون من أتباعهم ، وإلا فليس من المقبول ولا من المنطق أن يدعى قوم إلى ترك لغتهم التى نزل بها قرآنهم ، والتى دونت بها شريعتهم ، والتى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، بدعوى أنها لغة غير متطورة ، وأنها غـير مرنة ، فلا تستطيع أن تفى بحاجات الآداب الجديدة ، فهى غـير قادرة ـ مثلا ـ على التعبير الدقيق عن خلجات النفوس ، وعن مستحدثات الصناعة فى هذا العصر . أو بدعوى أن المراد من الأعمال الفنية المتعة ، وهذه المتعة إنمـا تنشأ عن الفهم ، وجمهرة الشعوب العربية لا تفهم اللغة الفصحى ، أو بدعوى أن بعض الأشخاص الذين يتحدثون على المسرح لا يتكلمون اللغة الفصحى فى حياتهم العادية ، فليس من المقبول ، ولا من الواقعية فى شىء أن يتحدثوا على المسرح بهذه اللغة .

فإن لم يـكن وراء هذه الدعوة إلى العامية هدف دينى أو سياسى أو قومى ، فهى كما يقول الأستاذ الزيات : مرض جرثومته الجهل ، وأعراضه الهذيان ، ونهايته كنهاية كل مرض ، إما الموت ، وإما الإبلال[1] .

وفى حديثنا القادم سنـكشف ـ إن شاء الله ـ عن الأسرار البعيدة التى حفزت أفراداً من الأمة العربية إلى أن يحاولوا القضاء على لغتهم ، ولغة قومهم ؟

(١) دفاع عن البلاغة : ص ١٥٠ .

جلال الدين مولوى

للدكتور محمد غنيمى هلال

ويقال له أيضاً « جلال الدين الرومى » ولد فى بلخ وتركها فى طفولته إبان حملة المغول ، ليذهب مع والده إلى آسيا الصغرى ، واستقر بها مع أسرته ، وتوفى بها عام ٦٧٢ ﻫ (١٢٧٣ م) ويعد أعظم صوفية الفرس على الرغم من أنه بمثابة الإمتداد لعطار الذى تحدثنا عنه فى هذه المجلة من قبل .

وقد تتلمذ أولا على والده ، ثم على تلميذ والده سيد برهان الدين ، وقد رحل زمناً إلى الشام ليحصل العلوم العربية والفلسفية ، عاد بعدها إلى « قونية » ليشتغل بكسب العلوم والمعارف الدينية حتى تعرف على أحد الصوفية الكبار « شمس الدين تبريزى » فترك تحصيل العلوم إلى الاشتغال بالتصوف ، وأسس فيه طريقة المولويين الذين ينشدون الوجد فى حلقات الذكر ، وعلى سماع الأنغام ، ومن ثم عظم شأن هذه الأنغام فى الإثارة الروحية عند المتصوفين ، وعندهم أن هذه الأنغام أقرب إلى الروحانيات لجمالها تجريدى ، وهو لذلك أطوع إلى التعالى بالروح ، وقد ترك « جلال الدين » آثاراً أدبية ، صار بها سيد الصوفية للفرس من الجانب النظرى والعملى معاً فى عالم الصوفية .

وأشهر هذه الآثار ديوانه المسمى « مثنوى » فى حوالى ستة وعشرين ألف بيت من بحر الرمل ، بها تصوير كثير من المسائل الأخلاقية والدينية ، والصوفية النظرية ، وبها وصل الشعر الصوفى إلى قمته لدى الفرس ، وبالرغم من سيره على طريقة العطار فإنه أنضر منه أسلوبا ، وله غير المثنوى ديوان غزل باسم « شمس الدين تبريزى »

(*) عن مجلة الرسالة : السنة الثانية العدد ٥٦ .

إذ أنه ألفه بتأثيره ، وهو غزل صوفى تختلط فيه خواطر الحب بالوجد الإلهى المشبوب ، المعشوق فيه الذات القدسية ، ويعزى إليه كذلك مجموعة من « الرباعيات » .

ولا بد فى قراءته من معرفة مبادىء عامة صوفية هى مفاتيح خواطر فلسفية منها أن الجنون عند الصوفية معناه الوجد الإلهى الذى يصل به المحب إلى درجة النشوة الإلهية ، وهى أعلى درجات المدح لديهم ، ومنها أن الخمر فى كلام الصوفية معناها النشوة الإلهية فى حياة التأمل الروحى ، وقد أخذ الصوفية مفهوم هذين الاصطلاحين عن « افلوطين » ومدرسته ، التى تأثرت بدورها بأفلاطون ، ومنها أن الجمال فى الخلق طريق للهداية إلى الجمال الحقيق ، لأن ذلك الجمال صورى شفاف ، معناه روحى لدى ذوى البصائر ، وليس سوى وسيلة للهداية ، وإنما ينطمس معناه على من يستغرق فى المادة ، فيصبح الجمال الظاهرى لدى باصرته كثيفاً لا يشف عن شىء ، لأن بصيرته قد ران عليها صدأ المادة فأغراه التكالب عليها .

ومن ثم يجب أن نفهم مايتردد من ذكر الخمر والخمارة ، وذكر الجمال ، ثم ذكر ما يتصل بهذين الأمرين من أوصاف تبدو مادية ، وهى فى الحقيقة رموز يضل المرء فى فهمها إذا وقف عند ظاهرها ، فما أشبهه عندهم بمن يحاول القراءة وهو لا يعرف حروف اللغة ، أو بمن يقرأ لغة لا يفهم معنى كلماتها ، فلغة الجمال روحية ، لا ينفذ إليها سوى طاهر الروح ، كذلك لغة الأدب الصوفى مشعة تستعصى على من لا يعرف مفاتيحها الفلسفية ، ونقدم فى ضوء هذا التمهيد الموجز بعض نماذج نترجها من أشعاره ، لعل القارىء يتذوقها بعد هذا التمهيد ، ولا أقصد إلى غير التذوق الفنى فى التصوير ، وقوة دلالته على الإشعاع الروحى ، على أن يحتفظ القارىء بعد ذلك باستقلاله ، لأن هذا الأدب يجب أن يقوم فى قرائن عصره فيما يخص مضمونه ، كما أشرت ، وكما شرحت ، أكثر من مرة ، فى حديثى بهذه المجلة « الرسالة » .

١ — التعصب :

هذا العالم - أى بنى - مثل الشجرة

ونحن عليها مثل الثمرات نصف الناضجة

فغير الناضجة منها يشتد تعلقها بغصنها
لأنها ليست طيبة ولا تروق لأهل القصور
وأما حين تنضج وتصير أهلا لمذاق حلو الشفاه
فإن تمسكها بأصلها من الغصن يهن على الأثر
فشدة الاستمساك والتعصب سذاجة
وما دمت جنيناً فلا شأن لك سوى شرب الدم

٢ — ضيق النظرة :

جلس فى سفينة نحوى من النحاة
وتوجه مغترا بذات نفسه شطر الملاح
وقال : أتعرف من النحو شيئا ؟ فأجاب الملاح : كلا
فقال النحوى : لقد ضاع منك نصف عمرك !!
فانفطر قلب الملاح حزنا ، ولكنه
فى تلك اللحظة قد صمت فلم يحر جوابا .
وألقت العاصفة بالسفينة فى لجة الموت
فتوجه الملاح شطر ذلك النحوى الجليل :
خبرنى : أتدرى من السباحة شيئا ؟
فأجابه : كلا لا تنشد فى سباحا
فقال الملاح : لقد ضاع كل عمرك أيها النحوى
إذ السفينة بسبيل أن تغرق فى اللجة
الذى يلزمك هنا هو المحو ، الفناء فى الله ، لا النحو
وإذن فاعبر الماء ولا خطر عليك
فماء المحيط يعلو مفرق من يموت به
وإن بقى المرء حيا فيه فكيف له بالخلاص من مياهه ؟

إذا تجردت من صفات البشر ، بالفناء فى الله ،

فإن بحر الأسرار سيحملك على مفرقه

٣ — التعلل باسم الجبر :

كل من يظل من الكسل بلا شكر وصبر

يرى مع ذلك أن الجبر هو الذى قيد خطاه

وكل من يتعلل بالجبر إنما يزج بنفسه فى العناد

ويظل كذلك حتى يسلمه القبر

والجبر ما هو ؟ أن تضمد عضواً كسيرا

أو أن تصل بضمادتك عرقا قطيعا

فإذا كنت فى هذا الطريق غير كسير القدم

فبمن تسخر حين تلفه بالعصائب ؟

وأما من جهدت قدمه فى طريق الكفاح

فإن البراق قد أتاه فاعتلاه

قال لص لحاكم : أيها الأمير

أن ما أتيته إنما كان بحكم الإله

فأجابه الحاكم : وكذلك ما أفعله أنا بك

إنما هو حكم الحق يا من أنت ذو عينين تبصران

٤ — المرآة :

يا من تشاهد الظلم سائداً بين الناس

إن محنتك من محنتهم يا هذا

ففيهم يتراءى وجودك أنت

من نفاق وظلم وعربدة

إن ذلك الإنسان هو أنت وذلك الأذى إنما تمارسه على نفسك

وحق أن تلعن فى تلك الساعة نفسك
ألا ترى عياناً هذا الشر من ذات نفسك
وإلا فأنت إذن عدو نفسك
فالمؤمنون مرآة بعضهم لبعض
كما ورد فى الخبر المروى عن النبى

٥ — مدينة العشق :

قال معشوق لعاشق : أيها الفتى
لقد رأيت فى غربتك مدناً كثيرة
فخبرنى : أية مدينة من هذه أطيب ؟
فأجاب : تلك المدينة التى فيها من اختطف قلبى
وإنه لأطيب من الدارين ذلك المكان
حيث أنال فيه سؤلى - أى إلهى - بحضرتك

٦ — الطائر القدس أو الروح :

ظللت أياماً أفكر نهاراً وطول الليل
لماذا أظل فى غفلة عن شئون قلبى ؟
من أين أتيت ؟ ولأى جدوى كان مقدمى ؟
وإلى أين أذهب آخر الأمر ؟ إذ لا يتراءى وطنى هناك
وبقيت فى عجب بالغ أن لماذا خلقت
أو ما ذا كان مراده من صنعى ؟
أنا على يقين من أن الروح من العالم العلوى
فإما أن أشد رجلى من جديد إلى هناك حيث قدمت
وإما أن تحملنى الروح إلى حان المليك
حيث يقيم ساقى ، وثم سأفض ختم الدنان

فطائر ملكوتى ليس من عالم الأرض
وإنما صنع له من بدنى قفصاً لإقامة موقوتة
فيا لطيب ذلك اليوم الذى أطير فيه حتى باب الحبيب
ناشداً أن أخفق بجناحى على عتبات ذلك الحى
فن ذلك الذى صاغ فى مسمعى تلك الأصوات
وأية كلمات وصفها على لسانى
ومن هو الذى ملء باصرتى التى بها أرى
وأية روح تلك التى أنا لها لباس ؟
إذ طالما لا يبدو لى منزل ثم ولا طريق
فلن أستريح لحظة ولن أقر بالا آونة
فأذقنى خمرة الوصال فى هذا السجن الدنيوى
حتى أحطم بابه فى عربدة السكر ، شأن السكارى
أنا لم آت هنا اختيارا ، فلأعد هناك عن اختيار
وليحملنى حتى موطنى الأخروى من قدم بى هنا
لا تظن أنى أقول هذا الشعر اختيارا
فطالما أنا على وعى ويقظة لا أنبس لحظة

٧ ــ سكران :

أنا ثمل وأنت مجنون فمن ذا الذى يقودنا إلى المنزل ؟
لقد نصحتك مائة مرة أن تقل من الشرب كأسين أو ثلاثة
فى المدينة لا أرى شخصاً واحداً صاحياً من السكر
كل امرىء أسوأ من الآخر ولهان ومجنون
أى حبيبى ! هلم بنا إلى الخربات حتى ترى لذة الروح
وكيف يطيب للروح أن تكون بدون صحبة الحبيب

فى كل ركن شخص ثمل يده فى يد نجيه
والرأس يدور ثملا من يد الساقى بالكأس الإلهية
أيها الخفيف الروح ! أعزف على العود ، أأنت أوغل فى السكر أم أنا ؟
فيا أيها العاقل حين تثمل أنت فسحرى أسطورة !
أنت وقف على الخربات لا شأن لك سوى الخمر
فلا تدع حبة من عقل لدى القادمين الصاحين
لقد خرجت من المنزل فاسرع إلى بالسكر
وكل نظرة منه تخبىء وراءها مائة بستان ومنزل
مثل سفينة ضلت المرمى وجنحت للغرق
وعلى الأسى بها آلاف العقلاء والحكماء صرعى
قلت من أين أنت أيتها النفس فهزأت قائلة :
نصفى من تركستان ونصفى من فرغانة
شطرى ماء وطين وشطرى روح وقلب
شطرى من شط المحيط والباقى كالجوهرة الفريدة
فقلت لها : كونى لى رفيقا فأنا من أهلك
فأجابت : لم أعد أعرف أنا قريباً لى من غريب
لقد فقدت رأسى وتاج رأسى فى منزل الساقى
ولى صدر به كلم ـ أأشرحها أم أكتمها ؟ ؟

أبو زكريا الفراء

للدكتور أحمد مكى الأنصارى

عرض وتحليل بقلم الأستاذ حسين عبد الرحيم مبارك

ما ذا قالوا عن الكتاب :

قالوا : « إنه نموذج حى للبحث المنهجى ، وإنه مثل أعلى للدراسات الجامعية المتعمقة » .

« كان ثمرة جهاد عنيف بين الكاتب وبين الغموض الذى كان يكتنف الفراء من معظم جوانبه » .

« أسلوب قوى رصين ، يذكرنا بالأسلوب الأدبى فى العصر الذهبى للغة العربية فى القرنين الثالث والرابع الهجرى » .

طبع هذا الكتاب على نفقة الدولة ، ليعم الانتفاع به ، ويبلغ ما يعلق عليه من آمال فى تقدم البحث العلمى الدقيق .

وماذا عن الفراء :

قال بعض المستشرقين : « إن الفراء عبقرية نادرة لا نظير لها فى تاريخ الآداب العربية كلها ، اللهم إلا أن يكون الخليل بن أحمد » .

كما أن المستشرق الألمانى « يوهان فك » صاحب كتاب « العربية » يقدر الفراء حق قدره ، فينعته فى كتابه القيم بأنه « الفراء العظيم » .

وكذلك المستشرق « ب . كاله » يقدره ويكبره ويرى فيه « النحوى الكوفى الضليع » .

وكان القدماء يلقبونه « بأمير النحاة » كما كانوا يطلقون عليه : « أمير المؤمنين في النحو » .

وقال فيه سعيد بن سالم لأصحابه حينما دخل عليهم الفراء : « قد جاءكم سيد أهل اللغة ، وسيد أهل العربية » .

وأعجب به زعيم المعتزلة ثمامة بن الأشرس فقال : « إن الفراء نسيج وحده » .

وأبلغ من هذا وذاك ما كان من الخليفة المأمون حين علم أن ابنيه يقتتلان على تقديم نعل الفراء ، فاستدعاه وقال له : من أعز الناس ؟ قال : ما أعلم أحداً أعز من أمير المؤمنين ، قال لا أعز الناس من يقتتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى يصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً ، ثم لم يكتف بهذا التقدير الكلامى وإنما أردفه بالتقدير المالى فأمر له بعشرة آلاف درهم مكافأة له على حسن تأديبه ولديه .

كان الفراء فى خُلقه كما يشتهى كل عالم فاضل أن يكون ، كان متديناً ورعا باراً بأهله وعشيرته ، وفياً لأشياخه حفياً بأصحابه ، عف اللسان ، محبباً إلى النفوس ، كما كان حازما صارما حين ينبغى الحزم ، له صدر رحب ، وقلب كبير ، يتحرى الصدق فى المودة والعداوة ، ويصون نفسه عن التبذل ويعرف لها حقها فى الحياة الكريمة الحرة .

وهذا هو الإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة النعمان يقول للفراء معجباً به : « ما ظننت آدميا يلد مثلك » .

وقد وازن المرحوم أحمد أمين بين الفراء والكسائى فقال : « وكان الفرق بين الفراء والكسائى كالفرق بين المأمون والرشيد ، وكالفرق بين محافظة الرشيد وحرية العقل عند المأمون ، وكالفرق بين الحركة العلمية الناشئة فى عهد الرشيد والناضجة فى عهد المأمون » .

وهذا هو الدكتور طه حسين يبدى لنا مدى إعجابه بالفراء فى ثنايا حديثه فى مقدمة « إحياء النحو » للأستاذ إبراهيم مصطفى حين شبهه بالفراء فى مجال التقدير والتمجيد حيث يقول :

وإنى لأعجب أشد الإعجاب بهذا الصبر الطويل ، وهذا الجلد الذى لا أعرف له نظيراً فى هذا الجيل الذى نعيش فيه ، فليس يسيراً أن تعاشر النحويين فتطيل عشرتهم ، فضلا عن أن تنفق حياتك كلها فى مصاحبتهم ، والتحدث إليهم والتحدث عنهم ، والناس بعد يضيقون بالنحو ، ويتبرمون بحديثه ، فما بالك برجل قد أصبح يضيق بكل شىء لا يتصل بالنحو ، ويتبرم بكل حديث لا يمس النحو من قريب أو بعيد ، حتى سميناه فيما بيننا بالفراء .

وماذا قالوا عن الدكتور الأنصارى مؤلف هذا الكتاب :

قالوا : إنه وضع نظرية جديدة « وكشف بذلك عن حقيقة علمية هامة لم يسبقه إليها أحد » .

كما « وضع منهجاً لغويا علمياً دقيقاً ينافس مناهج علماء اللغة فى العصر الحديث » .

وقالوا عن استعداده للدراسات العميقة : « استعداد أصيل عنده لمثل هذه الدراسات ، ومقدرة فائقة عليها ، ثم صبر ، وثقوب فكر ، ومثابرة وجلد » .

وقالوا : « إنه يجمع بين الذوق الأدبى الرفيع ، وبين البحث العلمى الدقيق » .

منحه الله عزيمة قوية ، وقريحة وقادة أضاءت له معالم الطريق ، وأهابت به إلى المضى قدماً فى المسالك الوعرة الموحشة لهذا البحث الدقيق ، حتى ذل منه العصى ، ودنا الأبى ، واستأنس النافر الشرود .

العرض الموجز :

هذا الكتاب يشتمل على بابين اثنين ، تسبقهما مقدمة ، وتتلوهما خاتمة .

تحدث فى الباب الأول عن عصر الفراء وحياته وآثاره فى ثلاثة فصول ، فكان الفصل الأول فى الحياة السياسية والعقلية والاجتماعية فى عصر الفراء ، وأوجز فيه المؤلف أيما إيجاز مع إلقاء الأضواء الكاشفة عن تلك الحقبة فى عصر الخليفة المنصور والرشيد والأمين والمأمون ، حيث ولد الفراء سنة ١٤٤ هـ ، فى خلافة المنصور ، ثم توفى سنة ٢٠٧ هـ ، فى خلافة المأمون .

أما الفصل الثانى فكان عن الفراء ذاته منذ نشأته الأولى إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، وبالرغم من الغموض الشديد الذى كان يكتنف حياة الفراء استطاع المؤلف أن يبرز لنا شخصيته ، ويمثله أمامنا بشراً سويا ... بفضل التعمق فى البحث والاستقصاء . . . فكأنما كان يعد أنفاسه ، ويحصى عليه خطاه .

وفى الفصل الثالث تحدث المؤلف عن آثار الفراء جميعها : الموجود منها والمفقود ، ثم أردف ذلك بحديث ضاف عن منهج الفراء فى التأليف .

أما الباب الثانى فقد جعله فصلين اثنين فقط : الفصل الأول مذهبه النحوى ، والفصل الثانى مذهبه اللغوى .

أما الخاتمة فقد تحدث فيها عن المعالم الكبرى لنتائج البحث ، وبين الجديد فيه - وما أكثره - ثم أعقبه بما عن له من نداء ومقترحات ، وذيل الكتاب بمجموعة حافلة من الفهارس الموضوعية التحليلية وغيرها من الفهارس العديدة التى يقتضيها البحث المنهجى الحديث .

بعد هذا العرض الموجز سنتحدث عن الجديد فى الكتاب ، وعن منهجية البحث ، وعن التحقيقات العديدة ، وعن التوثيق الفريد ، ثم نخص الناحية الدينية فى الكتاب بحديث أوفى وأضفى ، وكذلك الجانب اللغوى ، والمجال النحوى إن اتسع المقام ، ثم أختم المقال بمآخذ على المؤلف كنت أود أن يتحاشاها ، وألا يتورط فى أمثاله وإليك البيان بالتفصيل :

* * *

الجديد فى الكتاب :

لعلى لا أكون مبالغا إذا قلت : كل ما فى الكتاب جديد وجدير بالعرض والتنويه ... لكن ذلك أمر عسير ... غير أن هذا لا يعفينى من إلقاء الأضواء على أبرز النظريات فى هذا الكتاب القيم ، ولنبدأ بنظرية إلغاء العامل :

تلك النظرية التى قامت عليها شهرة المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى - حينما أخرج للناس كتابه المشهور « إحياء النحو » وقدم له الدكتور طه حسين بمقدمة

قوية طويلة حافلة رفعت الكاتب والكتاب إلى عنان السماء ، فكان له دوى قوى فى الأوساط العلمية ، أشبه ما يكون بدوى القنبلة الذرية حين ذاك .

واختلف الناس ، واشتجرت الآراء حول هذا الكتاب ... وانبرى للرد عليه عليه عالم فاضل من جماعة كبار العلماء هو الأستاذ الشيخ محمد عرفة ، فأخرج للناس كتابه المعروف « النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة » ولكنه لم يكن ذا أثر بعيد فى صرف الباحثين عن هذا الكتاب ، فظلت له شهرة ومكانة إلى أن عثر الأستاذ الدكتور شوقى ضيف على مخطوطه لابن مضاء القرطبي اسمها « الرد على النحاة » فنشر هذه المخطوطة ، وقدم لها بمقدمة حافلة أظهرت ما بين الكتابين من تشابه يقوم أساساً على « نظرية إلغاء العامل » حتى أن بعض الباحثين اتهم المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى بأنه أخذ كتابه « إحياء النحو » من كتاب « الرد على النحاة » لابن مضاء القرطبي .

ومن هنا بدأت أسهم ابن مضاء ترتفع . . . وترتفع باعتباره صاحب الفضل فى تيسير النحو العربى بإلغاء نظرية العامل .

ولكن ابن مضاء طويلا بهذا المجد فى عصرنا الحديث حتى ظهر كتاب « أبو زكريا الفراء » الذى أثبت فيه الدكتور مكى الأنصارى بالأدلة الدامغة أن ابن مضاء القرطبي سرق هذه النظرية من أبى زكريا الفراء ، وأن الفراء هو المؤسس الحقيق ، والرائد الأول لتيسير النحو العربى ، وقد آن الأوان لنستمع معاً إلى حديث الدكتور الأنصارى فى هذا الصدد حيث يقول فى (ص ٥١٤) :

« ابن مضاء صورة من الفراء . . . ابن مضاء القرطبي صاحب الدعوة العريضة إلى تيسير النحو بإلغاء نظرية العامل ، كما أنه صاحب الثورة العارمة على النحو البصرى بوجه عام ... لقد كشفت أن قاضى القضاة ابن مضاء انتفع بآراء الفراء دون أن يشير إليه فى قليل ولا كثير . . . أقول انتفع ولا أقول « سرق » تخفيفاً للحكم على قاضى القضاة ! .

ولست فى هذا ممن يلقون القول على عواهنه ، بل إننى استخرجت من كتاب « الرد على النحاة » طائفة من الآراء رددتها إلى منبعها الأصيل من آراء شيخ المجددين أبى زكريا الفراء .

وعجبت لابن مضاء كيف ينتفع بهذه الآراء دون أن يشير إلى مصدر هذا الإلهام ، وحاولت أن أتعرف سر هذا الموقف العجيب المريب ، وأخيراً وضعت يدى على « مفتاح السر » فرأيته يتمثل فى ناحيتين اثنتين ، إحداهما شخصية ، والأخرى سياسية :

أما الأولى فهى أن ابن مضاء ما هو إلا بشر كسائر البشر أراد أن يظهر بمظهر المجددين المبتكرين ، فاختلس آراء الفراء دون أن يشير إلى صاحبها خشية أن يرمى بالتقليد ، فى عهد كان فيه التقليد وصمة عار بينهم ، حتى ولو كان تقليداً للمذاهب الأربعة فى الفقه الشرعى ، فما بالك بالنحو ؟ .

وأما الناحية السياسية فهى أن الأمير الذى شمل ابن مضاء برعايته فولاه منصب قاضى القضاة فى الدولة كلها كان ثائراً على المشرق ، إذن كان ضالعاً فى هذا مع الموحدين ، وقد شهد ذلك العصر ثورة الموحدين على المذاهب الفقهية التى نبعت من الشرق ، فنبذوها ، وتمسكوا بظاهر الكتاب والسنة فحسب ، وردوا فقه الشرق على الشرق » .

فليس غريباً إذن ـ أن يساير ابن مضاء هذه الأجواء ، بل الغريب أن يختلف مع هؤلاء ، وعلى رأسهم ولى نعمته راعى هذه السياسة وحامى حماها ، ولهذا أدلى بدلوه فى الدلاء ، فثار على الشرق أيضا فى زاوية من زواياه العلمية ، وهى زاوية النحو ، محققاً بذلك نوعاً من التجديد ، إذ أن الثورة كانت متجهة إلى الفقه وفروعه ، فهو بذلك جمع بين الهدفين : هدف المشاركة فى الثورة من ناحية ، وهدف التجديد الذى يليق بمنصبه الكبير من ناحية أخرى ، ولولا هذا النزوع إلى الظهور بمظهر التجديد لكان ميدان الفقه والشرع أنسب له ولمنصب القضاء ، ولكنه حب الظهور !.

وليس من اليسير فى هذه الأجواء أن ننتظر من ابن مضاء أن يعترف بفضل

أبي زكريا الفراء ، وإلا ضاع منه المجد ، وفقد الشهرة ، بل أنه يكون حتما موضع اللائمة لعدم تجاوبه مع ولى النعمة من جهة ، كما يكون موضع الزراية والسخرية من جهة أخرى ، حيث يكون قد رد على نحو الشرق بنحو الشرق فلم يأت من مغربه بجديد ، فما الفراء إلا من الكوفة ، وما الكوفة إلا أخت البصرة ، وكلتاهما من المشرق ، ولا يليق - فى نظره - شخصيا ولا سياسيا أن يظهر انتفاعه بمذهب الفراء ، أو بأى مذهب من الشرق .

ومن هذا وقفت على سر ذلك الموقف العجيب المريب ، وأهم ما يعنيني هنا هو إثبات أن أبا زكريا الفراء قد سبق ابن مضاء إلى إلغاء نظرية العامل بعدة قرون ، فكان المؤسس الحقيق ، والرائد الأول لتيسير النحو العربى .

أما إثبات ذلك بالأدلة القاطعة ، والحجة الدامغة ، فأقتضب الحديث عنه ، وأحيلك إليه فى الكتاب ابتداء من (ص ٤٢٣) إلى (ص ٤٣٦) .

وأما تيسير النحو العربى وطريقة إصلاحه فقد تناولها المؤلف فى (ص ١٩ فما بعدها) وذكر فيها طريقين للإصلاح : الإصلاح الكلى ، والإصلاح الجزئى ، ولنا عودة إليهما فى مقال آخر إن شاء الله .

هذا وليست نظرية إلغاء العامل هى النظرية الوحيدة التى سرقت من هذا الرجل العبقرى ... بل هناك مسروقات أخرى أشار إليها المؤلف فى مواضعها من الكتاب ، مثل سرقة كتاب « الفصيح لثعلب » من كتاب « البهاء للفراء » انظر (ص ١٧١) ، وكذلك موقف الإمام الطبرى شيخ المفسرين حيث انتفع بآراء الفراء دون أن يشير إليها فى قليل أو كثير ، بل إنه تبناها وادعاها لنفسه فى كثير من الأحايين ، انظر (ص ٣٢١) إلى غير هذا وذاك مما سماه المؤلف « سرقات أو هى أشبه » .

ولعل السر فى كثرة هذه السرقات وأشباهها يكمن فى غموض الرجل وضياع معظم آثاره ، واحتجاب ما تبقى من هذه الآثار ، كل ذلك شجع بعض العلماء فى القديم أن يسطوا على آراء الفراء فى غفلة الزمان والإنسان ، فنسبوها إلى أنفسهم دون

حسيب ولا رقيب ، وما دروا أن عين التاريخ ساهرة لا تنام ، وأن الله من ورائهم محيط .

ومن الجديد فى هذا الكتاب : تكوين نظرية جديدة مؤداها أن أبا زكريا الفراء كان المؤسس الحقيق المدرسة البغدادية ، بعد أن كان القدماء والمحدثون يزعمون أن الفراء لا يزيد على أنه قطب من أقطاب المدرسة الكوفية ، وقد سلك المؤلف فى إثبات هذه النظرية طريقا منهجيا يعود بها إلى نشأتها الأولى ، بل إلى نشأة المدارس النحوية على الاطلاق ، وتساءل فى وعى ودقة بالغة عن المدرسة ما هى ؟ وهل كانت هناك مدارس نحوية ؟ ثم من الذى أسس هذه المدارس ؟ وما خصائص كل مدرسة ؟ . . . ثم أجاب عن ذلك بالتفصيل ، وتتبع تدرج المدرسة البغدادية ، باحثاً عن جذورها الضاربة ، وخيوطها الناحلة ، منذ كانت لمحات مبعثرة هنا وهناك قبل أن تكون مدرسة بالمعنى العلمى لهذه الكلمة . . . وبعد أن جال جولة واسعة النطاق مع المستشرقين والعلماء العرب أثبت بالحجة الحاجة الناصعة لأول مرة فى التاريخ أن أبا زكريا الفراء كان المؤسس الحقيق للمدرسة البغدادية ، انظر (ص ٣٥٢ فما بعدها من الكتاب) .

ومن الجديد - وكل ما فى الكتاب جديد - أن المؤلف وضع منهجاً لغوياً ينافس أعظم المناهج فى العصر الحديث ، كما أنه كتب فصلا عن تطور المصطلحات النحوية والمفاضلة بينها وربطها بالموسيقى الصوتية ، كان جديدا غاية الجدة لم يسبقه إليه سابق من قبل (ص ٤٣٦) كما أنه بالبحث الدقيق العميق استطاع أن يكشف عن مبتكرات الفراء ، فأثبت أن الفراء كان أول من نادى بمبدأ الإعجاز اللغوى فى القرآن ، وأنه كان أول من وضع الأصول النحوية ، وأنه تفوق بهذا على سيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد ، وأنه كان أسبق فى هذا من ابن السراج الذى اشتهر فى عصرنا بأنه هو واضع الأصول (ص ٣٠١) وأن الفراء كان أول من تنبه إلى التشبيه بمعناه البلاغى ، فكان أسبق من الجاحظ فى ذلك ، هذا إلى فائتات فاتت المعاجم اللغوية كلها حين الجمع وردت فى كتب الفراء ، ولم ترد فى كتب اللغة ، تحقق منها المؤلف وأثبت ذلك .

إلى غير هـذا وذاك من كل ما هو جديد طريف من القضايا الكثيرة المثيرة .

وإن شئت جديداً فوق الجديد فاقرأ التحقيقات العديدة (ص ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٢ - الخ ... الخ) .

وإن أردت أروع ما فى الجديد فاطلع على التوثيق الفريد فى منهجه وفى معالجته ، توثيق كتاب « الأيام والليالى » (ص ٢٠٦) وتوثيق كتاب « معانى القرآن » (ص ٣١٤) إلى آخر ما هنالك من أبحاث بلغت الذروة فى التوثيق المنهجى بعناصره الثلاثة :

العنصر التاريخى ، والعنصر الموضوعى بقسميه .

ومما يتصل بالمنهجية الحقة فى هذا الكتاب أن المؤلف أخرجه فى أعلى نموذج لمناهج البحث الحديث ، ومن بينها المنهج التاريخى فى تتبع الفكرة حسب التسلسل الزمنى منذ نشأتها الأولى ، ثم فى أطوارها المتلاحقة عبر القرون .

ومن المنهجية أيضاً أنه أخذ على صاحبه الفراء عدة مآخذ ، ولم يتعصب له بالحق وبالباطل ، كما يفعل بعض الباحثين ، ويعجبنى من هذه المآخذ قوله :

« أخذت على الفراء أنه قطع على المدرسة الكوفية طريقها إلى المنهج اللغوى السليم ، فهى وإن لم تكن تفقه كنه هذا المنهج الحديث إلا أنها كانت تسير فى طريق أقرب ما يكون إليه ، فجاء الفراء وقطع عليها هذا الطريق ، مؤثراً تحكم البصريين على سلامة الكوفيين ، فخلط عملا صالحا وآخر سيئا » .

وربما استطاع الدارس أن يلتمس له عذرا فى ذلك بأن قيم الأشياء والمناهج تختلف من زمن إلى زمن ، فما نراه اليوم جميلا ربما كان فى زمان سالف غير جميل ، وقد وجد الفراء فى عصر كان يحتم عليه أن يقف فى مفترق الطريق بين البصريين الجامعين المسرفين فى تحكيم القواعد استجابة لدواعى المجتمع آن ذاك ممن دخلوا فى الإسلام من غير العرب ويريدون أن يتعلموا اللغة العربية على أسا
بعصمهم من اللحن ، ويرتفع بهم من أحط المراتب إلى أعلى المناصب ، وبين الكوفيين الذين تركوا الحبل على الغارب واستسلموا لكل ما سمعوه من العرب مهما خالف

القوانين ، فما يبنونه اليوم من القواعد يهدمونه غدا ولو بشاهد واحد ، فكان حتما على الفراء ، وقد وهبه الله ما وهب من القدرة أن يقف موقفا وسطا بين الفريقين فيجمع بين المنهجين ، ويختار محاسن المذهبين ، فيأخذ من البصريين التقنين ، ويأخذ من الكوفيين استلهام الروح العربية الخالصة ، واستهداء الحس اللغوى السليم ، ثم يطلع على الدنيا بهذا المذهب الجديد ، فيسميه القدماء : « أمير المؤمنين فى النحو » .

ومن الجدة الجادة ما كان من مناقشات حادة حامية الوطيس بين المؤلف وبين كبار المستشرقين على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، ومن أمثال المستشرق الروسى « كراتشكوفسكى » والمستشرق الألمانى « جوتولدفايل » و « بركلمان » و « يوهان فك » . . . الخ .

هذا إلى جانب المناقشات الكثيرة الهادئة الهادفة مثل مناقشة « ابن خلكان » و « ابن النديم » و « السيوطى » و « ابن منظور » صاحب لسان العرب . . إلى آخر ما هنالك من القدماء العرب .

أما المحدثون فكان على رأسهم فضيلة الشيخ محمد على النجار - العضو بالمجمع اللغوى ، وأحد كبار العلماء فى الأزهر ، وكذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، حيث ناقشهما المؤلف فى مواطن متعددة وأثبت لهما عدة أخطاء (انظر ص ٢٤٨) و (ص ٢٧٠) وكذلك (ص ٢٧ و ٣١) ومن العلماء الأعلام فى العصر الحديث الأستاذ إبراهيم الإبيارى ، والدكتور المخزومى ، والأستاذ المرحوم أحمد أمين . . . وغيرهم كثير وكثير ممن يضيق بهم الحصر ، ويدل على مواطنهم الفهرس التحليلى بالإضافة إلى فهرس الأعلام .

جهود الفراء فى الدراسات الدينية :

يبدو أن الفراء نذر نفسه لخدمة الدين ، فكان جل اهتمامه مركزاً فى القرآن الكريم ، وما يدور حوله من الدراسات البلاغية والنحوية واللغوية على السواء ، وأكبر كتاب وصل إلينا من آثار الفراء هو كتاب « معانى القرآن » وسنتحدث عنه بالتفصيل ، ومن مؤلفاته فى الميدان الدينى كتاب « مجاز القرآن » وكتاب « لغات القرآن » وكتاب « المصادر فى القرآن » . . . الخ .

هذا إلى جانب النزعة الدينية القوية عنده ، تلك النزعة التى جعلته يسبق النحويين واللغويين جميعا ، فيعتمد الحديث النبوى الشريف حجة فى النحو واللغة على سواء ، على حين أن النحويين جميعا فى ذلك العهد كانوا يردون الحديث ولا يستدلون به فى وضع القواعد ، ما عدا الفراء فإنه رأى بنور الإيمان أن الحديث الشريف يستحق أن يعتمد عليه ، وأن يتخذ حجة فى النحو واللغة ، وبهذا كان أسبق من جميع النحاة ، كما كان أسبق من « ابن خروف الأندلسى » ذلك الذى ذكره المستشرق الألمانى « يوهان فك » على أنه أول من احتج بالحديث الشريف ، ناسيا أن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، قد سبق ابن خروف إلى ذلك بعدة قرون ، حيث توفى الثانى فى أوائل القرن السابع الهجرى (انظر ص ٨٨ و ٥١٣) .

ومن مظاهر النزعة الدينية القوية عنده ، أنه كان أول من نادى بمبدأ الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم ، وذلك أن طائفة من المعتزلة وعلى رأسهم « إبراهيم النظام » انكروا الإعجاز اللغوى فى القرآن ، فتصدى لهم الفراء بالرد ، ونادى بأن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق ، وطفق يرد على المعتزلة من جهة ، وعلى رواة الشعر وعلماء الأخبار من جهة أخرى ، أولئك الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن فى قوالبه اللغوية ، بل يرون كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية ، وأثبت لهم بما لا يدع مجالا للشك بأن القرآن معجز بلفظه ومعناه ، واعتمد فى إثبات الإعجاز اللفظى على دعامتين قويتين ، هما : موسيقى الفواصل ، ونزول القرآن بأفصح اللغات (انظر ص ٣٠١ - ٣١١) ثم انتهج منهج الفراء من جاء بعده من العلماء الذين يعتنقون مبدأ الإعجاز اللفظى إلى جانب الإعجاز المعنوى ، وكان الفراء رائداً فى هذا الميدان ، كما هو رائد فى كثير من الميادين .

ومن الريادة فى الميدان الدينى أن الفراء كان رائد الأشاعرة فى اتخاذ مذهب وسط بين أهل السنة والاعتزال ، وقد رجح الدكتور الأنصارى ذلك ، كما وضح ملامح التشابه بين الرجلين والمذهبين ، وأن الفرق بينهما إنما هو الفرق بين عصرين (انظر ص ٩٤) .

تشيع الفراء :

ومما يتصل بالناحية الدينية عند الفراء جانب العقيدة عنده ، فقد كان الفراء من الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ، وكان على صلة وثيقة بتلاميذ الإمام العظيم « جعفر الصادق » رضى الله عنه وأرضاه ، وكأنى أرى ابن قتيبة الذى تأثر بالفراء فى بعض مناهجه يتقمص روحه فيعبر عنها خير تعبير حين يرسم منهج الاعتدال فى موقفنا من الإمام على كرم الله وجهه ، فيقول : « والسلامة لك ألا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضته ، ولا تحمل عليه ضغنا بجناية غيره ، فإن أنت فعلت فأنت جاهل مفرط فى بغضه ، وأن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . من غير أن تتجاوز به الموضع الذى وضعه به خيار السلف » ذلك هو موقف الفراء فى تشيعه واعتداله ، وليس غريباً أن يقف هذا الموقف المعتدل ، فقد رأيناه يتخذ الاعتدال رائده ، ويرتفع بشخصيته القوية على كل تعصب مذهبي مقيت (انظر ص ٩٦ - ١٠٨) .

معانى القرآن :

ولنعد إلى « معانى القرآن » ذلك الكتاب الذى ألمعنا إليه منذ قليل ، وترجع أهمية المعانى إلى قيمته التاريخية حيث أنه أول تفسير نحوى وصل إلينا يمتاز بدراسة القرآن الكريم من حيث التراكيب والإعراب إلى جانب الشرح والتفصيل ، كما أنه اشتمل على أفانين أخرى غير الجانب النحوى ، تلك التى يشترك فيها كثير من المفسرين .

كما ترجع قيمته التاريخية والموضوعية إلى أنه حفظ لنا أول حديث مستفيض عن القراءات والاحتجاج لها ، كما أنه حفظ لنا أول بحث فى ظاهرة الموسيقى القرآنية وتتبعها فى رءوس الآيات ، هذا إلى جانب ثروة من المصطلحات المبتكرة التى اصطنعها الفراء وتأثر بها الكوفيون والبغداديون من بعده ، إلى غير ذلك من كل طارف وتليد ، ثم هو بعد هذا وذاك أكبر كتاب وصل إلينا من آثار الفراء ، وتبرز أهمية المعانى فى أنه يمثل مرحلة القمة عند أبى زكريا الفراء ، حيث ألفه وهو يناهز الستين ، وقد أودعه جميع معارفه فكان أشبه ما يكون بدائرة معارف الرجل .

ولهذا لا نستبعد الروايات التاريخية التى أشادت باهتمام الناس وتوافدهم ، بل تواكبهم على مجلس الفراء حين الإملاء فى المسجد الجامع حتى عجزوا عن إحصاء هذا الجم الغفير ، وغاية ما استطاعوه أنهم حصروا عدد القضاة فكانوا ثمانين قاضيا ، كما ذكر ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » .

وإلى هنا اقتضب الحديث اقتضابا عن « معانى القرآن » ومن شاء المزيد فعليه بالفصل الممتع فى كتاب « أبو زكريا الفراء » ص ٢٦٧ - ٣٤٩ .

كما أننى أطوى الحديث عما وعدت به فى أوائل المقال من عرض الجانبين ، النحوى واللغوى ، مدخراً ذلك إلى فرصة قادمة إن شاء الله ، علها تسنح لى أو للمؤلف أو لمن شاء من الزملاء الفضلاء .

مآخذ على المؤلف :

. . . أو بعبارة أدق هى وجهات من النظر اختلف فيها مع المؤلف ، ولا ضير على أيناقى هذا الاختلاف ، من ذلك :

أن الكتاب مركز غاية التركيز بحيث يصعب على القارىء المتوسط أن يستوعبه كله ، وإن كان يستمتع به وينتفع منه إلى حد كبير ، بل إننى أرى أن بعض الخاصة من العلماء قد يدق عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى بعض المواطن فى هذا الكتاب . . . هذا تقديرى . . . مجرد تقدير أرجو أن أكون خاطئاً فيه ، ولعل المؤلف يدافع عن نفسه بأن هذا الكتاب رسالة جامعية للدكتوراه ، وكلما اقتدر الكاتب على التركيز ارتفعت قيمة الرسالة العلمية ، غير أن هذا الدفاع لا يعفيه - فى نظرى - من التيسير وهو به جدير وعليه قدير ، فكان فى إمكانه بعد المناقشة وقبل الطبع أن يبسط بعض ماركز ، وأن يسهل بعض ماصعب ، ولعله يستدرك ذلك فى الطبعة التالية إن شاء الله .

كما أننى آخذ على المؤلف قسوته فى بعض المناقشات مثل ما حدث فى مناقشة المستشرق الروسى « كرتشكوفسكى » وغيره من العلماء .

كما أننى أوافق الأستاذ عبد الحميد حسن عضو المجلس الأعلى فى وجهة نظره ضد الدكتور الأنصارى حين أخذ عليه توسعه فى ترجمة الكسائى ، أقول هذا مع

تقديرى لحجة المؤلف ، ودفعه المقبول بأن الكسائى شيخ مباشر للفراء ، بل هو أشهر شيوخ الفراء على الاطلاق ، فكان من حقه أن تسلط عليه كل الأضواء لنتبين من خلالها مدى تأثيره فى تلميذه الفراء .

هذا إلى أننى أوافق الدكتور الأنصاى وأخالف الأستاذ عبد الحميد حسن فى ملاحظة أخرى ، وهى إطالة المؤلف فى موضوع « الفراء والأدب » وبالرجوع إلى هذا المبحث تبين لى أنه مطابق لمقتضى الحال لا إسهاب فيه ولا تركيز ، وإنما هو من قبيل المساواة إن صح هذا التعبير .

هذا حكمى على المبحث وهو مطبوع ، أما حكم الأستاذ عبد الحميد حسن فكان حكما عليه وهو مخطوط قبل الطبع ، ولعل قلم المؤلف جال فيه بالحذف والتعديل استجابة لتلك الملاحظة ، فجاء على ما نرى من المساواة والمطابقة لمقتضى الحال .

ومهما يكن من شىء فإنها وجهات من النظر يختلف فيها الباحثون حسبما يتراءى لهم طبقا لظروفهم ، بل إنه أحياناً يختلف فيها الباحث الواحد مع نفسه إذا ما تغيرت الظروف وتبدلت به الأحوال ، من طور الشباب إلى طور الشيخوخة مثلا .

« وبعد » فلست أدرى كيف أقدر مدى الجهد الذى بذله المؤلف فى إخراج هذا الكتاب القيم ، فكان مثلا أعلى للدراسة الجادة المتعمقة ، ونموذجا حيا للبحث المنهجى الدقيق ، ومناراً شعّاعاً يهتدى به الباحثون مدى القرون ، وقد أهدته الجامعة أثمن ما تهديه لأبنائها كما يقول الدكتور طه حسين ؟

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ — نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدَّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد.

٢ — ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها.

٣ — ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون، فإن ذلك أولى بهم، وأجدى عليهم، وأحفظ للمودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ — من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديماً فى الشئون الدينية، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين، وتثبيتاً لأقدامهم، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض، وقد ذهب الحكام وانقرضوا، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية، تؤثر فى العقول أثرها، وتعمل عملها فعلينا أن نقدر ذلك، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة.

** ** **

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار.

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا — العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب — نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

جـ — السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤ هـ

اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩

قيمة الاشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً ، أو ما يعادلها

مطبعة مخيمر ت ٩٠١١٩٣



تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

السنة الخامسة عشرة العدد ٥٨

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

" قرآن كريم "

بسم الله الرحمن الرحيم



أيها القارىء الكريم : هذه باقة عطرة من الحكم والوصايا فى أدب الصحبة ، جمعتها لك لتتنسم أريجها فى الحين بعد الحين :

* قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » .

* قال شبيب بن شيبة : إخوان الصفاء خير مكاسب الدنيا ، هم زينة فى الرخاء ، وعدة فى البلاء ، ومعونة على الأعداء .

* وأنشد ابن الأعرابى :

لعمرك مامال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الصفاء الذخائر

* قيل لبُزُرْجِمهْر : مَن أحبُّ إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال : أخى إذا كان صديقى !.

* وقال أكثم بن صيفى : القرابة تحتاج إلى مودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة .

* قال علقمة العطاردى رحمه الله ـ لما حضرته الوفاة ـ يوصى ابنه :

يابنى إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإذا قعدت بك مئونة مانك . اصحب من إذا مددت يدك للخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى منك سيئة سدها .

* إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك !

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك !

* قال أهل التجربة :
خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك ! .
* إياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء .
* وقيل لبعض الولاة : كم صديقا لك ؟ فقال لا أدرى ؛ الدنيا مقبلة على والناس كلهم أصدقائى ، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عنى ! .
* إذا سألت أخاك حاجة فقضاها فاشكر الله تعالى واشكره ، وإن قصّر فلا تعاتبه ولا تشكه لأحد ، وكن كالمؤمن يطلب المعاذير ، ولا تكن كالمنافق يتلمس العيوب ! .
* الناس ثلاثة : أحدهم مثله كمثل الغذاء لايستغنى عنه ، والآخر مثله كمثل الدواء يحتاج إليه فى وقت دون وقت ، والثالث مثله مثل الداء لا يحتاج إليه قط ، ولكن المرء قد يبتلى به ، وهو الذى لا أنس فيه ولا نفع ، فتجب مداراته إلى الخلاص منه .
* قال الإمام على رضى الله عنه : « لا تقطع أخاك عن ارتياب ، ولا تهجره دون استعتاب .
* لا تنظر إلى من أوتوا حظوظ الدنيا بعين التعظيم لهم فى حظوظ دنياهم ، فإن الدنيا صغيرة عند الله ، صغير ما فيها ، ومتى عَظُم أهل الدنيا فى قلبك فقد سقطتَ من عين الله تعالى . وإياك أن تبذل لهم دينك لتنال به من دنياهم ، فإنك إن فعلت ذلك صغرت فى أعينهم ثم حرمت ما عندهم . واقطع طمعك عن مالهم وجاههم ومعونتهم ، فإن الطامع غالبا خائب فى المآل ، وهو ذليل ـ لا محالة ـ فى الحال ؟

محمد محمد المدنى



لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ليس من غرضنا أن نفسر هذه الآيات تفسيراً تفصيليا نعرض فيه للألفاظ والأسلوب ووجوه البلاغة ، ولكننا نعرضها عرضاً عاماً يتبين منه أنها تضمنت أهدافاً كبرى من الأهداف الأولى للإسلام ، وأن هذه الأهداف هى أسس قوية لبناء مجتمع سليم .

ويرجع كلامنا فى هذا إلى نقطتين :

الأولى : بيان حال المجتمع الجاهلى إجمالا .

الثانية : دراسة موجزة لهذه الوصايا العشر نبين بها قيمتها فى الإصلاح ، وغاية الإسلام من تقريرها ، ثم نبين السر فى مجيئها ثلاث مجموعات فى ثلاث آيات ، والسر فيما ختمت به كل آية منها .

° ° °

(١) بيان حال المجتمع الجاهلى إجمالا :

من المعروف أن مجتمع الجاهلية والشرك كان مجتمعاً متناقضا لا يصدر عن مبادىء واحدة يراها المنطق السليم ويرى آثارها فى كل خلق وعمل .

فبينما كان القوم أهل نزعة تدينية ورثوها عن آبائهم وعما قبلهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل ، كما يظهر فى اهتمامهم بالحج ومناسكه ، وفى أنهم كانوا يهتمون بمناصب السقاية والسدانة ، ويحتفظون لكل بيت بما ورثه فى ذلك ، إلى غير هذا مما يصور نزعتهم إلى التدين ؛ فإننا نجدهم من جانب آخر متحللين يرتكبون الموبقات ، ويأتون الكبائر ، ويقتلون أولادهم من إملاق أو خشية إملاق ، ويئدون بناتهم خوف العار ، ويتجرءون على الدماء الحرام فيسفكونها ، وعلى الأموال الحرام فيأكلونها ، ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . . إلى غير ذلك .

وبينما نراهم أهل كرم ونجدة حتى كان الواحد منهم ربما ذبح ناقته التى لا يملك غيرها ليكرم بها ضيفا نزل عليه لا يعرفه ، وحتى كان أحدهم إذا استُصرخ أنجد من استصرخه دون أن يسأله لماذا استصرخه ، وعلى من استصرخه ، ولكنه يخف إليه بسيفه فى طرفة عين ، ومع هذا نراهم يستبيحون أن يسلبوا الناس أشياءهم ، وأن يقتلوا المارة ، ويغنموا متاعهم وبضاعتهم ، وأن يفعلوا هذا أحيانا لا لشىء إلا لكى يظهروا شجاعتهم وبطولتهم ، ويتحدثوا بذلك فى أشعارهم ، وكم لهم فى هذه الناحية من أخبار وأشعار .

وهم قوم يغارون على الحرمات ، ومع ذلك ينتهكونها ، فالمرأة العربية كانت موضع شد وجذب : زوجها وأهلها يريدونها حرة عفيفة ، والفتاك والعشاق من حولها يراودونها بالشعر والغزل والمغامرات .

وكانوا مع غيرتهم ربما سمحوا أن تذهب المرأة منهم إلى رجل ذى منزلة فى المجتمع فتمكنه من نفسها ، لتثمر من هذا التمكين ولداً يشبهه .

ولو ذهبنا نستقصى ألوان التناقض فى المجتمع العربى قبل الإسلام لطال بنا الأمر ، وإن ذلك لمعروف مشهور .

ولذلك كان من منطق الدعوة الإسلامية وقد استعلنت وظهرت بعد السرية والاختفاء ، أن تضع برنامجاً إصلاحياً لهذه الجماعة المنحلة المضطربة المتناقضة ، فجاءت هذه الوصايا ، كمبادىء عامة ، وعبر فيها بلفظ « التوصية » ، لأنه لم يكن قد بدأ دور الأحكام التفصيلية بعد ، تلك الأحكام التى تعطى هذه المبادىء عناية تجعل من كل منها قانوناً منسقاً ذا جزئيات ومواد .

أعطى الإسلام هذه المبادىء العامة لهذا المجتمع الطائش النزق المضطرب ، فكان أشبه بالذى يبنى صرحا فيبدأ بأركانه الكبرى وحيطانه وأعمدته .

وإذن فتلك الوصايا أسس أعلنها الإسلام ، وقرر أن يقيم عليها صرح المجتمع ، فلنقف قليلا أمام هذه الأسس موقف المتأملين :

* * *

(٢) دراسة موجزة للوصايا العشر :

جرت السورة ـ فى تقرير هذه الوصايا ـ على عادتها ، فأمرت الرسول بلفظ « قل » على سبيل التلقين له ، لكى يشعروا من أول الأمر بأن هذا بيان إلهى ليس الرسول فيه إلا ناقلا مبلغاً : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » .

وهذه العبارة التى قدمت بها الوصايا فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة ، لا مفر من قبولها والبناء عليها ، فالله تعالى يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب « ما حرم ربكم » ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضبا للرب الذى قرره ، مستحقاً لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء ، ولننظر بعد ذلك فى الوصايا :

الوصية الأولى : من هذه الوصايا هي قوله تعالى: « أن لا تشركوا به شيئاً » .

وهي الأساس الذي يصلح عليه أمر الناس ، فإن المجتمع الذي يقوم على إيثار الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالي السعيد ، أما المجتمع الذي يشرك بالله أحداً أو يشرك بالله شيئاً ، فإنه مجتمع منحل تسيره المادة الصماء التي لا روح فيها ، ولا صلاح ولا قرار معها .

وقد عبرت الآية الكريمة بعبارة جامعة لنوعين من الشرك ، حيث قالت : « أن لا تشركوا به شيئاً » بيان ذلك : أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان : شرك في العقيدة ، وشرك في العمل :

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ، وغير ذلك من التماثيل التي كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتها ولعناتها ، فترتعد فرائصهم منها خوفاً وفرقاً .

ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان في التخبط والعماية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً في التاريخ يعتقدها إلا ذوو الأحلام الضعيفة ، والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم كثيراً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوبا لا يعقلون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا .

وهذه العقيدة مودية بصاحبها في الدنيا قبل أن تودي به في الآخرة ، وحسبنا أن نتصور رجلا في مجتمع مفكر - ولا سيما في عصرنا الحاضر - وهو يؤمن في قرارة نفسه أن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون في سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هذا لا يرجى منه أي خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال المشرك به تصويراً رائعاً يمثل

معانى الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال ، فيقول فى آية أخرى : « ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع اضطراب هؤلاء المشركين القدامى ، وما كان فى مجتمعهم من شر وفساد .

ولا أظن أنه بقى على ظهر الأرض من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، وإذا كان هناك بقايا من مثل هذه الوثنية الأولى ، فأنها ليست بذات شأن ، ومع ذلك فهى صائرة إلى الانقراض السريع .

لكن هناك نوعا آخر من الشرك ما يزال باقيا ، وسوف يطول بالإنسانية أمده ، وهو أشد خطورة من الناحية العملية ، وأكبر ضرراً على المجتمعات من شرك الأوثان والكواكب والأحجار ، ذلك ما سميناه : « بشرك العمل » ، وهو إيثار ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدتَ أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فإنه لايكفى أن تؤمن النفسُ إيماناً سلبياً داخلياً بأن الله هو مالك النواصى والأقدام ، ثم لايظهر لهذا الإيمان أثر فى التصرف والعمل ، بل يظهر فى الأعمال ، والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبى الخفى الذى لا روح له ، ولا حياة به ، ولا يجد ما يصدقه ، إنما الإيمان الحق هو الذى يحول بين صاحبه وبين إيثار شىء على الله « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

وقد وصف القرآن الكريم المائلين للأهواء ، المتبعين للشهوات ، بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلهاً ، إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد

إلى الأرض واتبع هواه » ، « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ، « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » ، « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله » .

وبهذا تبين أن أول وصية من هذه الوصايا العشر ، هي أول أساس فى بناء المجتمع السليم الذى يقوم على الإدراك الصحيح لأول حقيقة ، وعلى العمل بمقتضى هذا الإدراك فى كل شأن من شئون الحياة .

الوصية الثانية : « وبالوالدين إحساناً » وقد قرن الله تعالى هذه الوصية بالوصية الأولى التى هى توحيده وعدم الإشراك به ، فى هذه الآية وفى غيرها من الآيات ، مثل قوله جل شأنه : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » ، « أن اشكر لى ولوالديك » ، وفى ذلك إيحاء بعظم هذه الوصية ، وتنبيه إلى أن معنًى واحداً يجمعها مع الأولى ، هو أن المنعم يجب أن يُشكر : فالوالدان سبب فى حياة الولد ، فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما ، والله سبحانه وتعالى هو الخالق المنعم ، فيجب أن يُشكر ويُفرَد بالعبادة والتوجه .

وإن المجتمع لايمكن أن يصلح إذا بطل هذا المبدأ ، مبدأ الإحسان بالوالدين ، لأنه حينئذ يكون مجتمع نكران ولؤم ، وما أفظع أن ترى أحد الأبناء يتمتع بالجاه والمال وملاذ الحياة ، وأبواه فقيران يصارعان الحياة ويجاهدان العيش ، وهذا الولد قاس غليظ القلب لا يشعر أو لا يريد أن يشعر بأن لهما عليه حقا . إن هذا لأسوأ أنواع الجحود والنكران .

وينبغى أن يُعلم أن فى الحرص على الإحسان بالوالدين توجيها إلى الإحسان بالأخوة والأقارب ، وذلك أن الولد البار بأبويه يجد لزاما عليه أن يصبر من أجلهما على ما عسى أن يلاقيه من تنكر أخوته أو أقاربه له ، وحسدهم إياه . فإن الحسد طبيعة فى الناس ، وهو فى الإخوة والأقارب معروف مشهور ، كما يجد لزاما

عليه أن يحسن إلى هؤلاء المتنكرين له وإن أساءوا إليه ، فإن ذلك يرضى والديه ، ويشرح صدريهما ، ولعله أيضا أن يؤدى إلى استلال عوامل البغض : « ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

الوصية الثالثة : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .

ولا شك أن الحياة حق لكل من خلقه الله ، وأن الله تعالى هو الكفيل برزق كل من خلق ، فإذا استباح أحد أن يعتدى على ولده فيقتله ، فإنه لا بد أن يكون معتل الطبع ، أو مختل العقل ، فإن الولد بضعة من الوالد ، والشأن حتى فى الحيوان أن يضحى الوالد من أجل أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .

فالمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفاً من الفقر أو خوفاً من العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه حينئذ يكون مجتمعا أفراده نفعيون ذوو أثرة ومادية طاغية ، ويكون فى الوقت نفسه مجتمعا أفراده خياليون تطغى عليهم الأوهام ، ويخيفهم المستقبل فيرونه قاتما مظلما إلى درجة أنهم يظنون أن الله تعالى يخلق خلقا ثم لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ثم إلى درجة أن يتخيل المتخيل منهم أن هذه الأنثى ستكبر ثم تعوج ، ثم تزل ، فتصيبه بالعار ، وأى عار أكبر من أن يكون مثل هذا التفكير رائده وباعثه وموجهه ؟ فهل يرتكب العارُ المحقق ، توقيا من عار متوهم ؟ .

وما زال فى الناس من يقتلون أولادهم بإجهاض الحوامل ، ويقولون : إن تكاليف الحياة شاقة ، وإن الأبوين فى هذا الزمان لا يستطيعان القيام بشئون أولادهما ، ولا يقدران على مطالبهم الكثيرة ، لذلك يستبيحون قتل الأولاد عن هذا الطريق ، طريق الإجهاض ، وإنهم لظالمون .

الوصية الرابعة : « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

والفواحش هى كل فعل تنكره العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، وقد تعلق التحريم فيها بهذا الوصف الذى يشعر بالعلة ـ كما يقول علماء الأصول ـ فكأنه

قال : إن كل فعل من الأفعال تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب أن يبتعد عنها ، ولا شك أن هذا مما تصلح عليه المجتمعات ، وتستقر به المثل الفاضلة فيها .

والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك « فواحش » يجب أن تجتنب ، و « محاسن » يجب أن تلتمس ؛ هو المجتمع الذى يكون له أهداف ومُثل ومقاييس ، أما المجتمع الذى يسوِّى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الفلسفة الإباحية التى لا تفرق بين ما يفعل وما يترك ، فلكل إنسان فيه أن يفعل ما يشاء غير مقيد ، وتلك هى الفوضى وبوادر الانحلال .

الوصية الخامسة : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » .

والقرآن الكريم ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله ، فلا يحق لأحد أن يهدمه ، وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنه اعتدى على الإنسانيه كلها « أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

وفى ذلك تقرير للمبدأ الأول والأهم الذى تستقر عليه حياة البشر وأمنهم ، فإن الإنسان – كسائر الحيوان – يعتمد على القوة وتنازع البقاء ، فإذا تُرِك إلى طبيعته ، عمد إلى قوته فاتخذها سبيلا إلى قضاء مآربه ، وإزاحة كل من حال بينه وبين هذه المآرب من بنى جنسه ، عن طريق سفك دمه ، وفى هذا ما فيه من تفانى هذا النوع وانقراضه ، وفيه كذلك انتشار الخوف بين الناس ، وفساد حياتهم ، واستحالة تعاونهم المثمر بسبب فقدان الثقة ، وفيه إهدار للكرامة الإنسانية ، واستهانة بهذا النوع الذى جعله الله خليفة فى الأرض ، لكن إذا تقرر أن من قتل نفسا بغير حق ؛ كان كمن قتل الناس جميعا ، لأنه اعتدى على النوع كله باعتدائه على فرد منه ، ولأنه فتح باب الضراوة والبغى وهدم ما بنى الله ، فإن الناس حينئذ يشعرون بكرامة هذا النوع شعوراً يبعثهم على التعاون فى الضرب على يد المعتدى ، واعتبار أنفسهم معتدًى عليهم ، ومن

واجبهم رد هذا العدوان ، فيوجد التكافل على حفظ الحياة ، والتضامن على إقرار الأمن والسكينة .

وقد نسى الناس فى عصرنا الحاضر هذا المبدأ الذى قرره الإسلام باسم الإنسانية كلها : مبدأ التضامن فى الضرب على يد المعتدى . فأصبحنا نرى من يعتدون على شعوب بأكملها ، ومن يقتلون الناس حصدا بآلات التدمير والإفناء الشامل ، دون رحمة ولا تورع ، ثم لا يجدون من يحاسبهم على ما فعلوا ، ولو تضامن الناس وجعلوا هذا المبدأ شعارهم ؛ لارتدع الظالمون ، وكف المعتدون .

هذه هى الوصايا الخمس التى تضمنتها الآية الأولى من هـذه الآيات الثلاث ، وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها ، متقررة بذاتها ، ولم يكن ثبوتها وتقررها إلا تجاوباً مع الفطرة وحكم الطبيعة : فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة إيمانا عقيديا وعمليا أم لم يؤمنوا ، وشكر النعمة يقتضى الإحسان بالوالدين طبعا ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، فلا يسوغ للوالدين أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر أو العار ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب ويبتعد الناس عنها ، والنفوس معصومة ، وهى صروح بناها الله فليس لأحد أن يهدمها ، وليس للإنسانية أن تتهاون فى شأنها .

ولاتفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة ، وخُتمت بعبارة تفيد أن أن هـذا مرجعه إلى حكم العقول « لعلكم تعقلون » وسيأتى مزيد بيان لسر هـذا التذييل وغيره مما ذيلت به الآيات الثلاث .

الوصية السادسة : وهى أول الوصايا فى الآية الثانية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » .

واليتم عارض يعرض فى كل مجتمع . ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى ، وأن تحافظ على صلاحهم فى أنفسهم وفى أموالهم ، وذلك لأن الإنسانية مشتركة فى العاطفة ، ومن شأن أفرادها أن يتأثروا بما يصيب الآخرين وبما يصير إليه أبناء الذين ماتوا ، لكن الناس قد ينسون هذه العاطفة أحيانا ، طمعا فى مال

اليتيم ، فأول ما يَدْخل على قلوبهم من التغير فى ذلك ، إنما يأتى من ناحية المال والطمع فيه ، فاحتاجوا إلى أن يُوَصَّوْا بألا يقربوا هذا المال ، وهى عبارة بليغة ذات تأثير قوى ، فإن النهى عن قرب الشىء أبلغ من النهى عن تناوله ثم استثنت العبارة من يكون من القرب الذى هدفه الإصلاح لهم ، وبذل الوسع فى تحقيق ما هو أحسن لمثلهم ، وهذا يدل على وجوب الاحتراس فى النية وفى العمل، جميعا ، فلا يكفى أن تكون نية الأوصياء على اليتامى حسنة ، ولكن عليهم أيضا أن يبذلوا غاية الوسع ليحققوا لهم فى كل تصرف ما هو الأحسن والأمثل والأعود عليهم بالمصلحة ، ومن الواضح أنه لا يقصد بذلك مجرد تنمية أموالهم ولو على حساب تربيتهم الخلقية والعلمية ، فإن ذلك لا يكون هو الأحسن ، إنما الأحسن هو أن يعامل اليتيم كما لو كان ابناً لمن يعامله من الآباء الصالحين ، الواعين ، المخلصين .

ولا شك أن هذا لون من التعاون الاجتماعى لا بد منه فى صلاح الناس ، واستقامة شئونهم .

الوصية السابعة : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها » .

وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لا بد لهم من التعامل ، ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلة ذلك ، فلا بد من أن يكونا منضبطين بالقسط .

ومثل ذلك كل تعامل ولو لم يوزن البدلُ فيه أو يُضبط بالكيل ، فيجب أن يكون الأساس هو إعطاء الحق ، وأخذ الحق ، أما من يريد أن يأخذ لنفسه كل ما استطاع ، ولا يعطى فى مقابل ذلك كل ما عليه أن يعطيه ، فإنه من المطففين الذين يقول الله تعالى فيهم : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون » .

والمجتمعات الراشدة هى المجتمعات الواعية التى لا تجد فيها أحداً يغبن عن جهل

أو غفلة ، وهى أيضا المجتمعات الآمنة التى لا تجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه ، أو يعطى أقل مما يجب عليه .

ولذلك قلت إن الحديث عن الكيل والميزان والقسط فيهما ، يكمن فيه مبدأ القسط فى التعامل عامة ، وفى تبادل المصالح الاجتماعية كلها .

وقد أتبع هذا المبدأ بقاعدة من قواعد الإسلام الميسرة الرافعة للحرج ، وهى قوله تعالى : « ولا نكلف نفسا إلا وسعها » ، وذلك لأن التبادل التجارى أو المصلحى كائناً ما كان ، لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة والتعادل ، فلا بد من تقبل يسير من الغبن ، فى هذا الجانب أو ذاك ، ومثل هذا يغتفر ويهون أمره . وعلى هذه القاعدة خُرِّج كثير من المعاملات ، التى أبيحت مع تضمنها معانى لو نُظر إليها لحرمت ، ومن هذا القبيل الرخص المستثناة دفعا للحرج فى التعامل .

الوصية الثامنة : « وإذا قلتم فاعدلوا » والعدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول ، والعدل فى الحكم ، والعدل فى الشهادة ، والعدل فى كل فعل .

وإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى القول والفعل لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ، ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال ، فالإنسان حين تصادفه قضية من القضايا القوليـة أو العملية ، يُحدّث نفسه فى شأنها ، ويراوده معنى العدل ، وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل ، فإذا لم يكن صادقا فى هـذا القول فقد جافى العدل ، وقال غير العدل .

والغرض ألا يحدث الإنسان نفسه فى أى قول أو عمل إلا بالعدل ، ومن شأن أحاديث النفس أن تكون بواعث على الفعل ، وبوادر له ، فإذا صلحت أحاديث النفوس ؛ صلحت الأفعال غالبا .

وقد عبر القرآن الكريم عن هـذه الوصية بعبارة أخرى فى آيتين غير هـذه الآية ، إحداهما فى سورة النساء ، وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » والثانية فى سورة المائدة ، وهى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا

كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، وقد طلب الله تعالى فى هاتين الآيتين إلى المؤمنين أن يكونوا « قوامين بالقسط شهداء لله ، وأن يكونوا « قوامين لله شهداء بالقسط » ولم يجعل « القوامية » لهذا غير « القوامية » لذاك ، ولا الشهادة بهذا غير الشهادة بذاك ، ليُعلمنا سر تسميته جل جلاله باسم « العدل » .

الوصيه التاسعة : « وبعهد الله أوفوا » والوفاء أصل من أصول الاجتماع التى يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس ، ويكون بين الأفراد بعضهم وبعض ، وبين الدول والأمم ، والقرآن الكريم يأمر بالوفاء بالعقود عامة ، فيقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ويقول جل شأنه : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دَخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

وهذه آية جامعة فى شأن الوفاء بالعهد : شددت فى النهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها ، والأيمان هى العهود والمواثيق التى يتخذها الناس بعضهم مع بعض ، وحذرت من الله الذى يعلم مايفعل الناس ، ويطلع على نواياهم ، ويعرف مقاصدهم ، والذى جعلوه كفيلا عليهم أى ضامنا وشاهدا متكفلا بعقوبة كل من تحدثه نفسه بالنقض والنكث ، وصورت الناقض لعهده بامرأة تنقض غزلها بعد قوة ما أتمته وأخرجته قويا متينا ، فتعيده أنكاثا ، ولفتت إلى أسباب النقض غالبا ، وهى شعور الأمة الناقضة الناكثة بقوتها فى المادة أو العدد « أن تكون أمة هى أربى من أمة » وهذا أمر نشاهده بأعيننا ، فما تعودت الأمم الضعيفة أن تنقض عهودها مع الأمم القوية ، ولكن الأمم القوية الطاغية بقوتها هى التى تنقض العهود عادة ، بل هى التى تبرمها لتنقضها ، ولا يبعثها على هذا النقض إلا شعورها بقوتها وكثرتها ، فالله تعالى يحذر من هذا الخلق الدولى ، ويعرف الناس أن القوة والكثرة والنماء فى الأمم إنما هى ابتلاء ، أى امتحان واختبار ، كما جرت بذلك سنته

تعالى فى الأفراد ، فما من أمة أعطاها الله القوة والكثرة والهيبة ثم جارت فى حكمها ، ونقضت عهودها ، وتنكرت للعدل ، وطمعت فى غيرها ملبية داعى الجشع ، إلا أخذها الله بظلمها « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة » ، « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

وآيتنا فى سورة الأنعام تذكر هذه الوصية بلفظ موجز ، ولا تفصل فى شأنها كما فصلت الآية التى ذكرناها ، وسر ذلك كما قلنا من قبل أن سورة الأنعام تضع الأسس والمبادىء ، ولا تكاد تفصل شيئا إلا ما تستلزم البيئة العربية يومئذ تفصيله ، ومع ذلك فإن هذه العبارة الموجزة التى جاءت بها الوصية فى هذه السورة « وبعهد الله أوفوا » قد وفت بأصول هذا المبدأ ، حيث ذكرت أن لله عهدا ، وأن عهد الله يجب الوفاء به ، وكل عهد يقوم على أساس من الحق والعدل فهو عهد الله ، سواء كان بين فرد وفرد ، أو بين أمة وأمة ، وهذا يشعر بأن هناك عهوداً غير جديرة بأن تنسب إلى الله ، وهى العقود أو العهود القائمة على الظلم أو الباطل أو الفساد ، فمثل هذه العهود غير جديرة بالاحترام ، ويجب العمل على التخلص منها إذا كانت بين أمة وأمة ، كما يجب أن ينظر فى إصلاحها أو إلغائها إذا كانت بين الأفراد ، وللفقهاء فى العقود تفصيلات ذات صلة بهذا المعنى ، يبينون فيها العقود التى تنعقد والتى لا تنعقد ، والعقود الفاسدة التى تقبل الإصلاح ، وغير ذلك .

وبهذا يتبين أن الإسلام دين الوفاء ، وأنه يجعل للوفاء شأناً عظيما فى المجتمعات الداخلية ، وفى المجتمع الدولى على حد سواء .

وقد انتهت بهذا الوصايا الأربع فى الآية الثانية ، وسنعود إلى حديثها مرة أخرى لنبين السر فى تذييل هذه الآية بقوله تعالى : « لعلكم تذكرون » ومنه يتبين السر أيضا فى جعل الوصايا الأربع مجموعة واحدة فى الآية الثانية ، كما جعلت الوصايا الخمس الأولى مجموعة واحدة فى الآية الأولى .

الوصية العاشرة : « وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وهذه الوصية الأخيرة هى الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق ، فى العقائد والحقائق الأولى . وفيما يأتى بعد ذلك من التشريع والأحكام .

والله تعالى يعرف عباده بأن الصراط المستقيم واحد ، وهو الصراط المنسوب إليه ـ سواء جعلنا الضمير فى قوله تعالى : « وأن هذا صراطى » لله أو للرسول ، فإن صراط الله هو منهجه الذى رسمه وأوحاه إلى الرسول ، وصراط الرسول هو المنهج الذى جاء به من عند الله ـ أما غير ذلك من المناهج ، فهى سُبُل مختلفة متفرقة مفرقة ، ولذلك أفرد الصراط المستقيم ، وجمع السبل وعقبها بما يدل على أن التفريق من شأنها ، فقال : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

* * *

هذه هى الوصايا العشر فى سورة الأنعام ، التى عنيت بتقرير الأهداف الأولى للإسلام ، وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم » إلى قوله : « لعلكم تتقون » .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم » إلى ثلاث آيات ، ثم قال : « فمن وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء آخذه وإن شاء عفا عنه » ؟

محمد محمد المدنى

معالم التقريب

للعلامة الكبير الأستاذ محمد عبد الله محمد المحامى

— ٣ —

من المسائل التى قد يقف بها المتأمل فى مناهج الدعوات الإسلامية المعاصرة — ومنها التقريب — : مسألة المفاضلة بين الأغراض المحدودة ، وبين الأغراض الضخمة العامة الشاملة . ومزية الغرض المحدود — من حيث إجادة الدراسة والتنفيذ وربطه بالواقع وظروفه وفرص النجاح — لا تخفى ، ومزية الغرض الشامل الضخم — من حيث الجاذبية ويسر القبول وعظم التأثير فى النفوس — واضحة .

ومعظمنا حين يتحرك اهتمامه بدينه ، ينظر إلى الإسلام من علٍ نظرة شاملة يشعر معها بالشجو لقصير أهله والرثاء لحالهم ، ويجد فكره مسوقا إلى استعراض مشاكل المسلمين كما يتخيلها ، وإلى التماس حلول لها ، وإلى أن يفضى بذلك لمن عساه يسمع ، أو يكتب عنه لمن عساه أن يقرأ . وهو فى هذا يقف موقف الطبيب من المرضى مفترضا أنه طبيب وحيد ، وأن مرضاه وهم قرابة ثلاثمائة مليون لا يمكن أن ينتظروا منه أكثر من أفكار أو نصائح أو وصفات مقولة أو مكتوبة ليس عليه منها تبعة ولا عهدة إذا لم تصدق أو تنجح ، وكل منا قد مر فى الغالب بمثل هذا الموقف ، وحاول مرة أو أكثر من مرة أن يقوم بدور طبيب الملايين على هذا النحو ، وهو يظن أن مسلمى العالم يرتقبون العلاج والإصلاح على يديه ، وقد طاب له الشعور بنشوة الفارق بين ما فى وضع الطبيب أو المصلح من كمال ، وما فى حال المحتاجين للعلاج والإصلاح من نقص .

ووراء ذلك مع الغيرة على الإسلام ، قدر قليل أو كثير من الرغبة الغريزية فى التصدر والقيادة والأهمية ، وقدر قليل أو كثير من الحرص الغريزى على إشباع رغباتنا بأقل ما يمكن من المشقة والجهد والمخاطر وبأكثر ما يمكن من

الأمن والدعة والعافية . ووراءه أيضا عادات فكرية ونفسية عودتنا إياها ظروف حياتنا الحاضرة ، أعانت عليها المطبعة والصحافة فى اعتمادها الكلى على الجماهير والكتل ، فإن كل شىء يعرض أو يُعرض له بكيفية أو بأخرى فى الصحف وغيرها من أدوات النشر على كل إنسان ، ومعه دعوة ضمنية أو صريحة لكل إنسان بأن يرى فيه رأيا معينا أو غير معين . وقد ألف قارىء الصحيفة لمجرد أنه يستطيع قراءتها ، أن يعالج بلا احتفال ولا روية أى شىء وهو فى مقعده من بيته أو مقهاه ، سواء تعلق بأمور الحرب أو السلام أو شئون السياسة المحلية أو الدولية أو أحوال المجتمع فى بلده أو فى بلاد الدنيا ، وهو يرى فى ذلك اهتماما بالمسائل العامة يشهد له فى بيئته باليقظة والثقافة . ومهما يكن من مزايا هذا الاعتياد فلا شك أنه يحيى لدى كثير من الناس إحساساً كاذبا بالعلم والخبرة والجدارة ، وشعوراً طفلياً بسهولة تغيير أوضاع الحياة ويسر تحويلها وتشكيلها ، وجرأة بلهاء على مناهضة نواميس الله وتحديها ، كما يضعف لدى كثيرين البصيرة والإحساس بالنسب بين الأشياء ، وبالفروق ، وبقيمة الزمن ، والشعور بمعنى الواقع وصلابته وصلة الواقع بالممكن ، وأنه هو الذى يحدد أبعاد الممكن وتكاليف تحقيقه ، ثم يحجب عنهم الهوة التى تفصل بين الممكن وبين وهم الواهم وخيال الهاذى ، ولذا كان اهتمام أولئك بالمسائل العامة قليل الجدوى عليهم وعلى المسائل العامة التى لا يجذبهم إليها فى الغالب إلا عمومها وبريقها وضخامة شعاراتها وضجيج خلافاتها وغموض قضاياها .

ومن الخير للإسلام ألا تتناوله الجماهير والكتل بالكيفية التى تتناول بها المسائل العامة ، لأنه لا يمكن أن يسلك ضمن هذه المسائل ، ولا أن يجرى عليه ما يجرى عليها ، فكل منا يحمل دينه معه على الحقيقة لا على المجاز فى أدق خصوصياته ما عاش ، ويحمله معه حين يموت . وقد أسلمنا حياتنا الخاصة لله كلها بكل أجزائها فى كل أوقاتها وأحوالها ، وقد أسلمنا تبعا لذلك إليه تعالى حياتنا العامة ، أى علاقاتنا وصلاتنا وروابطنا بالجماعة التى نعيش فيها ، ولا يتصور أن يسلم المسلمون حياتهم العامة لله ويحتفظوا بحياتهم الخاصة لأنفسهم . والإسلام دين نفس معينة ، أى رباط مباشر بينها هى بالذات وبين خالقها سبحانه وتعالى ، وهذا الرباط بالنسبة لنا ليس

مسألة عامة إلا على قدر ما يكون الخبز المعيّن الذى تأكله، أو الماء المعيّن الذى تشربه مسألة عامة . نعم على المسلم أن يصلح إسلامه أو يصفيه كما يصلح خبزه ويصفى ماءه ، فمن هذه النقطة يجب أن يبدأ وإليها ينتهى به المطاف .

إن طريق الدعوة الأعظم هو الإنسان المسلم : حياته وسلوكه، مواقفه وتصرفاته، أفعاله وردود أفعاله ، باطنه وظاهره ، غيبه وحضوره ، جده وهزله ، إنه بينة البينات على وجود الإسلام وصلاحيته للوجود ، إنه الحجة التى لا ينفع معها مراء ولا مكابرة ، إنه قوة الخير الحية يجذب خيرُها ما فى غيرها من خير ، إنه الإسلام الحى الحاضر يخاطب بلسان الحال جميع الأحياء الحاضرين إنه إليهم كلمة الإسلام ودعوة الإسلام ورسالة الإسلام ، إنه الحصة القيمة التى يثرى بها رصيد ديننا وتمتلىء خزائنه ، وما يمكن أن ينهض دين إذا زوده أهله بحصص معظمها زائف وتافه ورخيص .

إن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال أقوى من الدعوة القولية تأثيراً وأبعد أثراً ، والدعوة القولية بدون هذا الخطاب الحى الفعال قليلة الجدوى محدودة النفع ، وهما معاً يتكاملان ويتعاونان ويزيد أحدهما تأثير الآخر ، ويبلغان معاً بالدعوة آفاقا من النجاح لا يصل إليها أى منهما منفرداً .

وقد يبدو للوهلة الأولى أن الدعوة القولية هى وحدها التى تقبل الإعداد والتخطيط والتنظيم واتباع المناهج وتعديلها حسب ظروف الزمان والمكان ، ونعنى بالدعوة القولية ما يتصل بالإرشاد والوعظ والتعريف بالعقيدة وأركان الدين وعزائمه ورخصه وفضائله ورجاله وأمجاده ، وأن الدعوة من طريق خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال تستعصى على فكرة الإعداد والتخطيط والتنظيم والمناهج ، لأن زمام هذا النوع من الخطاب فى يد كل مسلم ، يتوقف على سلوكه الشخصى ، ويعتمد على طريقة تناوله لحياته ، ولكن هذا غير صحيح ، فإن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال يقبل الإعداد والدراسة والتخطيط والتنظيم كالدعوة القولية تماما ، وأى منهج سديد يوجب أن يشمل الإعداد والتنظيم طريقى الدعوة جميعا ، وألا يعهد بالمراكز الحساسة فى الدعوة القولية إلا لمن يحسنون

خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال . وقد أتقنت الطوائف المسيحية الغربية سيما الكاثوليك تنظيم هذا النوع من الخطاب وبلغت فيه شأواً بعيداً .

ومخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال تحتاج إلى مزيد من شجاعة القلب وقوة التماسك والثبات فى وجه المخاطر ، وإلى السكينة والوقار والعفة عما ألف الناس أن يرغبوا فيه ، ويصطرعوا عليه ، وهو يحتاج فوق ذلك كله إلى امتلاء النفس بالأمل فى الخير والتصميم على تحقيق نصيبها منه بكل ما فى استطاعتها .

ولا شك أن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال فى البيئات الإسلامية حاصل باستمرار ، لكنه فيما يبدو لا يحصل بالقدر الكافى ويفتقر إلى التنظيم والمناهج ، ولا يوجد تلازم بينه وبين الدعوة القولية فى أية صورة من صورها ، بل الغالب أن تسير الدعوة القولية فى طريقها دون أن تعول على هذا الخطاب أو تلتفت إليه . ولا جدال فى أن خدمة الدعوة بالكلام مقولا ومكتوباً ليس فيها كل المشقة والمخاطر التى فى مخاطبة الناس بالمواقف والتصرفات والأفعال ، فبذل الكلام تأييداً وتمجيداً وترغيباً وترهيباً وحضاً وصداً ، جهد لا يكلف صاحبه فى الأغلب تضحية فى أطماعه أو فى ماله ، ولا يتقاضاه تغييراً فى عاداته ونسيج حياته ، مع أنه يجتذب إليه السمعة ، ويلفت نحوه أنظار الناس ، ويشهد له عندهم بواسع العلم والفضل ، ومع قلة جدوى الكلام فى البيئات الاسلامية ـ اللهم إلا فى تحريك ألوان من المشاعر العابرة ، وإثارة أنماط من السلوك السطحى الوقتى الذى ليس وراءه طائل ـ فإننا كلنا نعتقد أن للكلام قوة خارقة ، وأن الفصيح الأريب الذكى اللسن الحافظ الواسع الاطلاع قدير على أن يرشد وهو ضال ، ويذكر وقلبه غافل ، ويقوم وعوده معوج ، وينير طريق الناس وطريقه مظلم معتم ، ويحيى الاسلام فى النفوس وقد مات إسلامه ، وكلنا لا يفطن إلى أن الدين إخلاص لله ، إن فقد عند الناس فليس فى مقدور الذكاء والمهارة واللباقة أن تعيده ، وأن تسليط المهارة والابانة على الدين يمتص مائيته ويجفف عوده ، ويضعف جاذبيته ويطرد عطره ، وأنه ما لم يحصل تنوير القلب لا يصل الكلام إلى قلوب الناس مهما جوده صاحبه .

ويبدو أن اعتقادنا المبالغ فيه فى قوة الكلام وقدرته فرع على أننا جماعات عاشت أحقاباً على الأمانى ففقدت ثقتها بالمحدود المعين المقدور التنفيذ وفقدت استعدادها النفسى لبذل الجهد ، وتنافس أفرادها على بذله .

والصوفية إذ يفرقون بين الرجاء باعتباره الثقة فيما عند الله التى تحدث للعامل الجاهد الناشط ، وبين الأمنية من حيث هى تصور احتمال النجاة بغير اهتمام بأسبابها ، وترحيب بهذا الاحتمال مع عدم الاطمئنان إليه لانعدام دواعى هذا الاطمئنان ، يقيمون تفرقة صحيحة مشاهدة فى حياة الأفراد والجماعات ، فإن البشر كأفراد أو كمجاميع لا يستطيعون أن يقوموا بعمل ما يحتاج إلى جهد ووقت إلا إذا كان لديهم الثقة فى إمكان إتمامه على ما يحبون ، وهذا هو الرجاء . أما الأمنية فشىء يوجد فى خيالنا إذا لم يكن لدينا عمل معين ننوى ونعزم على أن ننهض به ، وهى مجرد استحسان لأمر ممكن نظريا وذهنيا ، وهو استحسان لا يتصل بالإرادة ولا يحركها عادة لا إلى الاستعداد والتجهيز ولا إلى العمل والتنفيذ .

وليس منا أحد إلا وقد جاشت نفسه زمناً ما بهذه الأمنيات فتمنى ألا يموت ، أو أن يصبح فإذا حصباء داره درارى وترابها تبر ، أو تمنى أن تكون له كلمة لا ترد ومال لا يعد كما تقول العامة فى مصر .

ونحن بين يدى الأمنية نتخلى عن الإرادة وما يتصل بها من عمل ورجاء معقود بالله على هذا العمل ، ونستسلم استسلاماً تاماً لما ستجىء به الأيام كيفما تجىء .

وفقدان الرجاء يعطل معظم إرادة الإنسان فيعاف ويكره كثيراً مما يحتاج إلى جهد ومثابرة ووقت .

وفقدان الرجاء معناه فقدان أهم وأشرف حافز يحفز إرادة الآدمى ويحركها إلى العمل والمثابرة عليه وتجويده . وقد فقد معظم الناس فى بلاد الإسلام لمئات السنين هذا الرجاء فقداً مزمناً لطول ما أزمن الخوف بينهم ، وطول ما فقدوا الأمان على المال والنفس والعمل والمكانة والمنزلة والفكر والعلم والفن ، وطول ما بسط عليهم من ظل القلق والرهبة الذى أمات الثقة فى أى جهد مخلص يبذل ،

أو قولة حق تقال ، فضمرت الآمال والرجال ، وضمرت الإرادة البشرية ، وضاق أفقها قروناً عدة صفيت خلالها جهود السابقين المتفوقين ، وتحجر ما لم يدركه الضياع من آثارهم كما تحجرت بقايا غابة أصابتها كارثة جيولوجية ، وباتت الأجيال المسلمة المصابة بذلك الضمور النفسى والعقلى والعاطفى تعبد تلك البقايا ولا تتجرأ ولا تسمح لأحد بأن يتجرأ على تقليبها ، واستغنى الناس بالأمنية عن الرجاء ، واكتفوا فى ظل الإرادة الضامرة المشلولة بالانتظار واعتادوا على الانتظار وعلى الترحيب بالقول الذى يعين عليه انتظاراً غير مصحوب بأى توتر ليس له آخر ولا نهاية : يولد الناس لينتظروا ويموتون وهم ينتظرون ، هاربين دائماً من الرجاء الخصب إلى الأمنية الجدباء .

وخلال ذلك وقع الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، فاعتقد الناس أن الإسلام بسيط بمعنى أنه سهل لا يتقاضى من المسلم جهداً ولا عزيمة ولا تضحيات ، ووطأ ذلك ووطد لسيادة الكلام والشقشقة فى البيئات الاسلامية ، ولا يتصور عاقل أن الإخلاص لله أمر هين لين ، فكيف يتصور أن يكون الاسلام سهلا هيناً . إن الاسلام بسيط بمعنى أنه قادر قدرة عجيبة على إبراز ما هو جوهرى ومفيد فى أغراضه ، وعلى استبعاد كل مايحجب الجوهر من الحواشى والتفصيلات ، فبساطة الاسلام ترجع إلى أدائه لمضمونه ، بل هى مقدرته على أداء هذا المضمون أداء ناصعاً مباشراً ، وهذه البساطة نقيض تلك السهولة الكلامية البدائية التى تكتسح ما هو جوهرى وأساسى وكل ما يعترض خطاها الغافلة ، وتلغى الفوارق بين الجوهر وبين الأشكال والصور والتفاصيل والحواشى . إن الاسلام بسيط من جهة حرصه الشديد على رؤية ما هو جوهرى وما هو مفيد فى الحياة ، مرتسما بقوة على سلوك المسلم وتصرفاته فى حياته الخاصة والعامة ، وهذا ليس أمراً هيناً ولا سهلا ، ولا هو يوافق البدائية أو الآلية الكلامية البليدة الكسلانة التى يتناول بها كثير من المسلمين دينهم بفضل تحويل بساطة الاسلام إلى سهولة وخفة وزن ومئونة .

وكما حصل الخلط بين بساطة الإسلام وبين السهولة ، حصل التمييز بين المتدين وبين المستقيم . فلم تعد البيئات الإسلامية تعتبر التدين مرادفاً للاستقامة ملازماً لها غير منفك عنها ، لم يعد يلزم أن يكون المتدين مستقيما ، أو أن يكون المستقيم متدينا ، ولا نقصد هنا بالمتدين ذلك الذى يتظاهر بالتدين رياء وتصنعا ، وإنما نقصد الإنسان الذى تميل نفسه إلى الأمور الدينية ويشعر برقة وتأثر عند ما يمارسها ، ويحب أن يشارك فى أنواع السلوك الدينى المشترك ويهمه الدين فيفرح ويحزن من أجله . والتدين بهذا المعنى استعداد عاطفى غير وثيق الصلة بالاعتياد على الارادة وضبط النفس والفطنة . وهى مقومات الاستقامة .

وأحسب أن الاسلام يخسر كثيراً إن هو وقع فى الشرك الذى وقعت فيه المسيحية الغربية ، واكتفى بهذا التدين وفرح بأولئك المتدينين ضعيفى الإرادة والاستقامة . إنهم كانوا وما زالوا كثرة فى بلاد الاسلام ، وهم الآن جمهور عظيم يقبل على الدعوة القولية ، ويحب أن يسمع ويقرأ الكلام فى المسائل الدينية ليرضى استعداده العاطفى ، ولا يستفيد مما يسمع أو يقرأ أكثر من هذا الرضاء .

وقد نتج عن طول سيادة الكلام وانفصال الدعوة القولية عن خطاب الناس بالمواقف والتصرفات والأعمال والسلوك أن ضعفت قدرة اللغة الاسلامية على التوصيل ، أضعفها كثرة الاستعمال خلال قرون عدة فيما جل وحقر ، منفصلة فى الغالب عن الحقيقة غير ممثلة للواقع ففقدت الكثير من هيبتها ورهبتها وشحناتها الشعورية ، وليسأل أى منا نفسه أية رهبة يشعر بها حين ينطق أو يكتب لفظ « اللهم » أو يورد فى كلامه المقول أو المكتوب مثل عبارة : أشهد الله أو ماشاء الله أو الله أكبر أو يذكر الإيمان أو التوكل أو الحساب أو البعث أو الآخرة ، وأمثال ذلك من كلم وتراكيب اللغة الاسلامية ، إنه لا يكاد يحس ما يجب لها من رهبة ، إلا أن يمر به ظرف غير عادى يوقظ لحظات شعوره بالمضمون الخطير لهذه اللغة ، فنحن نستعمل فى الدعوة لغة تحوج إلى الاطالة والإطناب واستعمال المترادف أو المتقارب لكى يعوض الإسهاب والإكثار عن ضعف قوة توصيل الألفاظ والتراكيب ، وهو ما يجعل كلامنا فى الدينيات وغيرها يبدو فى بعض

الأحيان أو أغلبها أجوف كثير الفضول والضوضاء إذا قيس بكلام الأولين وما فيه من إحكام واقتصاد ووقار ، وكلما أكثرنا من الكلام زاد ضعف القدرة على التوصيل فى اللغة ، وهو ضعف لا يمكن أن يتوقف إلا حين نربط الكلام بالواقع ، والألفاظ بالأفعال ، واللسان بالقلب والجوارح ، أى إلا إذا قل اعتماد الدعوات الإسلامية على الصور البيانية ومدخرات الذاكرة والحافظة ، وزاد اعتمادها على مخاطبة الناس بالحاضر الحى من المواقف والتصرفات والأفعال والسلوك .

إن وراء ميل معظمنا إلى الاشتغال بالأغراض الضخمة ، والاصلاحات الكلية فضلا عن جاذبيتها بقية من فقدان الرجاء وضمور الإرادة والهرب من ملاقاة الواقع ومعاناته ، إذ الأغراض الضخمة والاصلاحات الكلية شىء لا أستطيع أن اضطلع به أنا أو أنت ، ولا يقوى عليه أفراد المسلمين وإن اشتركوا وتعاونوا وتناهدوا ، فما الذى يدفعنى ويدفعك إلى الاعراض عن الممكن المقدور عليه إلى التماس الضخم الفخم الشامل الكلى إلا أن أكون أنا أو أنت قد فقدنا الرجاء والثقة فى أن نستطيع عمل شى ذى قيمة ، وأصبحنا نلوذ بأمنية كبرى تقوم بتنفيذها قوة كبرى تكتسح كل من يعترض طريقها وما يعترضه ، ويحجب عنا بريقُ هذه الأمنية ورواؤها وسحرها سوءَ مصيرنا ومنقلبنا حين نصبح فى يد تلك القوة الكبرى المكتسحة ، إن أفراد المسلمين لا يستطيعون أن يصلحوا واقعهم مع المحافظة على حريتهم وحقوقهم التى كفلها الاسلام إلا إذا لاقوا واقعهم بأنفسهم ، وعانوه بأشخاصهم منفردين ومشتركين فى إصلاحات جزئية وأغراض معينة محدودة يكون فى استطاعتهم هم التعرف عليها والقيام على تنفيذها وتكرار ذلك مرة ومرات ، يزداد خلالها المسلم تجربة وقوة إرادة ، كما يزداد رجاء وثقة فى نفسه وإخوانه ، وفى رضاء الله سبحانه عنه وعنهم .

ولا يستطيع الباحث فى مناهج الدعوات الإسلامية أن يغفل قضية اتجاه الاسلام ، وهل هو يتجه إلى الماضى كما ينعى عليه خصومه أو يتجه إلى الأمام نحو المستقبل متخذاً من الماضى قوة تؤيده وتسدد خطاه كما يعتقد المستنيرون من أهله ؟.

بيننا ولا شك تصور شائع قديم الجذور متشائم النظرة يرى عجلة الزمن تعدو بالناس بعيداً عن نور القرآن ، وأنهم كلما لج بهم البعد عن عهد تلك الإشراقة العظيمة التى نزل فيها القرآن قل حظهم من الهداية والفلاح والخير ، وأن كل جيل من المسلمين لا بد واجد نفسه أقل خيراً من الجيل الذى سبقه وأكثر خيراً ممن يأتون بعده ، وأن الأجيال المتأخرة ومنها الأجيال الحاضرة لم يعد يجوز لهم أن يحاولوا بأنفسهم ولأنفسهم فهم القرآن ، وامتراء الزاد الروحى من مائدته مباشرة ، بل حسبهم ويكفيهم أن يحاولوا فهم الذين فهموا القرآن من السلف الصالح من العلماء ، وهذا التصور المتشائم يعتقد أن الإسلام قد استنفد أفضل أيامه ومر بها من ألف وثلثمائة سنة ، وأنه بعد أن بلغ أوجه فى ذلك الماضى البعيد دخل على مكانته النقص وتدهورت حاله ، وأن دوران الأرض إذ يزيد المسلمين بعداً عن مصدر النور يزيدهم ظلمة ويزيد بهم حال الاسلام تدهورا ، وأن الخير كله كان فى الماضى لدى السلف الصالح ، والشر كله فى الحاضر لدى هذا الخلف الضال ، وأن سفينة العالم يوشك أن يبتلعها اليم لكثرة ما عليها من أوضار وأشرار ، والمسلم السعيد الناجى من خرج منها بقلبه قبل أن تفارق روحه جسده .

هذا التصور المتشائم ليس رأى الاسلام ذاته ، وإنما تصور أجيال من المسلمين عانت حياة شقية وحاضراً تعساً بالنسبة لها ، غلب عليه الشر وساد فيه الأشرار ، إذ لا شك أن تقديسنا للماضى طريق نعبر به عن رأينا فى الحاضر وحكمنا عليه ، وأننا فى أعماقنا نرفضه رغم أننا نعيش فيه ونمارس فى ظله حياتنا . وفى جبلة البشر الاعتزاز بالماضى والفخر بالآباء ، ولكن حب الناس لآبائهم وأسلافهم لا يتحول إلى تقديس عنيد شبيه بالتأليه إلا حين يعيشون لمدة طويلة فى بيئة مزعجة يشعرون فيها بدوام الخوف والقلق ، ويحسون فيها بهزيمة الخير والمحبة والحق ، وباليأس من إمكان مقاومة الشر والأشرار ، فيتجهون بقلوبهم وخيالهم إلى الماضى ليجدوا فيه ما لا يجدونه فى حاضرهم من أسباب العزاء وصور الخير والصلاح والفضيلة والحق ، مما يرد عليهم شيئاً من الثقة فى الحياة ويعينهم على الاستمرار فى حمل عبئها .

إن تقديسنا للماضي يعكس صورة هزيمتنا في الحاضر ، ويأسنا من قدرتنا على التخلص من سيطرة الأشرار في أي مستقبل معقول ، وبأي جهود معقولة ، إنه يسجل تخلينا عن الاشتغال بمقاومة الشر بغير الرفض الداخلي والعناد النفسي ، وعن محاربته ، لأن الاشتغال الفعلي بمحاربة الشر يشغل أصحابه بفكرة الانتصار وما عسى أن يترتب على الانتصار من نتائج ، أي يشغلهم بالمستقبل ويلفتهم إليه أكثر مما يلفتهم إلى الماضي ، إن الناس يقبضون على ماضيهم بعناد وإصرار وتعصب حين لا ينجح الحاضر في اكتساب ثقتهم ، وحين ينفرهم هذا الحاضر ويزعجهم ، وحين يحسون أن القيم التي يعتقدون أنها ضرورية ولازمة للحياة الحسنة الكريمة غير مصونة ولا محترمة وأن من العسير صيانتها والدفاع عنها .

هذا فيما يبدو هو التفسير الأشبه بالصواب لهذه النظرة المتشائمة التي يعتمد عليها أعداء الاسلام في اتهامه بالاتجاه إلى الماضي .

نعم إن المسلمين يكبرون عصر النبوة وأمجاد الاسلام وأئمته وأعلامه ، وهذا الاكبار طبيعي ومعقول ، وهو لا يقتضي تلك النظرة المتشائمة اليائسة ولا يبررها ، والله سبحانه وتعالى لم يبعث محمداً صلوات الله وسلامه عليه وآله من أجل عصر واحد ، ولا لزمن واحد بعينه ، ولا قصر سبحانه رقي النوع الانساني على جيل بعينه ولا على أمة بعينها ، وإنما بعث تبارك وتعالى رسوله إلى كل إنسان كان ويكون وسيكون في إنسانية كتب لها مولاها جل شأنه التطور والترقي حالا بعد حال ، ودرجة فوق درجة ، وشرع سبحانه الاسلام لتتعاقب أجيال المسلمين ويتكاثروا ويتكاثر بهم الخير والبركة في الدنيا والآخرة ، وليحمل الأول منهم الآخر إلى ما هو أفضل ، وليسوق ماضيهم مستقبلهم أمامهم إلى ما هو أكمل ، وليستجيب الله دعاء المسلمين فيجيء الأولاد خيراً من الآباء ، والأحفاد خيراً من الأولاد إلى آخر الزمان إن شاء الله .

فالاسلام يرى في المسلم ذريته ، ويرقب في حاضره مستقبله ومستقبلهم في ظل ممدود من الرجاء والثقة في الله ؟

« يتبع »

من ثمرات المعقول والمنقول

للشاعر الكبير الاستاذ على الجندى
العميد السابق لكلية دار العلوم

الناس سبع طبقات :

قال الإمام على ـ عليه السلام ـ : الناس سبع طبقات :

فالطبقة الأولى : الفراعنة يدعون الناس إلى عبادتهم ؛ أمَا إنهم لا يأمرونهم أن يصلوا لهم ولا يصوموا ، ولكنما يأمرونهم بطاعتهم فيطيعونهم ، فبطاعتهم لهم فى معصية الله ـ جل ثناؤه ـ قد اتخذوهم أربابا من دون الله ! ! .

والطبقة الثانية : جبابرة أكلهم الرِّبا وبيعهم السُّحت [١] .

والطبقة الثالثة : فُسَّاق قد تشرّدوا من الدين كما يتشرد الشارد من الإبل .

والطبقة الرابعة : أصحاب الرياء ليس يعبدون إلا للدينار والدرهم .

والطبقة الخامسة : قُرّاء مخادعون يطلبون الدنيا بزِىّ الصالحين .

والطبقة السادسة : فقراء ؛ إنما هَمُّ أحدهم أن يشبع شَبْعةً من الطعام ، لا يبالى أحلالا أخذها أم حراما .

والطبقة السابعة : الذين أثنى الله ـ جل وعز ـ عليهم ، فقال : « وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْناً [٢] ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما [٣] » .

---

(١) السحت : الحرام .

(٢) هوناً : أى بسكينة ووقار .

(٣) سلاماً : أى سداداً من القول يسلمون فيه من شرهم .

ثم قال ـ كرم الله وجهه ـ : « والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة [١] : إنهم للذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

ثم التفت إلى كُمَيْل بن زياد ؛ فقال : يا كميل بن زياد ، اطلبهم .

قال كميل : وأين أطلبهم يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : فى أطراف الأرض تجدهم ؛ قد اتخذوا الأرض فراشا ، والماء طيبا ، والقرآن شعارا ، والدعاء دثارا [٢] ، باكين العيون ، يقرضون العيش قرضا [٣] ، إن غابوا لم يُفتقدوا [٤] ، وإن شهدوا لم يُعرفوا ، وإن خطبوا لم يُزَوَّجوا ، وإن قالوا لم ينصت لقولهم ، يدفع الله ـ عز وجل ـ بهم العاهات والآفات والبلايا عن الناس ، وبهم يسقى الله ـ عز وجل ـ العباد الغيث من السماء ، ويُنزل القطرَ من السحاب ، أولئك عباد الله حقا .

وصية جليلة :

قال ابن عباس : ما انتفعت بشىء بعد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتفاعى بكلمات كتبهن إلىّ أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ قال : كتب إلىّ : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن المرء يفرح بإدراك ما لم يكن ليفوته ، ويغتم لفوت ما لم يكن ليدركه !! فإذا آتاك الله من الدنيا شيئا فلا تكثرن به فرحا ، وإذا منعك منها فلا تكثرن عليه حزنا !! وليكن همك لما بعد الموت ، والسلام .

إفحام يهودى :

جاء رجل من اليهود إلى الإمام على ـ عليه السلام ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، متى كان ربنا ؟ .

---

(١) النسمة : النفس .

(٢) الشعار : الثوب الذى يلى الجسد ، والدثار يكون فوق الشعار .

(٣) يقرضون العيش . . . المراد عدم الركون إلى الدنيا .

(٤) لم يفتقدوا : لا يسأل عنهم .

فقال له : يا يهودى [١] ، لم يكن ربنا ـ جل وعز ـ فكان ، وإنما يقال : متى كان ، لشيء لم يكن فكان ، هو كائن بلا كينونة ، كائن لم يزل ، ليس له قبل فهو قبل القبل وقبل الغاية ، انقطعت الغايات عنده ، فهو غاية كل غاية .

من معانى الوجه :

من معانى الوجه : أول الشيء وصدره ، كقوله ـ تعالى ـ : « آمِنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار » .

وصف بالمفرد والجمع :

يقول العرب : ثوب سَمَل ـ بجمل ـ أى بال ، وثوب أسمال : على الجمع . ومن النحويين من جعل أسمالا مفردا . والصحيح : أنه على التأويل بالجمع ؛ أى أنواع الثوب : أسمال ؛ لأن أفعالا لم يثبت فى المفرد ، وإنما هو جمع .

الأحامس :

الأحامس من قريش وكنانة وجَديلة ، ومن تابعهم ؛ سُمّوا بذلك لتحمسهم فى دينهم . وكانوا يدخلون البيوت من ظهورها إذا أحرموا فى غير الأشهر الحرم ، فنهاهم الله عن ذلك . كما كانوا يطوفون بالبيت عرايا ، وقد نهاهم لرسول عن ذلك .

كاد :

إذا أدخلت العرب على كاد نفيا كان فيه وجهان :

الأول : حدوث الفعل بعد لأى وإبطاء ، كقوله ـ تعالى ـ : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » .

والثانى : زيادتها للتوكيد فقط ، وعليه قوله ـ تعالى ـ : « إذا أخرج يده لم يكد يراها » أى لم يرها أصلا عند أكثر المفسرين .

وتأتى كاد بمعنى أراد كقول الأفوه الأودى :

فإن تجمّعَ أوتادٌ وأعمدةٌ وساكن بلغوا الأمرَ الذى كادوا

أى أرادوا .

(١) يا يهودى : أى يا زنديق .

معانى النفس :

من معانى النفس : الأنفة ، تقول : ليس لفلان نفس : أى لا أنفة له . ومنها : الإرادة ، تقول : نفسى فى كذا . ومنها : العين ، تقول : أصابت فلانا نفس : أى عين ، ومنه النفوس ـ كصبور ـ وهو الذى يصيب الناس بالنفس : أى بالعين . ومنها : العقوبة ، قال ـ تعالى ـ : « ويحذركم الله نفسه » أى عقوبته فى بعض الأقوال . ومنها : الغيب ، كقوله ـ تعالى ـ : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » .

الليل والنهار :

يسمى الليل والنهار : بالجديدين ، والأجدين ، والملوين ، والفتيين . والردفين ، والعصرين ، ويكنى عنهما : بابنى سبات . وإذا أطلق الليل : أريد به سواد الليل من الغروب إلى الفجر الثانى . وإذا أطلق اليوم : أرادوا به بياض النهار . وإذا قرنوا به من الأفعال ما ليس له استمرار : أرادوا به مطلق الوقت كالحديث : « تلك أيام الهرج » أى وقته ، والهرج : القتل .

لا تشاور هؤلاء :

كانوا يكرهون أن يشاور الجائع حتى يشبع ، والظمآن حتى ينقع . والمضل حتى يجد ضالته ، والغضبان حتى يرضى ، والمحزون حتى يفيق .

يسجدون على شق وجوههم :

يسجد اليهود على شق وجوههم ، وسبب ذلك : أنه لما نتق الجبل فوقهم ، قيل لهم : إما أن تسجدوا ، وإما أن يلق عليكم . فسجدوا على شق ، مخافة سقوطه عليهم ، فصار ذلك سنة عندهم إلى اليوم .

تقدير العلم والفن :

قال الرشيد للأصمعى ـ فى بعض المناسبات ـ : إن دولتى لتحسن بك !! . وقال الواثق لإسحاق الموصلى : ماغنانى إسحاق قط ، إلا خيل لى أنه زيد فى ملكى .

لفظ كان :

لفظ كان قد يراد به الحال والاستقبال ، كقوله ـ تعالى ـ : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أى أنتم كذلك .

وقد تقع للماضي كقول الشاعر فى رثاء المغيرة بن المهلب :

ولقد يكون أخادم وذبائح

أى لقد كان .

معنى بيت :

قال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه كريمة أحسابُهم   شُمُّ الأنوف من الطراز الأول

الشمم : ارتفاع أرنبة الأنف ووُرودها ، والشَّـمَم : الارتفاع فى كل شىء .

ويحتمل : أن يكون حسان أراد ماذكر ؛ لأن ذلك دليل العتق والنجابة عندهم .

أو أراد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الأمور ورذائلها ، وخص الأنف ، لأن الحمية والغضب والأَنَف ـ كسبب ـ يكون فى الأنف ، ولم يرد طول أنوفهم ، وهذا أشبه بمراده .

ولم يرد ببياض الوجوه : اللون على الحقيقة ، وإنما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم ، وجميل أخلاقهم وأفعالهم ، ومثله : جاء فلان بوجه أبيض ، وبيض فلان وجهى بكذا .

والطراز الأول : يريد به أن أفعالهم أفعال آبائهم وسلفهم ، وأنهم لم يُحدثوا بعدهم أخلاقا مذمومة لا تشبه نجارهم وأصولهم .

كفر اليهود :

فى صحيح مسلم : أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : « لو آمن بى عشرة من اليهود لم يبق على ظهرها يهودى إلا أسلم » المراد : عشرة من أحبارهم .

أقول : إنما كان ذلك لأنهم كانوا يقلدون أحبارهم تقليداً أعمى ، وقد كان أحبارهم على ضلال مبين !! فلو أن الأحبار آمنوا مثلما آمن عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، لاهتدى بقية اليهود ، ولكن كتب عليهم الشقاء !! .

أول وارث وموروث فى الإسلام :

قال ابن عبد البر : أول موروث فى الإسلام : عَدىّ بن نَضلة ، وأول وارث : نعمان بن عدى ، وكان عدى قد هاجر إلى أرض الحبشة ، فمات بها ، فورثه ابنه نعمان هناك .

محنة ابن حنبل :

لما كان الشافعي بمصر رأى رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في المنام يقول له : بشر أحمد بن حنبل بالجنة على بلوى تصيبه !! فإنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب ، بل يقول : هو نزل غير مخلوق . فلما أصبح الشافعي : كتب صورة ما رآه في منامه ، وأرسله مع تلميذه الربيع إلى أحمد في بغداد ، وحين وصل قصد منزله ، فأذن له بالدخول ، وقال له : هذا كتاب أخيك الشافعي ، فقال له : هل تعلم ما فيه ؟ فقال : لا . ففتح أحمد الكتاب وقرأه فبكى !! وقال : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله !! وأطلع الربيع على ما فيه ، وكان على أحمد قميصان ، أحدهما على جسده والآخر فوقه ، فنزع الذي على جسده ودفعه إليه ! فأخذه ورجع إلى الشافعي ، فقال له : ما أجازك ؟ قال : أعطاني القميص الذي على جسده ، فقال الشافعي : أما أنا فلا أفجعك فيه ، ولكن اغسله وائتني بمائه !! فغسله الربيع وأتاه بالماء فأفاضه على سائر جسده ! .

حفظ المفصل :

كان يحفظ كتاب « المفصَّل » للزمخشري خلق كثير من الناس . والسر في ذلك : أن الملك المعظم عيسى الأيوبي كانت له رغبة في الأدب ، حتى إنه شرط لكل من حفظ مفصل الزمخشري مائة دينار . وكان المعظم عيسى يلقب مأمون بني أيوب .

دعاء يذهب الفاقة :

ذكر صاحب نفح الطيب : هذا الدعاء الذي نقل عن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في المنام ، وقال عنه إنه يذهب الفاقة ، وهو : « يا رب ، يا رحيم ، يارب ، يارحيم ! الطف بي في قضائك ، ولا توَلِّ أمرى أحداً سواك حتى ألقاك » ! .

دفاع على عن عثمان :

عن شداد بن أوس قال : لما أشتد الحصار بعثمان يوم الدار ، رأيت عليا خارجا من منزله معتما بعمامة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ متقلداً سيفه ، وأمامه ابنه الحسن وعبد الله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار ، فحملوا على الناس حتى فرقوهم ، ثم دخلوا على عثمان ، فقال له على : السلام عليك يا أمير المؤمنين ،

إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر ، وإنى والله ، لا أرى القوم إلا قاتليك ، فرنا فلنقاتل !!

فقال عثمان : أنشد الله رجلا رأى لله - عز وجل - عليه حقا ، وأقر أن لى عليه حقا أن يُهَريق بسببى ملء محجمة من دم ، أو يهريق دمه فىّ !!.

فأعاد على عليه القول ، فأجابه بمثل ما أجابه !!.

قال شداد : فرأيت علياً خارجاً من الباب وهو يقول : اللهم إنك تعلم أنا قد بذلنا الجهد ؟ ثم دخل المسجد .

حبنا لأطفالنا :

قال العماد الإصبهانى : جرى يوماً ذكر حب الأطفال بين يدى القاضى الفاضل ، فارتجل هذه الأبيات :

طفل كفاه القلب داراً له كأنما القلب له قالب
كيوسف الحسن وقلبي له سجن ، وما ثمّ له صاحب
وهو بعينى وهو إنسانها وهى له من خارج حاجب
ضاق به ضيق عناقى له فلم يسع ما قاله العائب

أقول أبدع من ذلك وأوجز قول القائل :

وإنما أولادنا بيننـــا أكبادنا تمشى على الأرض

أبناء النبوة :

حبس هارون الرشيد موسى الكاظم - رضى الله عنه - فى بغداد ، ثم أمر بإخراجه وأعطاه ثلاثين ألفاً من الدراهم !! فسئل الرشيد عن ذلك ، فقال : رأيت فيما يرى النائم عبداً أسود معه حربة ، يقول لى : أخرج موسى ، وإلا قتلتك !!.

فقه آل البيت :

أصاب المتوكل العباسى مرض ، فنذر إن شفاه الله أن يتصدق بمال كثير ! . فلما برىء سأل العلماء عن مقدار مايتصدق به ، فاختلفوا فى ذلك ، فقال محمد الباقر : إن نويت الدينار فتصدق بثمانين ألفا أو الدرهم فكذلك ، فسئل عن الدليل ، فقال : قوله - تعالى - : «لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة» فعددنا وقائع الرسول ، فوجدوها ثمانين.

سلسلة الدر :

دخل على بن موسى العلوى مدينة نيسابور ، فتعلق العلماء بلجام بغلته ، وقالوا له : بحق آبائك الطاهرين ، حدثنا حديثاً سمعته من آبائك . فقال : حدثنى أبى موسى « الكاظم » قال : حدثنى أبى جعفر « الصادق » قال : حدثنى أبى « الباقر » قال : حدثنى أبى زين العابدين ، قال : حدثنى أبى الحسين ، قال : حدثنى أبى على بن أبى طالب ، قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان » قال الإمام أحمد - رضى الله عنه - : لو قرىء هذا الإسناد على مجنون لبرىء من جنونه ! وقد قيل : إنه قرأه على مصروع فأفاق ! .

شؤم بيت :

أصيب ابن دريد بالفالج ، فكان إذا دخل عليه الداخل ضج وتألم لدخوله ، وإن لم يصل إليه !! ويقول تلميذه أبو على القالى : كنت أقول فى نفسى : إن الله - تعالى - عاقبه بقوله فى مقصورته - حين ذكر الدهر - :

مارست من لو هوتِ الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكا

لا يؤمن على ضرطة !!

بينما كان أبو الأسود الدؤلى يخاطب معاوية يوماً إذ خرجت منه ضرطة !! فضحك معاوية ! فقال أبو الأسود : يا أمير المؤمنين ، لا تخبر بها أحداً . فلما خرج من عنده دخل عليه عمرو بن العاص ، فأخبره بها ! فلما رآه عمرو ، قال : ضرطت بين يدى أمير المؤمنين ؟ فذهب أبو الأسود إلى معاوية ، فقال له : ألم أسألك ألا تخبر بها أحداً !؟ فقال : ما علم بها إلا عمرو ! فقال : إياه كنت أحذر ! ولكن فأنت لا تصلح للخلافة ! فقال : وكيف ذلك ؟ فقال : إذ لم تكن لك أمانة على ضرطة ، فكيف تؤمن على أموال المسلمين ودمائهم ! فضحك معاوية ووصله .

تعبير منامات :

أتى رجل إلى محمد بن سيرين ، فقال له : رأيت كأن ديكا دخل منزلى ، فالتقط حبات شعير كانت فيه . فقال له : إن سرق لك شىء فأخبرنى . فما كان إلا أيام

إذ أتى إليه الرجل ، فقال : سرق بساط من سطح منزلى ! فقال ابن سيرين : أخذه المؤذن ! وكان كذلك .

وقال رجل له : رأيت كأنى أخنق ديكا ! فقال له : أنت تجلد عُمَيرة ، وكان الرجل كذلك . وجلد عميرة : كناية عن الاستمناء باليد .

وقال له رجل : رأيت كأن ديكا تصيح بباب إنسان بهذا البيت :

قد كان من ربّ هذا البيت ماكان هيّو لصاحبه يا قوم أكفانا

فقال ابن سيرين : يموت صاحب الدار بعد أربعة وثلاثين يوماً ! وكان كذلك .

والأربعة والثلاثون عدد حروف الديك بالجمل ! .

وجاء إليه رجل ، فقال : رأيت كأن ديكا يقول : الله . الله . الله . فقال له : بقى من عمرك ثلاثة أيام . فكان كذلك عمره .

تقلب الأيام :

لما كان يحي البرمكى وابنه الفضل فى السجن ، سمعهما الموكل بهما يوماً يضحكان ضحكاً مفرطا ! فأعلم الرشيد بذلك ؛ فبعث مسرورا السياف يستعلم سبب ذلك . فجاءهما فسألهما وقال : يقول لكما أمير المؤمنين ، ماهذا الاستخفاف بغضبي ؟ فازدادا ضحكاً ! ثم انبرى يحي فقال : اشتهينا سِكْباجا ، فاحتلنا فى شراء القدر واللحم والخل وغير ذلك ! فلما فرغنا من طبخها وإحكامها ، جعل الفضل ينزلها فسقط قعر القدر ! فوقع الضحك والتعجب مما كنا فيه ، وما صرنا إليه ! فلما أعلم مسرور الرشيد بذلك ، بكى وأمر لهما كل يوم بمائدة ، وأذن لرجل ممن يأنس به أن يدخل عليهما كل يوم يتغدى معهما ، ويحدثهما وينصرف ! ولما مات يحي بلغ الرشيد وفاته ، فقال أمرى قريب من أمره ! فتوفى بعده بخمسة أشهر ! .

يستفيد من بكائه :

كان أبو البركات الأنماطى محدث بغداد ، وأحد حفاظ الحنابلة ، وفيه يقول ابن الجوزى : كنت أقرأ عليه الحديث ـ وهو يبكى ـ فاستفدت من بكائه أكثر من استفادتى بروايته .

النضر بن الحارث :

أنكر أبان بن عثمان : أن الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قتل النضر ابن الحارث فى يوم بدر صبرا ، وقال : أصابته جراحة فارتُث منها ، وكان شديد العداوة ، فقال : لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا ما دمت فى أيديهم ، فمات !! .
ومعنى ارتث - مبنى للمجهول - حمل من المعركة رثيثا : أى جريحاً وبه رمق .
وقد نقل محمد بن سلام عن أبيه : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقتل أحداً صبراً إلا عقبة بن أبى معيط يوم بدر .

الموت يحل الضغائن :

لما مات أبو الحسن عماد الدين الشافعى الطبرى ببغداد ، حضر دفنه الشريف أبو طالب الزينبى ، وقاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى مقدما الطائفة الحنفية ، - وقد كانت بينهما فى حال الحياة منافسة شديدة - فوقف أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال ابن الدامغانى :

وما تُغنِى النوادبُ والبواكى   وقد أصبحت مثل حديث أمس

وأنشد الزينبى :

عقم النساء فـلا يلدن شبيهه   إن النساءَ بمثله عُقم

دعاء داود :

عن أبى الدرداء : أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : كان من دعاء داود - عليه السلام - : اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك ، والعمل الذى يبلغنى حبك ! اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى ومن أهلى ، ومن الماء البارد ! .
قال : وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا ذكر داود - عليه السلام - يقول : « كان أعبد البشر » ! .

رقة الرسول وكرمه :

عن عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب ، قال : زَحمت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة ، فوطئت بها على رجله ، فنفحنى نفحة بسوط كان فى يده ، وقال : « باسم الله أوجعتنى » ! قال فبت لنفسى

لا ئما ؛ أقول : أوجعت رسول الله ! وقضيت ليلة كما يعلم الله ! . فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قال : فقلت : والله ، هذا الذى كان منى بالأمس ، وانطلقت وأنا متخوف ! فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى ، فنفحتك نفحة بالسوط ، وها هى ثمانون نعجة فخذها » .

عمر بن عبد العزيز :

سئل الإمام الباقر ـ رضى الله عنه ـ عن عمر بن عبد العزيز ـ رضوان الله عليه ـ فقال : أما علمت أن لكل قوم نجيبة ، وأن نجيبة بنى أمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده .

دعوة مباركة :

أعطى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عروة بن الجعد ، وقيل : ابن أبى الجعد البارقى ديناراً ، ليشترى به شاة ، فاشترى شاتين ، فباع إحداهما بدينار ، وجاء بشاة ودينار ، وذكر ما كان من أمره للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له : « بارك الله فى صفقة يمينك » فكان يخرج بعد ذلك إلى كناسة البصرة ، فيربح الربح العظيم ، حتى صار من أكثر أهل الكوفة مالا ! . ويقول شبيب بن غرقدة : رأيت فى دار عروة البارقى سبعين فرساً مربوطة للجهاد فى سبيل الله ! . وقد روى عروة البارقى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة عشر حديثاً ، وهو أول من قضى بالكوفة ، ولاه عليها الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قبل شريح .

بين كعب الأحبار وقومه :

جاء رجل إلى كعب الأحبار من اليمن ، فقال له : إن فلاناً الحبر اليهودى أرسلنى إليك برسالة ، فقال له كعب : هاتها ، فقال له الرجل : إنه يقول لك : ألم تكن فينا سيداً شريفاً مطاعاً ، فما الذى أخرجك من دينك إلى أمة محمد ؟ فقال له كعب : أتراك راجعاً إليه ؟ قال : نعم . قال : فإن رجعت إليه ، فخذ بطرف ثوبه لئلا يفر منك ، وقل له : يقول لك كعب : أسألك بالله الذى فلق البحر لموسى ، وأسألك بالله الذى ألقى الألواح إلى موسى فيها علم كل شىء ، ألست تجد فى كلمات الله ـ تعالى ـ

أن أمة محمد ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يدخلون الجنة بشفاعة أحمد . فإنه سيقول لك : نعم ، فقل له : يقول لك كعب : اجعلني في أي هذه الثلاثة شئت !.

مناقب أبي حنيفة :

كان أبو حنيفة - رضي الله عنه - إماما في القياس ، وقد داوم على صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة ، وكان يبكي في الفجر حتى يرحمه جيرانه ، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة ، ولم يفطر منذ ثلاثين سنة !.

نجابة أبي حنيفة :

دخل قتادة الكوفة ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : سلوا ماشئتم ! وكان أبو حنيفة حاضرا - وهو يومئذ غلام حدث - فقال : سلوه عن نملة سليمان ؛ أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم ! فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : كيف عرفت ذلك ؟ فقال من قوله - تعالى - : « قالت نملة » ، ولو كانت ذكراً ، لقال : قال نملة ؛ لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ، فالتاء للوحدة لا للتأنيث .

علم الأوزاعي :

كان الأوزاعي فقيه الشام ، كما كان الشعبي فقيه العراق .
وقد قيل : إن الأوزاعي أجاب في سبعين ألف مسألة .

مسألة فقهية :

لو اصطاد سمكة ، فوجد في بطنها درة مثقوبة ، فهي لقطة ، وإن كانت غير مثقوبة ، فهي له مع السمكة . ولو اشترى سمكة ، فوجد في بطنها درة غير مثقوبة فهي له ، وإن كانت مثقوبة فهي للبائع إن أدعاها . والأشبه أن يقال : إن الدرة تكون لمن اصطاد السمكة ، كما في الكنز الذي يوجد في الأرض ، فإنه لمحيي الأرض .

الإحالة على القدر :

قال الحسن البصري - رضي الله عنه - لما بلغه قول الحجاج بعد قتله لسعيد

ابن جبير : الله قتله : لعن الله قوماً باتوا وأقلامهم تجرى بدماء المسلمين وأموالهم ، ويقولون : إنما تجرى بأقلام الله ، وكذبوا ؛ لأن أقلام الله تجرى بالبر والتقوى ، وأقلامهم تجرى بالإثم والعدوان ، فإن كذبوا وزعموا أن الله قد أسر عندهم كتاباً نهاهم عنه فى العلانية ، لقد اغتشوا ربهم واتهموه ، وقالوا عنه قولا عظيما !.

وقال محمد بن سيرين لرجل : كيف جارك النصرانى ؟ فقال : كما شاء الله !. فقال له : قل : كما علم الله ، إن الله لا يشاء المعاصى !.

وأتى عمر - رضى الله عنه - بسارق ، فقال له : ما حملك على ذلك ؟ قال : قضاء الله ، فقطع يده ، وقال : هذه للسرقة ، وجلده وقال : هذه لكذبك على الله .

أقول : إن من علل تأخر المسلمين فى القرون الوسطى ، جهلهم حقيقة القضاء والقدر ، وعدم معرفتهم معنى التوكل ، فاستحبوا النوم ، وركنوا إلى الخمول ، وتركوا الأسباب ، فركبتهم الأمم الناهضة ، وساطتهم بسوط القهر ، إلى سوء المصير ، ورحم الله الشاعر القديم حيث يقول :

إذا عُيِّروا قالوا مقادير قُدِّرت ... وما العار إلا ما تجر المقادر

الحسرة على هرم العلماء :

ورد رجل من أهل المغرب على ابن شداد الفقيه الشافعى - وكان الكبر والضعف قد بلغا منه مبلغهما - فقال :

لو يعلم الناس ما فى أنْ تعيش لهم ... بكوا لأنك من ثوب الصبا عارى

ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم ... لما فدَوْك بشىء غير أعمار

يموت الصائد وصيده:

رمى رجل ظبياً فأقصده ، فذهب ليأخذه فإذا هو قد أنفذه حتى نجم السهم من جانبه ، وحدث أن عثر الصائد فتلقى بفؤاده ظُبة السهم ، فإذا هو والظبى ميتان . وأقصده : لم يخطىء مقاتله .

كتائب النعمان :

كان للنعمان ابن المنذر اللخمى خمس كتائب :

١ ـ الوضائع ، وهم قوم من الفرس ،كان كسرى يضعهم عنده عُدة ومددا ، فيقيمون سنة عند الملك من ملوك المناذرة ، فإذا كان رأس الحول ردهم إلى أهليهم وبعث بمثلهم .

٢ ـ الشهباء ، وهى كتيبة من أهل بيت الملك من المناذرة ، وكانوا بيض الوجوه ، يسمون الأشاهب .

٣ ـ الصنائع ، وهم صنائع الملك ، أكثرهم من بكر بن وائل .

٤ ـ الرهائن ، وهم قوم كان يأخذهم من كل قبيلة ، فيكونون رهناً عنده ، ثم يوضع مكانهم مثلهم فى رأس الحول .

٥ ـ دَوْكر ، وهى كتيبة ثقيلة تجمع فرساناً وشجعاناً من كل قبيلة .

التيجان لليمن :

حدث التَّوزى عن أبى عبيدة ؛ قال : ما تتوج مَعَدِّى قط ، وإنما كانت التيجان لليمن ، قال : فسألته عن قول الأعشى :

مَنْ يرَ هَوذَة يسجد غير مُتَّئب[1] إذا تعمَّم فوق التاج أو وَضعا

وهوذة من بنى حنيفة من معد لا من اليمن . فقال : إنما كانت خرزات نظمن له . وقد كتب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى هوذة كما كتب إلى الملوك .

ما كان يعجب الرسول :

كان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر ، والأُتْرُجّ ، والخضرة ، وكان فى منزله ـ صلوات الله عليه ـ حمام أحمر يقال له : وردان .

أربعة لم يلحقوا ولم يسبقوا :

قيل : أربعة لم يُلحقوا ولم يُسبقوا : أبو حنيفة فى فقهه ، والخليل فى أدبه ، والجاحظ فى تأليفه ، وأبو تمام فى شعره .

وقد ضرب المثل بفقه أبى حنيفة ، كما قال بعض الرُّجاز للمأمون :

مأمون يا ذا المنن الشريفة والعلم والمنزلة المنيفة
هل لك فى أرجوزة ظريفة أظرف من فقه أبى حنيفة

(١) المتئب : المستخزى المستحى .

نوع من الربا :

باع معاوية أوانى ذهب وفضة بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ينهى عن ذلك ، فقال معاوية : أما أنا فلا أرى به بأسا ، فقال أبو الدرداء : من عذيرى من معاوية ؟ أخبره عن الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو يخبرنى عن رأيه ، والله لا أساكنك بأرض أبداً !.

الخاتم النبوى :

كان خاتم الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حلقة فضة عليها فص عقيق ، وسبب اتخاذه : أنه كتب إلى ملك الروم ، فقيل له : إنه لا يقبل إلا كتابا مختوما ، فاتخذه حينئذ . وكان يتختم به في خنصر اليمنى تكريماً لها ، ويجعل فصه إلى الداخل لعدم المباهاة ، ولا يمنع التختم فى اليد اليسرى وجعل الفص إلى الخارج ، وإن كان خلاف الأولى . وأول من تختم فى يساره معاوية .

ويقول بعض الشعراء فى التختم باليمين ، ناعياً على من تختم فى اليسرى :

قالوا تختم فى اليمين وإنما ... مارست ذاك تشبهاً بالصادق
وتقرباً منى لآل محمـــد ... وتباعداً منى لكل منافق
الماسحين فروجهم بخواتم ... اسم النبى بهن ، واسم الخالق

حب الرشيد للعلم :

قال الأصمعى : دخلت على الرشيد ـ ومجلسه حافل ـ فقال : يا أصمعى ، ما أغفلك عنا ، وأجفاك لحضرتنا ! فقلت : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما لاقتنى بلاد بعدك حتى أتيتك ، فأمرنى بالجلوس ، فجلست وسكت عنى ، فلما تفرق الناس إلا أقلهم نهضت للقيام ، فأشار على أن اجلس ، فجلست حتى خلا المجلس ، ولم يبق غيرى ومن يدنيه من الغلمان . فقال : يا أبا سعيد ، ما معنى قولك : ما لاقتنى بلاد بعدك ؟ . قلت : ما أمسكتنى يا أمير المؤمنين ، وأنشدت قول الشاعر :

كفَّاك كفٌ ما تَليق دِرهما ... جُوداً وأخرى تقطر السيف دما

أى ما تمسك درهما . فقال : هذا أحسن ، وهكذا فكن ، وقرْنا فى الملا ، وعلِّمنا فى الخلا ، فإنه يقبح بالسلطان ألا يكون عالما ، إما أن أسكت فيعلم الناس

أنى لا أفهم إذا لم أجب ، وإما أن أجيب بغير الجواب ، فيعلم من حولى أنى لم أفهم !.
قال الأصمعي : فعلمني أكثر مما علمته !.

أول تهمة من نوعها فى الإسلام :

روى الجمحى فى طبقات الشعراء : أن ضابىء بن الحارث الشاعر ، كان بذيئا كثير الشر ، وكان صاحب صيد وخيل بالمدينة ، وكان له فرس اسمه « قيّار » وفيه يقول البيت المشهور :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب

وقد كان استعار كلبا من قوم من بنى نهشل ، اسمه « قرحان » فحبس الكلب عنده حولا ، ثم جاءوا يطلبون كلبهم ، وألحوا عليه حتى أخذوه منه ، فهجاهم ، ورمى أمهم بالكلب فى هذه الأبيات :

تجشمتمو نحوى وقرحان شقة تظل بها الوَجناءُ وهى حسير

فزودتهم كلباً فراحوا كأنما حباهم بتاج المرزبان أمير

فأمكم لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الوالدات كبير

إذا عاينت من آخر الليل دُخْنة يَبيت لها فوق السرير هرير

فاستعدوا عليه عثمان ـ رضى الله عنه ـ فقال له : ويلك ، ما سمعت أحداً رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرك ، وإنى لأراك لو كنت على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأنزل الله فيك قرآنا ، ولو كان أحد قبلى قطع لسان شاعر فى هجاء لقطعت لسانك ، ثم حبسه فى السجن ، فعرض يوماً المسجونين ، فإذا هو قد أعد حديدة يريد أن يغتال بها عثمان ، فأهانه وركسه فى السجن ، ولم يزل مسجونا حتى مات . فلما قتل عثمان ـ رضى الله عنه ـ وثب عُمَير ابنه عليه ، فكسر صلبه أو ضلعه انتقاماً لأبيه .

ويعلق الجاحظ على ذلك فى كتابه « الحيوان » بقوله : ولولا أن المعنى الذى رماهم به كان مما يكون ويجوز ويُخاف مثله ، لما بلغ منه عثمان ما بلغ .

وأقول مما لا ريب فيه : أن الشاعر كان مفتريا خبيثا ، ولكن المعنى الذى

أفصح عنه الجاحظ وجوز وقوعه ، أصبح الآن واقعا ، فقد حدثنى الثقة الخبير أن العوانس من بنات الفرنجة يتخذن من الكلاب أخدانا ، وقص على قصة شاهدها بنفسه ، وهى : أنه فى أحد المطارات أرادت فتاة غربية أن تصحب معها كلبها فى الطائرة ، فحالوا دون ذلك ، فأخذت تبكى وتضرع محتجة بأن هذا الكلب زوج لها ، فسمحوا لها بمصاحبته ! ولا حول ولا قوة إلا بالله .

بشارة بالرسول :

فى كتاب خير البِشَر بخير البشَر للإمام محمد بن ظفر : أنه كان على باب من أبواب الإسكندرية صورة جمل من نحاس ، عليه راكب من نحاس فى هيئة العربى ، متزر ، مرتد ، وعليه عمامة ، وفى رجليه نعلان ، كل ذلك من نحاس .

وكانوا إذا تظالموا يقول المظلوم للظالم : اعطنى حقى قبل أن يخرج هذا ؛ فيأخذ بحقى منك شئت أم أبيت !

ولم يزل الصنم على ذلك حتى فتحت مصر ، فغيَّبوا الصنم .

قال ابن المظفر : وفى ذلك إشارة إلى البشارة بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

حب الثناء :

كلِف الناس بالثناء فـلا يو ... جد فيهم مَن لا يحب الثناء
فإذا سمعت من قال : إيها ... عن مديحى ، فقد أتى الافتراء [1]
هو يُبدِى تواضعاً فوق كِبرٍ ... وامتناعا يبغى به الإغـراء
لتُطيل الثناءَ فيـه كما يَهْوَى ... وتشدو بمدحه كيف شاء
كالفتاة اللعوب يُغرى بها الدّلُّ ... هَواها ، فتُظهر البغضاء
نَسلُ « حواء » ليتَها ثكلتهم ... ألِفوا الإفكَ واستحبُّوا الرِّياء
وسَواءٌ فى الشر ـ والشر محبو ... بٌ ، ولكن فى الخير ليسوا سواء

(١) إيها عن كذا : اكفف وأبعد .

مسئولية الفرد عن عمل غير مقصود

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

أقر هذا النوع من المسئولية عدد كبير من شرائع الأمم المتحضرة فى مختلف العصور ، وخاصة قدماء العبريين والصينيين واليونان والرومان ، وأقرته الشريعة الإسلامية نفسها ، ولكن يلاحظ أن هذه الشرائع جميعاً لا تأخذ بهذا النوع من المسئولية إلا فى الجرائم الخطيرة ، وخاصة جرائم القتل ، وترمى من وراء ذلك إلى إظهار حرصها على احترام الحياة وحماية الأنفس ، وعلى زجر الناس وتخويفهم من عواقب الاستهانة والإهمال فى هذه الشئون ، وحملهم على اتخاذ منتهى الحيطة والحذر فى صددها .

* * *

فمع أن شريعة اليهود تقر أن الفرد لا يسأل عما يصدر عن غير قصد منه فإنها تخرج عن هذه القاعدة فى بعض الجرائم الخطيرة ، فمن ذلك ما تذهب إليه بصدد القتل الخطأ ، وهو مايحدث عن غير قصد ، ولا ينطوى على شبهة قصد ولا إهمال ، وقد ضرب له سفر « التثنية » مثالا بصديقين ذهبا يحتطبان ، فهوى أحدهما بفأسه على شجرة ليجتثها فأفلتت حديدة الفأس من مقبضها الخشبي وأصابت الآخر فقتلته [١] ، وذلك أن الشريعة اليهودية توجب على القاتل فى مثل هذه الحالة أن يلجأ من فوره إلى بلد حرام ليحتمى به حتى لا يناله أذى من أولياء الدم [٢] . وتصرح نصوص أخرى ورد فيها هذا الحكم أن القاتل إذا لم يلجأ إلى بلد حرام ، أو خرج منه قبل انقضاء مدة معينة ، جاز لأولياء الدم قتله ، ويذهب فى هذه الحالة دمه هدرا [٣] ،

---

(١) إصحاح ١١ ، فقرة ٥ من سفر التثنية .

(٢) إصحاح ١١ ، فقرات ١ – ١١ من سفر التثنية .

(٣) إصحاح ٣٠ ، فقرات ٢٢ – ٢٩ من سفر التثنية .

وغنى عن البيان أن القضاء عليه بالبقاء فى بلد حرام وإحلال دمه فى حالة عدم التجائه إليه أو فى حالة خروجه منه قبل مدة معينة ، ينطويان على عقوبتين صريحتين : إحداهما عقوبة عاجلة بالنفى مدة ما فى بلد خاص ؛ وثانيهما عقوبة تهديدية متوقعة فى حالة عدم الإذعان للعقوبة الأولى . وفى هذا إقرار صريح لمسئولية الفرد عن عمل صدر عن غير قصد منه .

* * *

وتقرر الشريعة الصينية القديمة هذه المسئولية فى طائفتين من الجرائم : إحداهما انتهاك حرمة الأشياء المقدسة ؛ والأخرى بعض حوادث القتل والجروح ، فتوقع هذه الشريعة عقوبات تتردد بين الإعدام والجلد والنفى ، أو تجمع بين أكثر من نوع منها فى جرائم الاعتداء على حرمة الأشياء المقدسة ، سواء أحدث هذا الاعتداء عن قصد أم عن غير قصد ؛ وإن كانت العقوبة فى العمل غير المقصود أخف من عقوبة العمل المقصود . وتوقع كذلك عقوبات كثيرة فى حوادث القتل والجروح التى تصدر عن غير قصد ، فتوقع عقوبتى الجلد والنفى (مائة جلدة والنفى إلى مكان يبعد ثلاثة آلاف « ليا ») على الولد الذى يقتل خطأ أحد أبويه أو أجداده ، وعلى العبد الذى يقتل سيده خطأ ؛ وعقوبتى الجلد والحبس (مائة جلدة وحبس ثلاث سنين مع الأشغال الشاقة) على الولد الذى يجرح خطأ أحد أبويه ؛ وعقوبة مالية تتمثل فى دية تدفع إلى الأسرة الموتورة فى جميع جرائم القتل الخطأ التى تقع على غير الآباء والأجداد والأسياد ، ويعلق الشرح الرسمى على المواد المتعلقة بالآباء بقوله : « إن كل ما يحدث من الأولاد نحو آبائهم يجب أن يكون محاطا بسياج من الإجلال والتبجيل ، ولا يصح أن يكون فى ذلك خطأ أو مصادفة » .

* * *

وتعاقب الشرائع اليونانية القديمة على كثير من أنواع القتل الخطأ ، وبخاصة ما كان ناجما منها عن إهمال ، فقد ورد فى قصائد هوميروس أن القتل الخطأ كان يحكم على مقترفه بالقتل أو بالنفى إلى بلد بعيد عن بلده ، وعلى هذا السنن كانت تجرى نظم أثينا فى عصورها التاريخية ، فالقتل الخطأ كان يؤدى إلى نفى القاتل إلى

بلد بعيد عن بلده لمدة معينة ، ويوجب عليه بعد عودته إلى بلده بعض طقوس دينية للتكفير عن خطيئته ، ويظهر أن الأثينيين كانوا جد حريصين على تطبيق شرائعهم بهذا الصدد ؛ حتى لقد أنشئوا محاكم خاصة للفصل فى هذا النوع من الجرائم وتوقيع عقوباته .

* * *

وفى جميع مراحل الشريعة الرومانية توجد آثار كثيرة لهذا النوع من المسئولية فالقوانين المنسوبة لنومابومبيليوس (وهى السابقة لعصورهم التاريخية) وشرائع الألواح الإثنى عشرية (وهى أساس التشريع عند الرومان فى عصورهم التاريخية) توجب فى القتل الخطأ دية تدفع إلى عصبة القتيل ، وتقرر كذلك شريعة الألواح الاثنى عشرية أنواعا من الأرش (وهو التعويض الذى يدفع للاعتداء على ما دون النفس) تدفع فى حالات الاعتداء على أعضاء الجسم ، وفى حالات الجروح بدون تفرقة بين أن يكون ذلك قد حدث عن قصد أو عن غير قصد .

* * *

ومع أن الشريعة الإسلامية تقرر أن الفرد لا يعاقب إلا على ما يحدثه عن قصد وإرادة ، وأنه « قد رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] ، فإنها تخرج عن هذه القاعدة بصدد بعض الجرائم الخطيرة وخاصة القتل ، وذلك أنها تعاقب على نوعين من القتل غير المقصود : أحدهما ما يسميه الفقهاء : « بالقتل الخطأ » والآخر مايسمونه : « بالقتل الشبيه بالخطأ » أو « الذى هو فى معنى الخطأ »[2].

أما القتل الخطأ فهو القتل غير المقصود الذى ينجم بطريق مباشر عن عمل مقصود ، كأن يرمى شخص هدفا أو صيدا فينحرف السهم فيصيب إنسانا فيقتله ، أو كأن يرمى شيئا يظنه صيدا فإذا هو آدمى ، وهذا النوع من القتل تقع فيه بحسب الشريعة الإسلامية على القاتل مسئولية خطيرة تتمثل أحيانا فى دية وكفارة معا ، وأحيانا فى دية فقط حسب التفصيلات الموضحة فى كتب الفقه الإسلامى ، والدية

(١) نص الحديث الشريف : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

(٢) جميع ما نذكره فى تفاصيل هذين النوعين مأخوذ من مذهب أبى حنيفة .

عوض مالى محدد المقدار يسلم إلى أهل القتيل ، ويجب مبدئيا على القاتل ، ولكن تحتمله عنه فى معظم الأحوال « عاقلته » التى تتألف من أقربائه من ناحية الذكور ، وأما الكفارة فيحتملها دائما القاتل وحده ، وهى تتمثل فى تحرير رقبة مؤمنة ، أى عتق رقيق مؤمن ، أو صيام شهرين متتابعين عند عدم ملكية الرقيق ، وعدم القدرة المالية على شرائه ، ويحرم القاتل كذلك فى معظم أنواع القتل الخطأ من ميراث القتيل ، ومن وصيته إن كان مستحقا لأحدهما ، كما يحرم من ذلك مرتكب القتل عمدا ، والأصل فى ذلك قوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مُسلمة إلى أهله إلا أن يَصَّدَّقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ؛ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » وفى قوله تعالى : « توبة من الله » إشارة إلى أن القتل الخطأ جرم يوجب على مقترفه التوبة ، وقد علل الفقهاء هذه الأحكام بما لا يدع مجالا للشك فى أنهم ينظرون إلى القتل الخطأ نظرتهم إلى جرم يستأهل العقاب ، وإليك مثالا ما يقوله ملك العلماء الكاسانى فى كتابه « بدائع الصنائع » فى تبرير الكفارة الواجبة فى هذا القتل : « لأن فعل الخطأ جناية ، فلا بد لها من التكفير والتوبة ، فجعل تحرير العبد فى القتل الخطأ بمنزلة التوبة الحقيقية فى غيره من الجنايات . . . » ويقول فى تبرير حرمان القاتل من ميراث القتيل ووصيته إن كان مستحقاً لأحدهما : « لأنه وجد القتل مباشرة بدون حق . . . ولأن قتل الخطأ جناية جائز المؤاخذة عليها . . . » [1] ، وإليك مثالا آخر ما يذكره صاحب كتاب « الهداية » فى تبرير الجزاءات المترتبة على القتل الخطأ إذ يقول : « إن القتل الخطأ فى نفسه لا يعرى عن الإثم من حيث ترك العزيمة والمبالغة فى التثبت فى حالة الرمى إذ شرع الكفارة يؤذن باعتبار هذا المعنى ، ويحرم من الميراث لأن فيه إثما ، فيصح تعليق الحرمان به » [2] .

(١) البدائع : الجزء السابع ص ٢٥٢ .

(٢) انظر كتاب الهداية وكتاب الميدانى على القدورى فى باب القتل الخطأ .

وأما القتل الشبيه بالخطأ فله ثلاثة أنواع :

أحدها : ما يصفه الفقهاء بأنه شبيه بالخطأ من جميع الوجوه ، وهو الذى ينشأ فى صورة مباشرة عن عمل لم يحدث عن قصد : كأن ينقلب النائم على إنسان فيقتله ، أو يسقط إنسان من مسطح على قاعد فيميته ، أو يسير فى الطريق راكب دابة فتجمح فتطأ إنساناً فتقتله ، أو تختل عجلة القيادة أو « الفرامل » فى السيارة فتنحرف فتصدم إنساناً فيلقى حتفه . وعلى هذا النوع تترتب جميع النتائج المترتبة على القتل الخطأ من وجوب الدية والكفارة وحرمان القاتل من ميراث المقتول ومن وصيته إن كان مستحقا لأحدهما .

وثانيها : ما يصفه الفقهاء بأنه شبيه بالخطأ من بعض الوجوه ، وهو القتل غير المقصود الذى ينجم فى صورة غير مباشرة عن عمل غير مشروع : كأن يحفر شخص بئراً فى الطريق العام فيتردى فيها شخص فيهلك ، وهذا النوع تجب فيه الدية فقط دون الكفارة ، ويسمى هذا النوع كذلك القتل بالتسبب .

وثالثها : أن يهلك شخص نتيجة لعمل جماعى إيجابى غير مقصود به الإيذاء ، أو نتيجة لعمل جماعى سلبى يتمثل فى تقصير الجماعة فى أداء بعض الواجبات ، ومثال الهلاك الناشىء عن عمل جماعى إيجابى غير مقصود به الإيذاء أن يموت شخص فى الزحام نتيجة لضغط الجماهير عليه ، فقد ذهبت طائفة من فقهاء المسلمين إلى وجوب ديته على جميع من حضر [1] ، ومثال الهلاك الناشىء عن عمل سلبى يتمثل فى تقصير الجماعة فى أداء بعض واجباتها أن يموت إنسان جوعا فى بلد إسلامى ، فقد ذهبت طائفة من فقهاء المسلمين على رأسها العلامة ابن حزم إلى مسئولية هذا البلد عما نجم عن تقصيرهم فى شئون التكافل الاجتماعى ، فيؤدى أهل هذا البلد جميعا الدية متضامنين إلى أسرته كأنهم شركاء فى موته ؟

(١) انظر صحيح البخارى فى باب « إذا مات أحد فى الزحام » وانظر كذلك ما ذكره السندى فى تعليقه على الحديث الوارد فى هذا الباب ، وهو الخاص بموت اليمان (والد حذيفة ابن اليمان) يوم غزوة أحد . ويرى الشافعى وجوب ديته على من يدعى عليه ولى الدم ويحلف أنه هو الذى تسبب فى موته .

تعريف بالقرآن

للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء
ترجمة الأستاذ الكبير أحمد محمد بريرى

— ٣ —

فمن ناحية هذه « المباحث » ليست فى مهدها فى عالم المسلمين ، يشهد بذلك كثير من المؤلفات العربية التى يرجع إليها المؤلف نفسه فى هذا الصدد ، لا المؤلفات الخاصة فى الإملاء والصوتيات والتلاوات القرآنية فحسب ، بل أيضا التفسيرات وكتب فقه اللغة ومصطلح الحديث والفقه ، وكلها تزخر بهذا البحث .

ومن ناحية أخرى : هذه التلاوات الخاصة فى هذا الحيز الواسع بعيداً عن أن يلحقها ضغط من جانب « السلفية » ، « الأرثوذكسية » ، بل تمتاز بطابع قدسى ، وهى ما تزال تدرس فى المذاهب السنية ، لا بوصفها قرآنا ، بل بوصفها أحاديث آحاد .

وعلى الرغم من هذه الشواهد فإن صورة التاريخ الكهنوتى المسيحى التى لا شك أن المبشر الانجليزى أكثر ألفة لها يبدو أنها ألحت على الكاتب إلى حد أنها انتقلت معه تقريباً بكمالها ، لجرى بها قلمه فى المحيط الإسلامى ، فالمؤلف يحاول فى الواقع أن يقيم بالقياس إلى النص القرآنى شيئاً من التطور يشبه فى كثير من مظاهره تطور نص الإنجيل ، فيبدأ بتفرقة فى نصوص القرآن تثير الدهشة بين « قطع تعبدية » كتبت على الراجح عند نزول الوحى ، وبين قطع أخرى ليست كذلك (ص ٦) ويؤكد ـ مناقضاً نفسه على كل حال ـ أن التنزيل عند وفاة النبى لم يكن جمع (قارن بين ص ٥ وص ٧) ثم ينكر ـ لاعباً بالألفاظ ـ الصفة الرسمية لجمع أبى بكر (قارن بين ص ٦ ، ص ٢١٢) ويرجح أخيراً أنه حين قرار عثمان كانت هناك خلافات كثيرة بين مجموعات العواصم الرئيسية المختلفة (ص ٨) ويكتب : أن

مصلى الكوفة حينذاك كانوا منقسمين إلى طائفتين ، قبل بعضهم النص الجديد الذى أرسله عثمان ، ولكن الأغلبية أيدت نص ابن مسعود (ص ٨ ، ٩) وكذلك يقدم لنا نص عثمان لا على أنه واحد من جملة نصوص متعارضة فحسب (ص ٩ - ٢٣) بل على أنه نص جديد يعارض المجموعات القديمة والتلاوة على عهد الرسول ، وإنه إنما فرض نفسه فى النهاية لا لامتيازات ذاتية داخلية ، بل بفضل نفوذ مدينة الرسول (ص ٨) .

هذا النهج فى عرض تاريخ النص القرآنى يحتوى ضلالات خطيرة ، وتتطلب توضيحا شافيا يضع الأمور فى نصابها .

فلنذكر أولا : بأن مجموع عثمانى ليس له صفة القدم فحسب ، بل إن الوحدة بينه وبين مجموع أبى بكر تامة [1] ، وأن الدراسات المسيحية الحديثة لتقر تلك النتيجة ، يقرر « شوالى » ما يلى : « لقد أقمنا فيما سبق الدليل على أن نسختى زيد متفقتان ، وأن مصحف عثمان ليس إلا نسخة من مجموع حفصة » ولا ننسى من ناحية أخرى أن جميع مواد هذا الأخير لا يرجع تاريخها إلى الخليفة الأول فحسب ، بل يرجع بتمام النص إلى الرسول ، والحق أن كل التلاوات مكتوبة أو شفوية سواء فى أنها تنتمى إلى مصدر واحد ، بل يمكن أن تكون بعض التلاوات المختلفة عن النص العثمانى أسبق تاريخا ، مما هو ثابت فى مجموع عثمان ، على أن هذا وذاك يجب أن يتصل بعهد ما من حياة الرسول ، ولكن يجب أن يلاحظ أن تلك الأسبقية النسبية لا يمكن أن تكون معيار ترجيح ، فإن النص الأتم صحة ليس ضرورة الأكثر قدما ، بل عساه أن يكون الذى نال لمسة اليد الأخيرة ، وأن تعبير « الحرف الأول » فى مصطلح الصحابة مطبقا على التلاوة خارج النص ، لا تعنى التلاوة على عهد الرسول عامة ، بل تعنى التلاوة الأقدم فى ذلك العهد . . يعنى : الملغاة ـ المنسوخة ـ وكذلك ينهار الأساس الذى أرادوا أن يقيموا عليه قيمة هذا النوع من التلاوات ، ولنغض النظر عن تلك الاختلافات التاريخية ، فإن أهم شرط

---

(١) البخارى : كتاب فضائل القرآن ص ٣ ، وداود ص ٢٣ .

جوهرى لتأسيس صحة نص إنما هو التأكد من أنه فى صورته المكتوبة قد حققه ووافق عليه بما فيه الكفاية المؤلف أو ممثله ، والذى حدث على وجه الدقة هو أن بعض التلاوات التى لم تتوافر لها جملة هذه الشروط أيام الجمع ، فلم تقبل فى المجموع الرسمى أو المصحف العام .

أكثر من هذا زيادة على انهيار الأساس الذى لا علاج له فيما يتعلق بتلك التلاوات أضيف صنف جديد فى نقلها اللاحق ، فإن ناشر كتاب المصاحف نفسه يصرح بأنه أدهشه هذا اللبس الذى يحيط بالتلاوات غير العثمانية من ثلاث وجهات :

(١) من حيث قدمها فقد يشتبه لنا أحياناً أن ثم وضعاً لاحقاً أريد به الاتصال بذى سلطان قديم كما يستفاد من نفوذ اسمه (ص ١٥) .

(٢) من حيث تحديد مصدرها فثم أحوال يبدو التخليط فى نسبتها إلى مصادرها (المرجع نفسه) .

(٣) من حيث تعيين صورتها ، فليست الصعوبة فى أن ثم تلاوات متعددة منسوبة إلى قارىء واحد ، ولا يدرى أيتها الصحيحة [١] فحسب ، بل ثم أحوال تبدو التلاوة فيها مستحيلة لغة (ص ١٦) ،

فوق هذا يعترف مستشرقنا أن التلاوات غير العثمانية قلما تنسب إلى أصحابها بوصف كونها مكتوبة فى مصاحفهم ، بل فى الغالب بوصف كونها سمعت منهم تلاوة شفهية (ص ٢٤) ولكن مع هذا حينما يجمعها فحريته كاملة فى أن يضمها جميعا تحت عنوان « مجموع » بل أنه لا يكتفى بجمعها ـ ليكبر من حجمها ويزيد من قيمتها التعارضية ـ مضيفا إليها التلاوات التى لا تختلف عن المجموعة الرسمية ، ولكنه يضيف أيضا لحساب هذا المؤلف أو ذاك تلاوات تنتمى لا إلى القارىء نفسه بل إلى أحد تلاميذه فقط .

ولكن بعد كل هذا مم تتألف تلك التلاوات غير الرسمية وما قيمتها ؟ .

نلاحظ أولا أنها لا تنصب على كل السور ، ولا على أية سورة بتمامها ، فإذا نظرنا فى طبيعتها أمكن أن نميز منها أنواعا مختلفة .

---

(١) نقلا المجموع المزعوم لابن مسعود ، فى هذا ابن إسحاق .

فنى طائفة أولى ، يتضح الاهتمام : إما بشرح كلمة مفهومة ضمنا نحو « وإسماعيل يقولان ٢ - ١٢٧ » ، « فنادته للملائكة يا زكريا ٣ - ٣٩ » ، « إلى قومه فقال ياقوم ١١ ، ٢٥ » وإما بتكرار كلمة سبق ذكرها نحو : « عن قتال ، وعلى الصلاة ، وآمن المؤمنون ٢ - ١٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٨٥ » وإما لبسط المعنى نفسه بإضافة عبارة ثبيتة نحو : فضلا من ربكم فى مواسم الحج فابتغوا حينئذ (٢ ، ١٩٨) والعصر ونوائب الدهر .. بى خسر وإنه لفيه إلى آخر العمر (١٠٣ - ١ ، ٢) ويلاحظ بوضوح فى كل هـذا أنه عمل محش يبعد عن صفاء الأسلوب القرآنى مرهقا النص بإسهاب أحيانا لا يكاد يحتمل .

وفى طائفـة ثانية تتلخص التلاوة فى أن يستبدل بكلمة كلمة أخرى ، إما مرادفة نحو : يكمل : يتم ، ويوفه : يؤده ، دره : نملة ، الصوف : العهن .

وإما كلمة أخرى ذات معنى مختلف ، إلا أن الكلمتين تتكاملان وكل منهما تتضمن الأخرى على التبادل مثلا : الحج والعمرة للبيت ، بدل : الحج والعمرة لله (٢ - ١٩٦) .

وفى طائفة ثالثة تتلخص المسألة فى مجرد القلب ، نحو : فى ظلل من الغمام والملائكة : والملائكة فى ظلل من الغمام (٢ - ٢١٠) .

بما تعملون بصير : بصير بما تعملون (٣ - ١٥٦) .

على قلب كل : على كل قلب (٤٠ - ٣٥) .

وفى النادر يعمد إلى إهمال كلمة : نحو : بما آمنتم ، بمثل ما آمنتم (٢ - ١٣٧) .

إلا الساعة أن تأتيهم : إلا الساعة تأتيهم (٤٧ - ١٨) .

وفيما يتعلق بالطوائف الثلاث الأخيرة ، ودون تعرض القيمة الأدبية المتقابلة فى مختلف القراءات ، يمكن القول مبدئيا أنه ممكن أن تكون إزاء تلاوات حقيقية مختلفة كلها مقبول على شرط إثبات أصلها التاريخى ، على أنك مع هذا مغرى أن تفترض فى بعض عبارات القراءات غير الرسمية شيئا من التوفيق الطارىء على النص فيما بعد ، فى حين أن النص الرسمى يمتاز بأنه يمضى قدما ، بغض النظر عن وجهات

النظر الخاصة، سواء أكانت من النوع الديني نحو : بمثل ما آمنتم، يأتيهم الله في ظلل، أم من النوع السياسي، نحو : من المهاجرين والأنصار والذين (٩ - ١٠٠) وليس والأنصار الذين كما كان يعتقد عمر، أم من النوع اللغوي، نحو : أن هذان لساحران، أم من أي نوع آخر ، وإنما لنرى أن هم أصحاب الرسول الوحيد حين أثبتوا نص القرآن إنما كان انطباق كل قطعة انطباقا أمينا حرفيا على النص الذى أملاه الرسول وتلى عليه وأقره إقرارا نهائيا، فهذه الموضوعية التامة المطلقة باقية أبد الدهر شرفا لهم

ومع هذا فالثرثرة ما تنفك تبدى وتعيد فى مسألة ابن مسعود وغيره من أصحاب المجموعات كأن شيئا كهذا يمكن أن ينال من إجماع الصحابة على المصحف العثماني، والحقيقة أن أحدا منهم لم ينازع في صحة المصحف الرسمى ، إلا أن ثم قراءات أخر يؤكد أصحابها أن الرسول أجازها دون أن يقدموا دليلا موضوعيا على تلك الإجازة وهم قد أصروا على الاحتفاظ بها لا كمساوية للمصحف الرسمي المجمع عليه أو قائمة مقامه ولكن لتبقى معه . . فكذلك نرى أبا موسى مثلا يوصى ذويه أن يحتفظوا بمجموعه ويكملوه من المصحف العثماني[1] ، وحين جاء الغاضبون إلى ابن مسعود فإنه لم يزد على أن يقول لهم أن كل التلاوات الموصى بها المجازة كلها صحيحة[2]، وهذا الغضب - إذا كان ثم غضب - له سبب مزدوج : فهذا الصحابي الجليل الذى هو من السابقين الأولين يحرم أن يكون عضوا في لجنة الجمع ، ثم يلزم فيما بعد أن يسلم بمجموعه ليعدم ، ولكن رد الفعل التلقائي لم يقاوم التفكير طويلا ، فابن مسعود كان غائبا يؤدى عمله الرسمي في العراق منذ أمد بعيد قبل الجمع ، ولم يكن معقولا أن عملا عاجلا كهذا يجب أن يقف انتظار حضوره الذى لم يكن له ميعاد، فى حين أن كثيرا غيره من الصحابة يملكون كما يملك وأكثر مما يملك مجموعات دقيقة أجازها الرسول ، أما نسخته التي ضمنها بعض الدروس الخاصة أو التلاوات التى لم يقم عليها إجماع، فلقد كان حظها كحظ غيرها من مثيلاتها[3] بمعنى أن تفقد الطابع الإلزامى المحقق وتبقى موضع ثقة محدودة تحت المسئولية الشخصية، وإذا كان إعدام

---

(١) داود : ص ٣٥ . (٢) المرجع نفسه : ص ١٨ .

(٣) ينظر فيما مضى مسألة عمر ص ٢٩ ، ومسألة حفصة ص ٢٢ هامش ١ .

تلك النسخ الخاصة له مظهر عنيف حينذاك إذ لم يكن شاب القرآن أية شائبة ، فهو يكشف إلى أى حد كان الخليفة صائب النظر بعيده [1] ، فإن المسلمين مدينون لهذا العمل الإلهى بوحدة كتابهم المقدس وثباته .. فليضف إليه فيما بعد ما يراد من القواعد والعلامات الخارجية (التى اخترعها أبو السعود الدولى وأتباعه نصر ابن عاصم ويحيى بن يعمر والحسن البصرى والخليل بن أحمد) فإن الجسم مع هذا باق أبداً ثابت يتحدى حدثان الزمن .

إن بقاء بعض الحروف الزائدة والكلمات المشتبكة فى نسخ القرآن مخطوطة ومطبوعة حسب قواعد الإملاء العتيقة التى احتفظ بها فى الكتابة القرآنية لشهادة بليغة على تلك الأمانة التقية التى انتقل بها ذلك الأثر الخالد من جيل إلى جيل حتى انتهى إلينا .

الباب الثالث :

كيف بلغت رسالة الإسلام للعالم :

كل الناس تعرف فى الجملة ما ذا تكون رسالة القرآن التى تسمى الإسلام ، ولكنهم يعرفونها معرفة كثيراً ما تغلو فى الاعتماد على حد ظاهرى .

أنها ذلك الإصلاح الدينى الاجتماعى الخلقى الذى ما أن ولد على الشاطىء الشرقى للبحر الأحمر فى بداية القرن السابع من التاريخ الميلادى حتى مضى قدماً منتصراً نحو الشمال والجنوب والشرق والغرب ، وها هو ذا فى زمن جد قصير نسبياً ، يسود على نصف العالم المعروف حينذاك . حدث لم يسبق له مثيل فى التاريخ ، وهو ما ينفك يسترعى انتباه الإنسانية ويستثير استطلاع مؤرخى السنن والأديان ، وعبثاً يحاولون أن يجدوا له نظيراً فى التاريخ القديم ، موازنين بينه وبين فتح الاسكندر الأكبر أحيانا ، الذى كان انتشاره سريعا حقا ، ولكنه لم يحدث أى تغيير ، لا فى تفكير الأمم ولا فى عاداتها ، ولأول نسمة من الإسلام ولى ولم يبق وراءه

(١) على أنه لم يقم بهذا العمل من تلقاء نفسه دون مشورة الأمة : فى خطاب انتهت دراسة أصحاب المصاحف إلى الاعتراف بصحته ، حيث يدافع خلف الخليفة عن هوى سلفه بعده ، يصرح على أن هذا الإجراء العنيف إنما اتخذ باتفاق جميع الصحابة الحاضرين ، ويضيف الإمام : لو أن عثمان لم يتممه لأتممته أنا (داود ص ١٢ و ٢٢) .

أى أثر ، وأننا لن نذهب إلى حد القول بأن عمل الاسكندر لم يكن إلا لغوا مطلقا ، فلقد رصع فى الأفق طريق الشرق بسلسلة من المدن الجميلة التى ازدهرت بها الحياة الاقتصادية ، هذا صحيح وليس أقل منه صحة أن هـذا العمل لم يتعد حدود المدن ، فإن كتلة الشعوب أو الفلاحين الذين قيل بحق أن من لم يفتح قلوبهم لم يفتح شيئا ، قـد احتفظوا بطوابعهم الخاصة : اللغة والعادات والنظام السياسى والاقتصادى كما هى لم تمس ، بل كان الأمر كذلك فى المدن نفسها ، فإن « الهلينية » ممثلة فى الجهاز الإدارى لم تتعمق إلا عند قلة من الطبقة المتوسطة « البرجوازية » أفنحن فى حاجة إلى القول بأن المستعمرين اليونانيين لم يلبثوا أن أعطوا بأيديهم واستسلموا لفاتحين جدد ، فما لبثت تلك المدن أن أفلست تدريجيا تحت الامبراطورية الرومانية . . وكيما تـكون لك فـكرة عن هذا الطابع العرضى لتلك العمارة غير المتناسقة يـكفى أن تذكر بعض التواريخ المعروفة ، فمعلوم أنه بعـد نحو عشرين سنة من موت الاسكندر تقطعت امبراطوريته إلى ثلاث ممالك سنة ٣٠١ قبل الميلاد ، ثم تمت على التدريج عملية تقطيع يمـكن رسمها هكذا : بعد خمسين سنة أخذ البرثيون آسيا العليا (سنة ٢٥٠) وبعد ستين سـنة تسقط آسيا الصغرى تحت السيطرة الرومانيـة (سنة ١٩٠) ثم نحو خمسين سنة وترى فلسطين تـكون دولة يهودية مستقلة (١٤٤ — ٦٤) وفى نحو التاريخ نفسه تجد الدولة الأم نفسها (اليونان سنة ١٦٤ ، ومقدونيا سنة ١٤٢) تنحدر إقليما رومانيا ، وإذا بقيت المـلكية المصرية أطول مدة بعيدا فلم تقع تحت نير رومية إلا سنة ٣١ ، فإن انهيارها السياسى كان قد بدأ بعد الثلاثة البطالسة الأول سنة ٢٢١ ، ولـكن المشكلة الحقيقية ليست هنا ، فنحن إذا نحينا جانبا المظهر المادى للمدنية ، ودخلنا فى حيز الفـكر ، فإن مما لا شك فيه أن الفاتح المقدونى بدل أن ينقل معه التصورات اليونانية تبنى فى بساطة تامة الأفـكار الشائعة فى البلاد المفتوحة وتسلل إلى آلهتها . . وورثته مثله لم يتطوروا فى هذه السبيل ، وبصفة عامة فى العهدين اليونانى والرومانى نجد الأفـكار الفلسفية والدينية ـ وكانت جد مزدهرة حينذاك فى الشرق وبخاصة فى الاسكندرية ـ ليست صادرات هلينية ، بل نجدها فى جوهرها دعوات شرقية استخدمت اللغة اليونانية لتنقل إلى أوربا باسم الأفلاطونية الجديدة

والمسيحية ، بحيث يكون من حقنا هنا أن نقول أن الشرق هو الذى فتح فاتحيه . .
ثم جاء الإسلام أخير فتغير ما بين يوم وليلة ، لا الواجهة السياسية والاقتصادية فى كبريات المدن هذه المرة ، بل الروح الإنسانى فى أعمق أعماقه عند الشعوب كلها ، فاللغة والفكر والقانون والأمانى والعرف وتصور الخلق والخالق كل أولئك تحول دفعة واحدة .

وهذا الفتح الروحى لم يستول على النفوس التى خامرها بطريقة صالحة لدوام البقاء فحسب ، ولكنه يجنح إلى الكسب الجديد حيثما ترك يعرض نفسه فى أى مكان ببساطته وصفائه الأولين ، وتلك مشاهدة لا يساوقها إلا نشوزا ذلك الرأى الشائع من أن الإسلام لم يعم إلا بحد السلاح .

أفليس نفوذه الفعال فى أيامنا هذه دليلا يقع تحت الحس على أنه يعمل بقوة باطنية وصلة خاصة بالطبيعة البشرية وحقائق الأشياء ؟ نعم إن القوى المناوئة فى زمن مضى بما أفعمت من كره . وما عمدت إليه من وسائل العنف فى اضطهاد الدعوة الناشئة وإرهاقها قد اضطرتها إلى أن تقاوم لتضع حداً لذلك الظلم الذى كان قد استمر زمناً جد كاف ، وما أن أعلنت المقاومة حتى قامت القوى المعادية من كل جانب تأتلف ضد هذا النظام الجديد الذى يريد أن يقوم مقامها . . وتتوالى الضربات إثر الضربات ، ويكون لزاماً أن ينقضى زمان قبل أن يستقر السلام . .
وإذا نظرنا فى الأمور كما هى فلن يسمح لنا شىء أن نرى فى تلك المأساة العامل الجوهرى أو العمدى فى انتشار رسالة الإسلام ، فإن السنين العشر الأولى للدعوة المحمدية ترينا أنه على الرغم من كل العقبات كان مجرد عرض الدعوة يكسب مؤمنين جدداً كل يوم ، كما يشهدنا كذلك بأية شجاعة وعظمة احتمل الرسول وأتباعه لا سخرية مواطنيهم وإهاناتهم فحسب ، بل العزل والمنع من أى اتصال بالشعب ، وأحياناً التعذيب والمثلات فى أبشع صورها (١٦ - ١٠٦ و ٢٩ - ١٠) مما اضطر كثيراً من المسلمين الأولين - ومنهم بعض الأشراف كعثمان ، وبنت أبى سفيان أم حبيبة إلى أن يبحثوا عن ملجأ (١٦ - ١١٠) عند ملك الحبشة ، ولكن مضرب المثل العجيب فى ذلك العهد ، والذى يدل على الأمر الإعجازى إلى أبعد حد لتلك

الدعوة السلمية إنما هو أهل يثرب التي سميت بعد المدينة .. فقبل أن يروا وجه الرسول أو يسمعوا صوته بزمن طويل ، بل لمجرد سماع الدعوة القرآنية عن طريق حجاجهم استقبلها عرب المدينة بما شاء الله من حفاوة ، حتى لم يبق أسرة ليس فيها كثير من المؤمنين ، أكثر من هذا فإن العداوة المضطرمة بينهم منذ ربع قرن[1] خمدت فجأة كأن ريحاً إلهية أتت عليها (٨ - ٦٣) فانقلبوا من أعداء ألداء إلى أخوة أشقاء (٣ - ١٠٣) وفى نفس الوقت فإن النظم الإسلامية التى ما كان يمكن أن تزاول علانية فى مكة بدأت تباشر جماعة وفى وضح النهار (وكذلك أقام أبو إمامة صلاة الجمعة قبل الهجرة بسنة) فى هذه المدينة الحفية المضيافة ، وعما قريب سيستقبل هناك المؤمنون كلهم تقريبا بعد أن تركوا بيوتهم وأموالهم (٥٩ - ٨) واضطهدوا كثيراً أو قليلا بمكة .

وحتى الآن كان كل شىء يمر فى سلام ووقار من ناحية المسلمين فى الأقل ، فلا شىء يدل على أن القوم سيحتكمون إلى القوة ، وبعد أن اطمأن الرسول على مصير أصحابه ووصولهم سالمين ، وعلى الرغم من الخطر الذى يتهدد شخصه لم يتعجل اللحاق بهم ، فلم يكن يريد أن يغادر مركز أداء واجبه دون إذن صريح من الوحى ، معتقدا أنه يجب عليه أن يمد بقاءه ، وأن يوالى دعوته فى البلد الذى ولد فيه حيث بقى وحده مع صديقين : أبى بكر وعلى .

وفى ليلة المؤامرة المدبرة على حياته تلقى وحياً ، الأمر الإلهى بالرحلة .. بل أنه فى الساعة التى بدأ فيها تنفيذ المؤامرة الدنيئة غادر المدينة سراً بصحبة أبى بكر أحد الصحابيين ، ووكل إلى الآخر مهمة تعفية آثاره .. وبعد النجاة الإعجازية أما كان واجبه أن يفكر فى الانتقام من أعدائه أولئك الذين أرادوا قتله ؟ كلا ، وإذا تتبعنا مراحل نشاطه فى السنة الأولى من الهجرة ، وجزء كبير من الثانية فإننا نجد جهوده - على العكس - متوفرة على الأعمال القدسية والبنائية : بناء المسجد ، تنظيم أحكام الصوم ، وضع نظام الآذان للصلاة ، التنظيم الداخلى السلمى للمجتمع ؛ فكل شىء حتى هذه اللحظة كان يدل على أن المسلمين سيولون ظهورهم ، حتى فى

---

(١) لامانس : عهد الإسلام قبيل الهجرة ص ٢٦٥ .

الصلاة ، نحو وطنهم القديم ، فى ذلك الحين فى نحو منتصف السنة الثانية بدأوا يتعرضون للقوافل التجارية لمضطهديهم ليذهبوا للقائهم فيما بعد .

من أين هذا التحول وهذا التغير المباغت الوضع ؟ إنه ليستحيل علينا ـ وآراء المستشرقين غير المتحيزة متفقة فى هذا الصدد ـ أن ننسب ذلك إلى الحالة النفسية الشخصية للرسول ، فإن الأعمال الحربية ليست فى الواقع من طبعه ولا ذوقه ، بل على النقيض ، فإن حلمه وعفوه عن أعدائه كانا فى الغالب مدعاة عتب القرآن عليه (٨ - ٦٥ و ٩ - ٨٠ / ١١٣) ولقد حفظت الآثار عنه مجموعة كبيرة من مآثر العفو عن جرائم ارتكبت ضد شخصه وأشخاص أتباعه [١] ، يريد بعضهم أن يعلل هذا الاتجاه الجديد بضغط شعبه عليه ، فالروح الحربى خصيصته الجوهرية . . ولكن العلماء الذين تعمقوا فى دراسة الغريزة العربية لا يستطيعون أن يوافقوا على هذا الفرض ، فهم قد بينوا على العكس إلى أى حد يمقت العرب ، حتى أعراب البادية ، إهراق الدم [٢] ، إنهم يؤكدون لنا أن البدو لا يسعون إلى الحرب ، بيد أنها حين تعرض نفسها يقبلونها ولا يقبلون المذلة والعار ، حتى فى الإغارة التى كانوا يشنونها بعضهم على بعض كانت القبائل البدوية تعنى إلى أبعد حد بتجنب الأحداث الدامية ، إذن لا فى نفسية الشعب ولا فى نفسية رئيسه يمكن أن نجد تعليلا مرضيا لهذا التحول الجديد ، فلا بد أن يكون قد حدث شىء فى وقت ما ترتب عليه رد الفعل هذا . . والواقع أن القرآن يعرض علينا مشاهد تبلغ الغاية فى الإثارة ، لقد رأينا فى الهجرة كيف أن الرسول يتأخر بعد إخراج أصحابه كيلا يرحل إلا فى آخر لحظة ، ومن هنا يمكن أن نستوثق أنه لم يترك وراءه شيئاً يهتم له ، كذلك يمكن أن يستيئس

---

(١) مثلا عفوه عن المبعوث القرشى الذى جاء ليغتاله بعد بدر ، والمرأة اليهودية التى حاولت سمه فى خيبر ، وذلك الذى تهجم فى وحشية على ابنته الكبرى زينب أثناء الهجرة وهى حامل فأسقطت ، ومعلوم كيف كان حلمه على أصحاب الإفك الذين رموا زوجه البراء عائشة . أما سلوكه السلمى الكريم فى أثناء فتح مكة وبعد الفتح فما يثير العجب حقاً . (انظر ج . ب سانت هيلير . محمد والقرآن ص ١٢٥ ـ ١٣٠) .

(٢) لامانس : مهد الإسلام ص ٢٤٧ .

فلا أمل فى إيمان جديد بتلك المدينة المعاندة ، ولكن الواقع أن الأمر لم يكن كذلك فالقرآن يسمعنا تلك الصيحات المتأزمة المنبعثة من المسلمين الذين لم يعد لهم سند رجالا ونساء وأطفالا بمكة يتعذبون ، إنهم آمنوا فهم يستغيثون الله من ظلم القوم الكافرين (٤ - ٧٥) ذلك أنه على عدم تجدد الدعوة ما تنفك البذور القديمة - موعظة وقدوة - مخصبة ، وبقدر ما يخفق الإيمان قويا يشتد العنف والتعذيب لخنقه فى غير تأثم ، وتسقط الضحايا دون دفاع .

ما هذا ؟ . . ألأن المهاجرين والذين آووهم يتمتعون الآن فى ملجأ أمين بحرية كاملة فى الإيمان وإقامة الشعائر يكون من حقهم أن يتقوقعوا فى أنانيتهم ، وأن يظلوا غير مكترثين لمصير إخوانهم ، أيمكن - عقلا ودون تحيز - أن يحال بين الحقيقة والفضيلة وبين حقهما فى العون ، وأن تترك « الاستبدادية » تتسلح ضدهما ؟ على كل حال هذا العون المادى مطلوب عدلا لم يباشره المسلمون بسهولة فى الأقل بالصورة الحربية ، هنا أيضا يكفى أن يرجع إلى مصدر وثائقنا الثمين ، ذلك المصدر الذى ترتفع الآن صحته وأمانته التاريخية عن مستوى أى شك عند أى عالم كان ، أعنى القرآن لنتبين التردد والتراجع اللذين أبداهما الأحرار أمام المشروع العسكرى الذى كانت غايته تحرير الأسرى ، لا لويلات الحرب (٢ - ١٦) وغريزة حب البقاء فحسب (٤ - ٧٧ / ٧٨) بل لظروف أخرى جد عسيرة كانت تجعل النضال فيما ترى أعينهم مستحيلا تقريبا . . أفتندفع على غير استعداد لمواجهة عدو هو فى طريقه إلينا ، وهو أكثر منا عددا وعدة (٣ - ١٣) أو لا يحسن أن نكتفى ببعض الإجراءات الانتقامية [١] غير المباشرة بحيث تشعر قريشا مقدرتنا على الرد ، ونحملهم على أن يحسنوا معاملة إخواننا . . وأنه لأولى أن نعترض عير التجارة القرشية بدل الصدام بجيشها المحارب (٨ - ٧) كذلك كانوا يتدبرون فى

---

(١) معلوم أن المسلمين المهاجرين تركوا أملاكهم وأموالهم بين أيدى مضطهديهم (٢٢ ــ ٤٠) أفلا يكون لهم حق التعويض الجزئى من تجارة هؤلاء ؟ .

فهذا ما يسميه « سانكليه » بمثات النهب (مصادر القرآن ص ٢٤٦) .

المعسكر الإسلامى ، لكن الواجب يلق أوامره ، وتدق ساعة التضحية الكبرى ، فلقد أراد الله أن يحسم المعركة بين الحق والباطل (الآيات السابقة نفسها) .

فليس على المسلم إذن إلا أن يسلم لأمر الله حتى « يحيى من حى عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة » (السورة السابقة الذكر ٤٢) أولئك من أجل مثاليتهم وهؤلاء من أجل أصنامهم (٤ - ٧٦) تلك كانت الظروف التى انطلقت منها شرارة الصراع الأول بحد السلاح ، فطالما كانت الاضطهادات شخصية حين كان المسلمون بمكة كان لزاماً عليهم ألا يردوا أى رد عنيف ، وأن يحتملوا جراحهم فى شجاعة (٤ - ٧٧) أما الآن وقد أخذ عنف الوثنيين يأخذ صفة العموم ، وينقلب صراعا حربياً حاسماً لا لبس فيه (٢ - ٢١٧) فإن المؤمنين أخيراً بعد عشر سنين قد أذن لهم (٢٢ - ٣٩) ثم فرض[1] عليهم (٢ - ٢١٦) أن يؤازروا إخوانهم الذين ليس لهم حماية (٤ - ٧٥) ؟

---

(١) ثم تحول هـذا الإذن إلى إلزام فى ظروف سيئة جدا ، فلسنا ندرى كيف يؤكد سان كلير أن القانون القرآنى عـدل بنسبة نجاح جيوش محمد : ص ٢٧٩ ، ثم يقع فى أخطاء أخرى فى الباب نفسه : أولا حين يعـكس معنى الآية (٢١٧ ـ ٢) التى تمنع كل اعتـداء أثناء الأشهر الحرم ص ٢٧٦ ، ثانياً : يعد وسائل الـكبت التى اتخذت ضد الارهابيين (سورة ٥ آية ٣٣) شكلا جديداً للحرب معبراً عن مرحلة ثالثة فى هذا التطور ص ٢٧٧ .

في القصص القرآني

للأستاذ أحمد الشايب
وكيل كلية دار العلوم

— ٤ —

٢١ — والأصل الذى أقامه خصوم القرآن لعلهم ينالون من قدسيته وصحة قصصه وواقعيته أنهم قاسوا قصص القرآن بالقصص الذى يكتبه المعاصرون ، وبخاصة القصص التاريخى الذى يعتمد فى مادته على أحداث التاريخ ، وقالوا إن الكاتب الذى يكتب قصة تاريخية لا يلتزم وقائع التاريخ وأحداثه ، وإنما يزيد ويبتكر ويخترع ويغير ويبدل ، لأن هذا الكاتب يملك هذه الحرية الأدبية التى هى حق لكل فنان موهوب ، فكذلك القرآن حين يقص لا يلتزم واقع التاريخ ، وإنما يخرج عليه بالزيادة والابتكار والتغيير والتبديل نزولا على هذه الحرية الأدبية ، فهو كذلك عندهم يخالف الواقع فى مادة الأخبار ، ويغير فيها ويبتكر ويزيد ، ثم يقرر غير الواقع على أنه واقع ، فهو عندهم مفتر كذاب ، ثم يزيد فيجارى الناس فيما يعتقدونه ولو كان كذبا لعلهم يميلون معه ، ثم لايتورعون بعد ذلك أن يقولوا : إن القرآن من صنع محمد . . . كل ذلك وهم يعترفون أو يعرفون أن التاريخ الذى يريدون تحكيمه فى قصص القرآن غير وثيق ، وأن ما بقى منه إنما هو أنباء مخلطة وخرافات وأساطير لا يمكن أن تثبت لنقد أو تعد علما يرجع إليه فى بيان القيم الواقعية لقصص القرآن الكريم ، كما أسلفنا القول فى ذلك ونؤكده هنا من جديد .

٢٢ — من الدعاوى الخاطئة الجاهلة أن القرآن الكريم يتقول ما لم يحصل ، وما لن يحصل ، قال ذلك خصوم القرآن وساقوا لذلك قوله تعالى حكاية لأقوال اليهود فى شأن عيسى عليه السلام : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم »[1] .

---

(١) النساء : ١٥٧ .

ثم عقبوا على هذه الآية بقولهم : « وليس من شك فى أن اليهود ينكرون رسالة عيسى ، ومن أجل ذلك قتلوه ، فهم لم يقولوا هذا القول - رسول الله - وإنما أنطقهم به القرآن » وهنا نجدهم يقولون بأن اليهود قتلوا عيسى خلافاً لنص القرآن الكريم الذى يقول : « وما قتلوه وما صلبوه » ثم يدعون على القرآن بالكذب على اليهود وإنطاقهم بما لم ينطقوا به .

وهذا الذى قالوه جهل وضلال ، فإن كلمة - رسول الله - إما أنها من قول الله تعالى تعظيما لعيسى وتنزيهاً له عما نسبوه إليه من أنهم قتلوه ومن غير ذلك ، وإما أنها من قول اليهود أنفسهم سخرية بعيسى الذى عصوه وشاقوه ، وهذا التفسير بدهى جداً لا يعوزه فكر عبقرى ليصل إليه ، ومن عجب أن ينقلوا عن الكشاف عبارة فى صدد هذه الآية ظناً منهم أنها تثبت ما يدعون ، ونحن ننقل هنا عبارة الكشاف بنصها : « فإن قلت كانوا كافرين بعيسى عليه السلام ، أعداءً له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر بن الساحرة ، والفاعل بن الفاعلة ، فكيف قالوا : إنا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله ؟ قلت : قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون - إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون - ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عما كانوا يذكرونه به وتعظيما لما أرادوا بمثله »[1]، وكلام الكشاف صريح فى أن الله يضع من عنده تعالى لفظ - رسول الله - تعظيما لعيسى وتنزيها له عما نسبوه إليه من سوء ، وكأن أولئك فهموا أن الله يضع ذلك على ألسنة اليهود ، وهذا فساد فى الذوق ، وخطأ فى فهم أساليب اللغة ، فوق ما فى ذلك من ضلال مبين .

والقرآن عند هؤلاء الخصوم يتقول ما لن يحدث ، وهو بذلك عندهم يخالف الواقع التاريخى ويخرج على مقرراته ، ومن ذلك عندهم قوله فى قصة عيسى فى آخر سورة المائدة وصفا لموقف فى الآخرة : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول

(١) الكشاف : ج ١ ص ٣١١ / ط مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ .

ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »[1] عقبوا على هذه الآيات بقولهم : « فهذا القول ، وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد ، بل لعله لن يحدث » .

فأما أن الإنسان يتحكم فيما سيحدث فى الآخرة ، وفيما يكون بين الله ورسوله عيسى ، فذلك اجتراء ضال غير معقول ما دمنا مسلمين مصدقين بكتاب الله ، وهذا المعنى مجال القول فيه ذو سعة ، وأما أن القرآن يعبر عما سيقع بلفظ الماضى استيقانا لحصوله ، فهو مذهب فى الكلام بليغ ، كقوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه »[2] وفى معرض الحديث عن أعداء الله فى الآخرة يقول الله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون »[3] على معنى سوف يقولون لجلودهم ، إذ الأمر لا يعدو أن يكون استحضاراً لما يقع فى المستقبل ، كما قد يكون أحياناً استحضاراً للماضى فيعبر عنه بصيغة الفعل المضارع .

٢٣ — وإذا كان القرآن الكريم لا يلتزم فى قصصه المقومات التاريخية ، فليس من الإنصاف أن نأخذ عليه إهماله ذكر الزمان أو المكان أو حتى الأشخاص ، ذلك أن القرآن - كما قلنا - يقصد توًّا إلى مواطن العبرة والعظة ، وقد كنا فى غنى عن ذكر هذه الملاحظة وأشباهها ، لولا أنهم يوردونها شاهداً على خروج القرآن على واقع التاريخ ، ولكنهم يوردونها مقترنة بما سبق أن ادعوا به على القرآن التقول بما لم يكن وبما لن يكون ، وكذلك الشأن فى عدم استقصاء القصة فى القرآن ، وفى عمده إلى التكرار حسب المقامات ، فذلك دأبه أو منهجه كما قدمنا فى المقال الثانى من هذه الفصول .

---

(١) المائدة / ١١٦ — ١١٨ . (٢) النحل / ١ . (٣) فصلت / ٢١ .

ثم يقولون إن القرآن لا يهتم بالترتيب الزمنى أو الطبعى فى إيراد الأحداث وتصويرها ، وإنما كان يخالف فى هذا الترتيب ويجاوزه[١] ، يذكرون ذلك شاهداً على عدم التزام القرآن واقع التاريخ ، ويقرنونه بما ادعوا على كتاب الله من تقول وافتراء ، وقد قلنا من قبل إنه لا ضير على القرآن فى ذلك ، فهو لم يأخذ نفسه بعدرسية التاريخ ، ولكننا نؤكد هنا أيضاً أن كل ما ذكر من أنباء متصلة بالأمم والرسل حقائق واقعية لا شك فيها .

ثم يقولون من شواهد مخالفة القرآن أنه عندهم يناقض نفسه ، فهو يسند بعض الأحداث لأناس بأعيانهم فى موطن ، ثم يسند نفس الأحداث لغير هؤلاء الأشخاص فى موطن آخر ، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف : « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عظيم » إذ نراه فى سورة الشعراء مقولا على لسان فرعون نفسه : « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عظيم » وكذلك قصة إبراهيم فى سورة هود أن البشرى بالغلام كانت لامرأته ، بينما كانت البشرى لإبراهيم نفسه فى سورة الحجر وفى سورة الذاريات .

أما عن آيات فرعون وقومه :

١ ـ فمن المعقول جداً أن يرمىَ موسى بالسحر كل من فرعون وقومه فى موطن واحد ، والقرآن الكريم روى كلام فرعون فى موضع وكلام قومه فى موضع آخر .

٢ ـ على أن الرازى فى تفسيره[٢] أورد هذه الشبهة ثم قال : وجوابها من وجهين :

الأول : لا يمتنع أنه قاله هو وقالوه هم فحكى الله تعالى قوله ثمّ وقولهم هنا ـ أقول وهذا الوجه من الرازى هو ما سميناه نحن بالتكامل بين القصص المتكررة فى القرآن .

---

(١) راجع أمثلة ذلك فى قصة لوط فى الحجر / ٦١ ـ ٧٣ ، وفى هود / ٧٧ ـ ٨٣ لترى ترتيب كل قصة للأحداث حسب مقتضى الحال ، وهو أمر متفق تماماً مع منهج القرآن الكريم فى قصصه كما ذكر فى المقال الثانى .

(٢) جزء ٥ ص ٣٩٦ .

الثاني : لعل فرعون قاله ابتداء فتلقفه الملأ منه فقالوه لغيره أو قالوه عنه لسائر الناس .

وأما عن بشرى إبراهيم فقد ذكر الله تعالى في سورة الحجر أن البشرى كانت لإبراهيم « قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم »[1] ، وفي سورة هود كانت البشرى لامرأة إبراهيم : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب »[2] .

١ - وهنا نقول أيضا : إن التكامل بين القصص المكررة في القرآن يفسر هذه الظاهرة فإن البشرى كانت لهما جميعاً ، وقد حكى القرآن في سورة إبراهيم بشرى إبراهيم ، وفي سورة هود بشرى امرأته ، فلا تناقض بين الآيتين .

٢ - على أن آيات هود تفيد ذلك : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . . فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط . . » يقول الرازي في تفسيره : « وحصل السرور بسبب مجيء البشرى - أي لإبراهيم - بحصول الولد »[3] .

٣ - ومع ذلك - وإن كنا لا نحتج بالتوراة للقرآن أو عليه - فما بال هؤلاء - وقد حكموا التوراة في قصص القرآن - ينصرفون في هذه المسألة عن التوراة ، وفيها أن البشرى كانت لهما معاً (سفر التكوين ١٨ ص ٢٦ س ٥) .

٢٤ — ويقولون ان القرآن - في تناقضه - ينطق الشخص الواحد ، في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة ، ومن ذلك تصويره لموقف الإله من موسى حين رؤيته النار ، فقد نودي في سورة النمل بقوله : « فلما جاءها نودي أن بورك مَن في النار ومَن حولها » وفي سورة القصص : « فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » وفي سورة طه : « فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى » .

ولا نجدنا في حاجة إلى تكرار ما قلناه في مثل هذه الآيات من أن هذه

---

(١) الحجر /٥٣ . (٢) هود /٧١ . (٣) وراجع الكشاف جـ ٢ صـ ٢٢٦ .

الأقوال قيلت جميعاً فى هـذا الموقف ، إلا أن الله قد فرقها بين مرات القصص بحسب مقتضى الأحوال .

وأقول أيضا : ماكنا فى حاجة إلى تتبع ماقالوه واستقصائه ، لولا أنهم أوردوا هذه الدعاوى فى ظل ما سموه حرية القصص القرآنى ، وعدم التزامه واقع التاريخ ، وتظليل هـذا الكلام بظل الكذب والتناقض ، وعلى ذلك فحرية القرآن عندهم هى هذه الحرية الفنية التى تجعلهم يمسكون القول عما فيها من تاريخ .

٢٥ — ومما يورده المعارضون بدعوى التناقض أن فرعون عابد فى قوله تعالى على لسان قومه : « وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك »[١] ، ومعبود فى قوله : « أنا ربكم الأعلى »[٢] ، « ما علمت لكم من إله غيرى »[٣] .

١ - مع أن الواقع أن فرعون كان عابداً للشمس معبوداً للشعب[٤] .

٢ - على أن الرازى فى تفسيره[٥] قد أجاب عن هذه الشبهة بما يقرب من هذا ، إذ قال ما خلاصته : إن فرعون قد اتخذ أصناماً على صورة الكواكب يعبدها ، ثم طلب من الشعب عبادتها أيضاً .

والقرآن عند المعترضين يخلط ، فيقرر أن مريم أخت هارون أخى موسى مع بعد ما بين موسى ومريم أم المسيح[٦] ، وبخاصة ما ورد فى القرآن من أن مريم ابنة عمران ، فلا شك عند المعترضين أن محمداً فى قرآنه توهم أن مريم أخت هارون التى كانت أيضاً ابنة عمران ، هى نفس مريم التى صارت أم المسيح بعد ذلك بنحو ألف سنة وخمسمائة وسبعين سنة ، وهذا خطأ عظيم ، فيما زعم المعترضون .

نقول : وهذا الاعتراض مدفوع بوجوه :

١ - ليس مايمنع مطلقا أن يكون لمريم أم المسيح أخ يدعى هارون ، وأب يدعى عمران ، فهذا مألوف فى الحياة ، إذ كثيراً ما تتحد أسماء الناس وأسماء آبائهم ،

---

(١) الأعراف / ١٢٧ . (٢) النازعات / ٢٤ . (٣) القصص / ٣٨ .

(٤) راجع قصة الحضارة ج ٢ ص ١٥٥ — ١٦٣ . (٥) ج ٤ ص ٤٠٦

(٦) سانت كلير : تنوير الأفهام فى مصادر الإسلام .

ولا سيما أنهم لا يعرفون اسم أبى مريم عليها السلام معرفة جازمة ، فلا غرابة إذا جهلوا أن أخاها يسمى هارون .

٢ - وللرازى فى تفسير هذه الآية [١] اتجاه آخر فيقول : وأما هارون ففيه أربعة أقوال ، الرابع ، كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بنى إسرائيل فعُيّرت به ، وهذا أقرب لوجهين :

الأول : أن الأصل فى الكلام الحقيقة ، وإنما يكون ظاهر الآية محمولا على حقيقتها لو كان لها أخ يسمى بهارون .

الثانى : أنها أضيفت إليه ، ووصف أبوها بالصلاح ، وحينئذ يكون التوبيخ أشد ، لأنه من كانت حال أبويه وأخيه هذه الحال يكون صدور الذنب عنه أفحش ، ونص الآية : « يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » [٢].

٣ - على أن ما ذكر فى القرآن من شئون مريم إنما ذكر على أنه كان فى حياة زكريا « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله » [٣] ، وفى السور الأخرى يذكر القرآن إسرائيل وبنيه موسى ومصايرهم [٤] .

فهما ، إذاً ، فى نص القرآن الكريم عنصران متباعدان .

وهكذا نجد هؤلاء المبشرين ومن يلوذون بهم يدعون على كتاب الله دعاوى تافهة يلبسون بها على الناس ، ويدلون بها على جهل علمى وضلال دينى ، وفساد خلق ، وسننظر فيما بعد ذلك ؟

(١) ج ٥ ص ٢٨٨ . (٢) مريم / ٢٨ . (٣) آل عمران / ٣٧ .
(٤) الأعراف / ١١٦ - ١٢٨ .



للسيد الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد محمد بريرى

قال شيخى :

تضحك الضبع لقتلى هذيل   وترى الذئب لهـا تستهل
وعتاق الطير تغدو بطانا   تتخطاهمو فما يستقل

ليس براعة استهلال أن تستهل الذئاب وتضحك الضباع فرحا بجثث القتلى : قتلى هذيل التى تغدو سباع الطير عليها خماصا ، فلا تلبث أن تصبح بطانا من اللحم والشحم ، فهى تتخطى الجثث ، ويكاد امتلاؤها يعوقها أن تطير فتثاقل إلى الأرض وما تستقل ، على أن الشعر ليس استهلالا فى واقع الأمر ، بل هو ختام القصيدة ، والقصة قصة « الشعب » الذى دون سلع ، وقتيله الذى لم يطل دمه .

قلت : تضحك الضبع : تعبير قرأته منذ أيام فى قصة لأحد كبار كتاب فرنسا اسمها « حرب النار » ذلك بأن الكاتب الكبير يحدثنا عن بنى آدم ، وكيف كانوا يعيشون منذ نحو مائة ألف سنة . . أيام لم يكونوا بعد قد عرفوا كيف يستنبطون النار إذا هى خمدت ، فكانوا مضطرين إلى استبقائها حية . . يقدونها آناء الليل وأطراف النهار لا يفترون ولا يغفلون لحظة ، فهم لو فقدوها لم يكن من اليسير أن يفتدوها ، ويأبى الحظ العاثر للعشيرة التى يحدثنا عنها كاتبنا الكبير إلا أن تنطفى نارها أثر معركة كانت بينها وبين عشيرة أخرى معادية .

قال : بحسبك أن تقول « بينها وبين عشيرة أخرى » فإن « الأخروية » تتضمن العداء ضرورة ما دام الحديث عن الإنسان القديم الذى كان يعمر الأرض منذ نحو مائة ألف سنة ، ولما ذا مائة ألف ؟ إنه منذ أقل من عشرة آلاف سنة لم يكن يعرف « العشيرة الصديق » فكل جماعة غير ذويه عدو مبين مادام الدم الذى يجرى

فى عروقها ليس دم فصيلته - أعنى الفصيلة بمعناها اللغوى لا بمعناها الاصطلاحى الحديث - فالأجنبى ليس به حاجة إلى صفة أخرى كيما يكون عدوا ، أفلا تلمح هذا فى لغتنا العربية ، أفليس « العدو » من : ع د و . أنه كل من عداك ، أو عدا العشيرة التى أنت منها .

قلت : أعرف أن عدا يعدو عدوا : أسرع فى مشيته ، وأن اعتدى عليه يعتدى اعتداء : نال منه أو تعدى عليه أو ظلمه ، قال تعالى وكرر القول : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

قال : أوليست تعدى أخت عدا ؟ إنك لتعلم ، أو عسى ألا تعلم ، فلست أدرى ، إن الماديات فى اللغة أسبق وضعا من المعنويات ، فأنت تقول : عدا عليه أى جرى نحوه ، بيد أنه لا يجرى نحوه إلا ليقتله أو يأسره أو ينال منه نيلاً أيا ما كان ، ثم أجد اللفظ يكتسب سماته المميزة ، ومعانيه أو ظلاله المختلفة التى نعرفها الآن ، فأنت تعدو الآن دون أن تعدو - إن صح هذا التعبير - أعنى تعتدى وأنت قاعد أو جالس أو نائم ، أليس الشتم والسب عدواناً ؟ بلى وإنه لعدوان مبين تستطيع أن تنال به الواحد والعشرة والألف بل الإنسانية كلها وأنت مضطجع ناعم البال ، إن « العدو » و « العداء » كليهما صيغة مبالغة من « ع د و » ولكنك تعرف الفارق الكبير بينهما ، فالأول يعتدى على غيره ، فى حين أن الثانى لا يزيد على أن يعدو عدواً شديداً أو كثيراً ، أى يجرى ما شاء الله أن يجرى أو يضرب فى الأرض دون أن يلحق الناس أو غير الناس منه أذى ، أفتحسب هذه المعانى والتفريعات المتباينة كان اللفظ يتضمنها جميعاً حين وضع أول ما وضع ؟ .

قلت : ولم لا إن كان الإنسان علم البيان توقيفا كما يرى ذلك بعض فقهاء اللغة ، لا أعنى اللغة العربية وحدها ، بل سائر اللغات ، فهى نظرية عامة فى فقه اللغات الحضارية .

قال : تستطيع أن تثرثر فى هذا الموضوع كما ثرثر فقهاء اللغة قديماً وحديثاً ، وأحسبهم ما زالوا يثرثرون ، ولن تنتهى المناقشه أبد الآبدين ودهر الداهرين ،

أنسيت مسألة البيضة والدجاجة أيتهما أسبق وجودا ؟ إنه لا سبيل إلى معرفة البدايات ، وأحسبنى فى هذا الصدد مقتنعاً أتم الاقتناع بقوله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ولست أرتاب فى أنه جل شأنه كذلك لم يشهدهم خلق الدجاجة والبيضة ولا خلق اللغة ، إنه لطريف حقا ذلك البحاثة الأوربى الذى قال : إن اختراع اللغة يستلزم أداة ضرورية هى اللغة نفسها . . أجل فليست نظرية التوقيف ، أو بعبارة أخرى إلهام الله الإنسان البيان مجرد ورع دينى كما يحلو لبعضهم أن يقول ، ولكنها شىء تضطر إليه بعض العقول اضطراراً لا اختيار لها فيه ما دامت اللغة هى الأداة الضرورية لاختراع اللغة ، ولكن فقه اللغة شغلنا عن موضوعنا الذى كنا نعالجه ، أفلم تكن تقص على قصص العشيرة التى خمدت نارها ؟ .

قلت : نعم فبعد أن حسب رئيس العشيرة على أصابع يديه ورجليه حساب المحاربين الذين فقدهم فرغ لحديث النار التى انطفأت ، فماذا تراهم فاعلين ؟ أفيحيون حياتهم كلها لادفء ولا انضاج طعام ؟ وأدهى من ذلك وأمر أن الذئاب والكلاب الوحشية والضباع والنمور والفهود وسائر الضوارى ستجرؤ عليهم . فليس غير النار ما يصدها عنهم إذا أردف الليل اعجازه وناء بكلكله ، إذن لا بد مما ليس منه بد تقوم « بعثة » أو « سرية » تبحث عن النار فى مظانها المختامة ، ويتشاور القوم فيما بينهم ويقر قرارهم على أن « ابن الفهد » خير من يحمل تلك التبعة التى ندب لها ، واختار اثنين يصحبانه فى تلك الرحلة ، بيد أن « ابن الثور » يغضب ويريد أن ينقض على ابن الفهد ليمثل به ، ولكن هذا ليس أقل منه شجاعة ولا قوة عضل . . ويقوم شيخ حكيم مبينا للملأ أن العشيرة فقدت كثيراً من محاربيها الأشداء ، وأن « ابن الفهد » و « ابن الثور » كليهما لازم بقاؤه لخير الجماعة ، فليذهب كل منهما فى وجه عسى أن يوفق فيكسب النار . . ويعلن الرئيس أن « جاملا » بنت أخته أجمل فتيات العشيرة ستكون حظ الذى يجىء بالنار ، وكذلك يولى ابن الثور وأخواه وكلهم ذو بأس شديد وجهة ، وابن الفهد واللذان اختارهما وجهة أخرى .

قال : واضح أنهم كانوا ينسبون إلى جد أعلى حيوان غير ناطق .

قلت : وأحياناً إلى الشجر ، أفلسنا فى أزمان « الطوطمة » وما « الطوطم » إلا حيوان أو شجرة إليه أو إليها ينتهى نسب القبيلة ، فهو أبوها الأعلى المشترك بينها وبين الحيوان أو الشجر الذى لم يتطور كما تطورت الناس ، وما دمنا فى باب النسب والتطور فهانحن أولاء نرى أن « الطوطمة » هى الجدة العليا لنظرية التطور التى ذهب بفخارها « داروِن » و « لامارك » ولكن « الطوطم » ليس قصاراه أنه أبو القبيلة ، فهو أيضا معبودها المقدس أو إلهها المعبود ، ومن هنا تحريم بعض صنوف الحيوان أن يذبح ويؤكل حتى بعد أن تنوسيت ألوهيته وعبادته ، فلا يتردد المؤرخون الوضعيون فى أن تحريم لحم الخنزير فى التوراة أثر من آثار الطوطمة التى سبقت الديانة الإسرائيلية .

قال : مهلا ، فثم تخليط وارتباك ، وما شئت من متناقضات إن مؤرخيك ، هؤلاء الوضعيين ليقصون علينا كذلك أن الطوطمة هى الأصل فى استئناس بعض الحيوان والنبات الوحشى ، فلقد كان من السنن الموروثة أن الطفل أو الشاب يشرب من دم جده هـذا الحيوان أو يأكل من لحمه أو يطعم ثمر الشجر إن كان طوطمه شجرا ، ومن أجل هـذا جرى العرف على أن يربى صغار الحيوان ويزرع الشجر ، ليذبح ذاك ويؤخذ ثمر هذا فيما بعد ، أفلا تراهم تارة يردون استئناس الحيون وذبحه بوصف كونه جداً يجب أكله أو شرب دمه ، وتارة أخرى يردون منع ذبحه وأكله إلى تلك القداسة الأهلية أو الإلهية .

ثم هم يفرقون بين « الصنم » وبين « الطوطم » من حيث أن هذا ليس ذا قوى سحرية كذلك . . على أن ثم أصناماً تعبد لذاتها ، فهى فيما يرون آلهة أو تتقمصها الأرواح التى تملك الضر والنفع ، وثم أصنام أو سمها إن شئت أوثانا لا تتقمصها أرواح ، وإنما هى تماثيل أو رموز للآلهة ، فالصنف الأول هو ما يسمى « فيتيش » والثانى « إيدول » أما عندنا فى اللغة العربية فلا نعرفه ، بل يحدثك صاحب القاموس عن الوثن معرفا إياه بأنه الصنم ، وعن الصنم معرفا إياه بأنه الوثن ، على أن لأصحاب الملل والنحل عندنا اصلاحات لا تتفق وأصل الوضع اللغوى . . والظاهر أن الوثنية أعم وأكثر شمولا من الطوطمية التى عسى أن تكون خاصة

ببعض العشائر والقبائل ، أجل . فنحن نحب الآن فى عصرنا هذا قبائل بدائية إفريقية وغير إفريقية وثنية لا تعرف شيئا عن الطوطمة قل أو كثر ، فأما القبائل أو العشائر ذوات الطواطم فإنها لا تعطى طواطمها اختصاصات إلاهية ، بل حدها قربى الدم التى تجمعها والحيوان أو النبات الطوطم ، تلك هى الحال فى أيامنا هذه .. ولكن مؤرخى الأديان رأوا الشعوب القديمة كالإغريق والمصريين عبدت الحيوان فاستنتجوا أن تلك العبادة مردها أصلا إلى الطوطمة التى ما تزال قائمة حتى أيامنا هذه ، فهى إذن سنة إنسانية ، أو طور عام لا تخلو جماعة آدمية من أن تكون مرت به ، ثم تجاوزته أو لزمته فلم تبرحه كبعض سكان أمريكا الشمالية الأصليين ، إن المسألة لا تعدو أن تكون احتمالا رجحوه ، ومن يدرى فعسى أن يقلب شأن شؤونا فلا يلبث الراجح أن ينقلب مرجوحا ، ويتبين مثلا أن المصريين الأقدمين عبدوا « أبيس » دون أن يمروا بطور الطوطمة ، وأن « زيس » إله آلهة الإغريق كان يحلو له أن يتزين أحياناً برأس نسر دون أن يكون لذلك علاقة بطوطمة سابقة .

قلت : إن دراسة التاريخ القديم تقوم على « الحدس » أو الألمعية التى تجعل صاحبها « يظن بك الظين » كان قد رأى وقد سمعا ، أفلم يقل « رينان » نفسه أنه وأضرابه صناع مصنع ما ينفك يقام ليهدم ثم يعاد بناؤه من جديد .

قال : حذار من تحريف الكلم عن مواضعه ، أو استعمال الألفاظ المبهمة ، أو التى اكتسبت لوناً جديداً يضاف إلى ألوانها القديمة ، إلا أن العين لم تتألفه بعد فهى ما تزال تخطئه أو تزوغ عنه ، ولقد أصبح لكلمة « حدس » عندنا فى العربية بعد أن ترجمت بها كلمة « برجسون » الفرنسية مدلول اصطلاحى فلسفى ، فهى تعنى ما يسميه أبو حامد الغزالى رضى الله عنه عين البصيرة ، نعم فإن برجسون يحدثك عن معلومات أو سمها إن شئت « فيوضات » باطنية تستمد من الداخل استمداداً ثابتاً يقينياً أدق وأصفى مما يستنبطه العقل عن طريق القياس المنطقى ، أفليس ذلك هو الإلهام ؟ ولكنك تعلم طبعا أن الوضعيين يبتسمون لهذه المعارف الحيوانية ، وكيف تريدهم على أن يتذوقوا شيئاً يتطلب تذوقه حاسة خاصة هم قد حرموها ،

فلا أقل من أن يفكروا ، بيد أن للفيلسوف العبقرى الفرنسى سلطانا لم يستطيعوا أن ينقصوه شيئا ، ولقد فعلوا لو استطاعوا .

قلت : تريدون : ولو استطاعوا لفعلوا .

قال : ما كنت لآبى لو أنك رددتنى إلى الصواب ، وحسبي أن أقول لك :

خذا جنب هرشى أو قفاها فإنما كلا جانبي هرشى لهن طريق

أجل : فإن « وقد فعلوا لو استطاعوا » تساوى : « ولو استطاعوا فعلوا » أو لقد فعلوا » .

وقد ساءنى ما جرت الحرب بيننا بنى عمنا لو كان أمراً مواتيا

قلت : فلقد ظللت دهراً أحسب أنه يأسف ، وأنه قد ساءه ما جرت الحرب بينهم ، ولكنى تألفتها فيما بعد وفقهت أنه يريد : لو كان الأمر يسيرا لساءنى ما جرت الحرب بيننا ، ولكنه ليس يسيراً ، فلم يسوءنى ما حدث بيننا جراء ذلك الأمر العظيم .

هذا ، ولقد أرانا نقع فيما يؤخذ علينا من أننا نستطرد - نحن المشايخ - من الموضوع الذى يشغلنا إلى مسألة نحوية أو لغوية ، وبالله لقد صدق الذى قال :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

على أن المشايخ فى فرنسا يفعلون فعلتنا ، إلا أنهم هناك لا يؤاخذون بما فعلوا .

قال : فمن ترى يؤاخذنا بما نفعل ، أما والله لو آخذنى غير جاهل بتلك اللغة الشريفة التى نتحدث بها ، إذن والله لسمعت ونظرت فى مسلكى وغيرت إن اقتنعت بأن الصواب فى التعبير ، ولكن الذى أضيق به هو أنى أنسيت فيم كنا قبل المسألة النحوية ؟ .

قلت : كنا فى الوثنية والطوطمة .

قال : ليت قليلا فى اللغة ، لم لا تكون تلك الطوطمة هى التميمة العربية ، فلست تدرى فى اللغات القديمة أيتها أخذت من الأخرى ، أفليست التمائم أو التميم - جمع تميمة - هى ذلك الخرز المرقط أو المنقش ، لم لا تكون تلك صوراً أو تماثيل

لهذا الحيوان أو الجد القبلى الأعلى ؟ وماذا لو قلنا تميمة وتميم أو تمائم بدل طوطم وطواطم ؟ أم ترانى أخرف . وعسى أن تكون الأمة العربية من تلك الأمم التى لم تمر بطور الطوطم .

قلت : فأصحاب تاريخ الأديان الوضعى يرونه - كما أسلفنا - طوراً لازماً ، أفلم تقرأوا الفلسفة الوضعية وتاريخ الأديان والأطوار التى مرت بها الفكرة الدينية ، أفليس الدين ظاهرة اجتماعية كغيرها من الظواهر بدأت بسيطة ثم أخذت تتعقد مع مرور الزمن .

قال : فهم على النقيض يرونها بدأت معقدة ثم انتهت إلى بساطة التوحيد .

قلت : يحضرنى لهذه المناسبة ما قرأته للأستاذ « بيير ربيم » فى كتابه « التاريخ العام للأديان » فهو يروى عن « ديلافوس » أن فى أفريقية الغربية ديناً سامياً - من السمو لا السامية - يحجبه عن أعين الغربيين ما تراكم عليه من الوثنيات حجباً غير مستحكم ، يمكن أن تلمح خلاله هذا الدين القويم ، فالسكان هناك يؤمنون بإله واحد خلق كل شيء ، خلق الكون كله بجميع مايحتويه من ماديات ومعنويات ، والجدير بالملاحظة حقا أن القوم على بدائيتهم يفرقون بين المادى والمعنوى ، ولا يدق على أذهانهم أن الخالق عمل ينصب لا على ما يقع عليه الحس فحسب ، بل على المجردات أيضاً ، والخالق نفسه فيما يرون روح مجرد ، بيد أنهم من حيث العبارة يخلطون بينه وبين السماء ، وإذا كانوا لا يتجهون بالعبادة أو الدعاء إلى هذا الإله الأحد خالق كل شيء ، فذلك يعنى أن نظرتهم إليه تشبه نظرة الإغريق القدامى إلى « القدر » على أن مما يزيد فى عناء الباحث ويجعل مهمته متعسرة أو متعذرة ذلك الطابع السرى الذى يميز الجماعات الدينية هناك .

قال : حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، فليس خفياً أن التوحيد هو الأصل عند تلك الجماعات البدائية التى لم تثبت بعد أن طال عليها الأمد أو زمن الفترة إن استسلمت إلى التعدد والوثنية والطوطمية أو ما شاء الشيطان من سبل الضلال . . إن الانحراف عن جادة الصواب أمر سهل وقوعه يسير تصوره ، فهؤلاء قوم أرسل الله إليهم رسولا مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فهو

ما ينفك يرشدهم حتى إذا انتقل إلى بارئه علقوا ذكراه ، وبدأوا يقدسونه قداسة شبه إلاهية ثم إلاهية ، وعسى أن تكون له ذرية يتناولها التقديس كذلك ، ولا تلبث الصور والتماثيل أو الأوثان والأصنام أن تتخذ أماكنها فى المعابد أو الهياكل .. على أن أصل الهداية مهما يقدم به العهد فهو لابد واجد متنفسا أو متسربا إلى نفوس ذوى الألباب ، إن هذا التوحيد الإفريقى أو الاسترالى لابد منته إلى رسالة قديمة ، فلست تزعم بطبيعة الحال أن القوم أعملوا عقولهم فوصلوا إليه ، كلا فهم قد أعملوها إلا أنهم وصلوا بها إلى التعدد والوثنية ، أو ما تسميه الطوطمية ، وأسميه « التميمية » أفليس عندنا « بنو أسد » و « بنو كلب » و « ثعلب » و « أنمار » أو لم يكن لهم جميعاً « تمائم » نيطت عليهم أيام الطفولة لحفظهم من تحوايل الحدثان :

بلاد بهـــا نيطت على تمائمى وأول أرض مس جسمى ترابهـا

هذا ولا يفوتنك أن ذلك التوحيد توحيد « السود » فى العالم القديم « والحمر » فيما اصطلح على تسميته العالم الجديد .

قد انتفى أن يكون مرده إلى عقول العقلاء وحكمة الحكماء من « الهوتنتوت » وأشباه « الهوتنتوت » ، وإنه لمنتف كذلك أن ترده إلى الإسلام أو النصرانية أو اليهودية ، فليس بين معتنقى تلك الأديان وبين أولئك المتخلفين أسباب متصلة أو كانت متصلة فيما يعلم أصحاب التاريخ ، فليس ثم إلا احتمال واحد يفرض نفسه فرضاً بالضرورة . . ذلك أنه ينتمى إلى وحى قديم أوحى الله به سبحانه وتعالى إلى من أوحى من رسله الذين قال فيهم مخاطباً خاتم الأنبياء والمرسلين : « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » أجل ، فإنه « جل وعلا » لم يؤثر قوما على قوم ، أو لونا على لون ، بل اتصل بخلقه جميعاً عن طريق رسله مذ كان على الارض آدميون ، أو أناس مكلفون : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » أفلم يحدثنا القرآن الكريم عن إرسال آدم ونوح وإبراهيم وعن قرون بينهم كثير ؟ .

قلت : إذن فما دلالة أنه سبحانه وتعالى فضل بنى إسرائيل على العالمين ؟ أفليس مؤداه أنه آثرهم بنعمة التوحيد فى حين أن غيرهم من الناس مترد فى حمأة التعدد ؟.

قال : واضح أنه تفضيل محدود زماناً ومكاناً وموضوعاً ، فلقد كان التوحيد ولم يكن إسرائيل بعد . . ثم أن بنى إسرائيل كفروا بنعمة الله عليهم ، وجحدوا ميثاقه الذى واثقهم به ، بل أنهم قارفوا الوثنية ورسولهم بين ظهرانيهم ، أفلم يتخذوا عجلا جسداً له خوار وقالوا هـذا إلهكم وإله موسى ؟ إن أصحاب التاريخ الوضعى الذين تبدى ويعيد فى ذكرهم ليقررون أن التوحيد ظل مزعزع الأركان فى بنى إسرائيل قروناً طويلة ، فلم يستقر استقراره الأخير إلا نحو سنة خمسمائة قبل ميلاد المسيح عليه الصلاة والسلام .

ولـكن كيف تسللنا من « حرب النار » والبعثتين اللتين خرجتا تبحثان عنها إلى بنى إسرائيل ، ماذا كان مصير ابن الفهد وصاحبيه ، وابن العجل أو الثور وأخويه ، و « جاملا » أو « جاميلا » التى تتبدى من خلال حروف اسمها جميلة من كان صاحبها ابن الفهد أو ابن الثور ؟ أفلم ينته بك فصاصل الفرنسى إلى مستقر تلك الأنباء ؟ .

قلت : بل انتهى إلى أن ابن الفهد استطاع أن يكسب موقعة النار بعد عناء أى عناء ، وأهوال أى أهوال ، على أنه وفق توفيقاً لم يكن يخطر له على بال ، فلقد تكشف له سر استخراج النار من شجرتها ، وإن كان احتفظ به لنفسه ، فلم يشأ أن يطلع عليه العشيرة التى عاد إليها يحمل النار حية مشتعلة ، بيد أنه لم يبلغ قريباً من الحى حتى ظهر له ابن الثور وأخواه يريدانه ، باسم القوة ، التى ما كانوا ليعرفوا قانوناً غيرها ألا ينزل لهم عن كسبه هذا العظيم . . أن ابن الثور ليتحلب لعابه على بنت أخت رئيس العشيرة ، فهى الثمن أو جائزة الفوز لمن يدفىء العشيرة ، ويسعد فى إنضاج طعامها وحفظها أن تتخطفها السباع جراء غياب هـذا الحيوان النافع الضار . . فلقد كان القوم حينذاك « استحيائيين » بلغة الاصطلاح ، أعنى أنهم يضفون الحياة على النار والحجر والشجر وسائر صنوف الجماد ، فكل شىء عندهم حى حتى الأموات الذين ما ينفكون يزورونهم فى الأحلام ، ذلك بأنهم ما كانوا ليفرقوا بين الرؤيا فى النوم وبين الرأى ، رأى العين فى اليقظة ، ولـكن ابن الفهد كان شجاعا باسلا لا يعنيه أن يلاقى ابن الثور نوماً أو يقظة ، فلم يتردد فى أن ينازله وأخويه ويقتلهم جميعاً ، والظاهر أن « جاميلا » كان يسرها أن ينتهى الأمر هـذه

النهاية السعيدة . . ولكن المؤلف يحرص على أن يبين لنا أنها ما كانت لتحتج أن تكشف عن حقيقة عواطفها لو أن الديرة كانت على ابن الفهد ، والنصر حليف ابن الثور ، فهى تعرف القانون ، قانون حق الأقوى ، وتصدق فى طاعته مهما تكن العواقب فهى راضية على كل حال . . إنها إنسانية موغلة فى القدم ، فتلك أحداث وقعت ، أو كان من الممكن أن تقع فيما خيل إلى المؤلف منذ مائة ألف سنة .

قال : فنحن إذن ، فيما قبل التاريخ الذى لا تتجاوز فيما تحسبون وتؤرخون سبعة الآلاف سنة الأخيرة .

قلت : ولكن الآثار والحفريات وعلم طبقات الأرض تخبرنا كثيرا من أخبار القرون الأولى .

قال : فتلك علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . . كذلك أجاب موسى عليه السلام حين سأله فرعون : « فما بال القرون الأولى » ولست أكتمك أنى أشك ، لا فيما وراء الآلاف السبعة فحسب ، بل فى محتواها . . أفلا ترانا نختلف فى الوقائع والأحداث التى نراها رأى العين ، فما بالك بما أتى عليه كر الغداة ومر العشى ما شاء الله أن يأتيا ؟ .

قلت : تلك نظرية فى التاريخ لها أنصارها الجادون الدارسون ، ولكن الذى يشغلنا من حيث الدين هو : أنى الحق أن الإنسان الأول بدأ يُعدِّدُ آلهته ، ولم ينته إلى فكرة التوحيد أو يهتد إليها إلا بعد أن أتى عليه حين من الدهر طال أو قصر ؟ .

قال : ملاك الأمر كله آية الحدثان ، أعنى قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » إنها لأوسع وأخطر من أن نعرض لها بعد أن كل ذهنى عاقبة « حرب النار » وكاتبك ذلك الفرنسى الذى أبيت ألا نشغل به أكثر حديثنا ، فإلى فرصة أخرى نفرغ فيها لمبادىء التوحيد والوحدة التى هى أصل كل شىء ، وهل كانت الكثرة إلا منها وإليها ؟

منهج الإسلام
فى إصلاح عقائد الألوهية والربوبية

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يس سويلم طه

من كبار علماء الأزهر

— ٢ —

« النوع السادس » من أنواع الأساليب التى قرر بها القرآن عقائد التوحيد والتنزيه ، الأساليب التى تقرر أن الله تعالى حى قيوم ، لا تأخذه غفلة عن تدبير أمور الكائنات وتصريف شئونها ، كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سِنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسِع كرسيه السموات والأرض ، ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى تقرر أن الله جل جلاله هو الحى الدائم الحياة ، الذى لا يلحقه فناء ولا عدم ، القيوم الدائم القيام بتدبير أمور الكائنات وحفظها ، وإمدادها بما به قِوامها وحياتها ، فلا حياة لحى إلا وهى مستمدة منه تعالى ، ولا قِوام لشىء فى الوجود إلا به عز شأنه ، ولا تأخذه غفلة عن تدبير شئون خلقه ، ومراقبته لكل ما يجرى فى الكائنات ، ولا يعتريه سبحانه عجز ولا قصور ، ولا يعظم عليه أمر السموات والأرض ، ولا يشق عليه حفظهما على عظمهما وتعدد عوالمهما ، فهو قيوم السموات والأرض الذى لا قِوام لهما إلا به ، وهو العلى العظيم الذى يتضاءل كل عظيم بجانب عظمته ، بل لا عظيم غيره ولا كبير سواه .

« النوع السابع » الأساليب التى تقرر أن الله تعالى هو القادر المقتدر ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، والإبداع والتقدير ، كقوله تعالى فى سورة المائدة : « ولله ملك

السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير » وفى سورة الكهف : « وكان الله على كل شىء مقتدرا » وفى سورة لقمان : « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » وفى سورة فاطر : « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا » وفى سورة الأنعام : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء » وفى سورة الفرقان : « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » وفى سورة القمر : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة ، التى تقرر أن الله جل جلاله قادر مقتدر ، لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، وأنه تعالى متفرد بالخلق والإيجاد والتقدير ، خلق هذه العوالم التى لا تحيط بها العقول والأفهام ، وقدر كل شى خلقه تقديراً معلوما ، ودبر أمره تدبيراً محكما ، وكون عناصر الكائنات من مقادير مقدرة بموازين دقيقة محكمة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الرعد : « وكل شىء عنده بمقدار » وفى سورة الحجر : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » .

وجعل لكل عالم من العوالم الكونية ناموساً لا يتعداه ، ووضع له من السنن الكونية ما يحفظ عليه بقاء نوعه إلى الأجل المكتوب له ، ومكن للضعيف منها أن يعيش بجانب القوى ، بما هيأ له من وسائل الحياة والبقاء ، وجعل للجميع نظاما عاما يربط بينها برباط وثيق ، وينظم روابط التعاون بين العوالم العلوية والعوالم السفلية ، فجميع العوالم الكونية قائمة على سنن معينة وأنظمة محكمة ، وجارية على أحسن الوجوه وأكملها ، وأبدع النظم وأعدلها ، ومشمولة بالعناية الإلهية والرعاية الربانية ، لا فرق فى ذلك بين العوالم العلوية والعوالم السفلية ، ولا بين الصغير منها والكبير ، ولا بين العاقل منها وغير العاقل ، كما يشير إلى ذلك قول الله عز وجل فى سورة الأنعام : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون » وإن نظرة واحدة فى أنظمة حياة الحيوانات فى البر والبحر ، لتدل دلالة قاطعة على أن عين العناية الربانية تلحظ برعايتها كل شىء فى هذا الوجود ، فتبارك الله رب العالمين .

« النوع الثامن » الأساليب التى تقرر تفرده تعالى بالملك والملكوت ، والتدبير والتصريف ، والعزة والجبروت ، كقوله تعالى فى سورة المائدة : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير » وفى سورة يس : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » وفى سورة السجدة : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » إلى غير ذلك من الآيات التى تقرر أن الله تعالى هو مالك الملك وحده ، وبيده مقاليد السموات والأرض ، وله الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمآب ، كما قال سبحانه فى سورة الأعراف : « ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » وفى سورة آل عمران : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » وفى سورة النور : « ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير » .

فكل الكائنات فى قبضة قدرته ، وحادثة بخلقه وتقديره ، وسائرة بتدبيره وتصريفه ، وخاضعة لسلطانه وقهره ، كما قال جل جلاله فى سورة الأنعام : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » وفى سورة الزمر : « سبحانه هو الله الواحد القهار » قهر الحياة بالموت ، والصحة بالمرض ، والعز بالذل ، والغنى بالفقر ، والشباب بالشيخوخة ، والفرح بالحزن ، والرخاء بالشدة ، والبغى والطغيان بالبطش والانتقام ، والغفلة والبطر بالشدائد والنذر ، وهكذا قهر كل شىء فى هذا الوجود بضده ، إظهاراً لقدرته وحكمته ، وتعريفاً بجلاله وعظمته ، وإعلاماً بسلطانه وهيمنته ، فسبحانه هو الله الواحد القهار .

« النوع التاسع » الأساليب التى تقرر أن الله تعالى عليم خبير ، كقوله تعالى فى سورة الأنعام : « وهو الله فى السموات وفى الأرض ، يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » وفيها أيضاً : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وفى سورة يونس : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »

وفى سورة لقمان : « إن الله عليم خبير » إلى غير ذلك من الآيات التى تقرر أن الله تعالى عالم بجميع المعلومات ، محيط بكل ما يجرى فى الكائنات ، مطلع على هواجس الخواطر وخفايا السرائر ، خبير بمطويات النفوس ومكنونات القلوب ، فلا تخفى على الله خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، كما قال عز وجل فى سورة الطلاق : « وأن الله قد أحاط بكل شىء علما » وفى سورة الجن : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً » .

« النوع العاشر » الأساليب التى تقرر أن الله تعالى سميع بصير ، كقوله تعالى فى سورة الإسراء : « إنه هو السميع البصير » وفى سورة لقمان : « إن الله سميع بصير » وقوله تعالى فى سورة طه خطاباً لموسى وأخيه هارون عليهما السلام : « قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » وفى سورة المجادلة خطابا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » إلى غير ذلك من الآيات التى تقرر أن الله تعالى سميع بصير ، لا يعزب عن سمعه مسموع ، ولا يغيب عن بصره مرئى ، ولا يمنع سمعه بعد ، ولا يحجب رؤيته ظلام ، بل يسمع دبيب النملة على الصخرة الصماء ، ويرى كل ذرة فى الأرض والسماء .

« النوع الحادى عشر » الأساليب التى تقرر عموم إرادته تعالى ومشيئته ، كقوله تعالى فى سورة يس : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » وفى سورة التكوير : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » وفى سورة آل عمران : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » وفى سورة هود : « إن ربك فعال لما يريد » .

فالله جل جلاله مريد لكل حادث ، مدبر لكل كائن ، له الإرادة العامة والمشيئة النافذة ، وهو الفعال لما يريد ، فلا يخرج عن إرادته لفتة ناظر ، ولا يند عن مشيئته لمحة خاطر ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، أراد سبحانه

وجود هذه المخلوقات ، وقدر لوجودها الحدود والأوقات ، فوجدت فى أوقاتها كما أراد فى أزله ، وجاءت فى حدودها كما سبق فى علمه ، فكل الكائنات حادثة بقدرته ، وواقعة بإرادته ومشيئته ، ومحكومة بتدبيره وهيمنته ، يقدر الأمور بعلمه وحكمته ، ويصدرها بإرادته وقدرته ، ويصرفها بتدبيره ومشيئته ، لا معارض لإرادته ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، كما قال جل جلاله فى سورة فاطر : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » وفى سورة الرعد : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » وفيها أيضاً : « والله يحكم لامعقب لحكمه » .

« النوع الثانى عشر » الأساليب التى تقرر عقيدة القضاء والقدر ، كقوله تعالى فى سورة الحديد : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » وفى سورة التوبة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وفى سورة آل عمران : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا » وفيها أيضاً : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وفى سورة النمل : « وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين » إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن جميع الكائنات جارية بقضاء الله وقدرته ، وأن كل ما يجرى فى الكون من حركة وسكون ، ووجود وعدم ، وخير وشر ، فإنما هو جار على قدر سابق قضاه الله وقدره ، وأن ما قدره الله لا بد أن يقع كما قدره ، فالله جل جلاله قدر جميع الكائنات قبل وقوعها ، وحدد الأزمنة والأمكنة التى ستقع فيها ، والأحوال والكيفيات التى ستوجد عليها ، والأسباب الظاهرة والخفية التى يرتبط بها وقوعها ، وقدر ذلك كله على وفق علمه تعالى وإرادته ، فكل الكائنات معلومة لله قبل وقوعها ، ومقدرة منه تعالى على وفق علمه وإرادته ، وقد جاءت السنة النبوية أيضاً بعقيدة القدر ووجوب الإيمان به ، كما جاء فيما رواه مسلم وغيره ، من قوله صلى الله عليه وسلم فى بيان حقيقة الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » وفيما رواه الترمذى : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم

أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وفيما رواه الترمذى وغيره « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وطويت الصحف » .

فالقدر ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف ، والإيمان به واجب ، كما قال النووى فى شرح صحيح مسلم :

هذا وللعلماء فى تفسير القضاء والقدر أقوال كثيرة ، أظهرها فيما نرى أنهما بمعنى واحد ، وهو تحديد الأشياء بحدودها التى ستوجد عليها ، وهذا هو الذى يرشد إليه الاقتصار على لفظ القدر ، فى حديثى مسلم والترمذى وغيرهما ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد ومسلم وابن ماجه : « وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان » .

فإن قال قائل : كيف نوفق بين ما تضمنته عقيدة القدر ، من أن أفعال العباد مقدرة ومكتوبة عليهم ، وأن ما قدره الله لا بد أن يقع كما قدره ، وبين مسئوليتهم عن هذه الأفعال واستحقاقهم للمجازاة عليها ، مع أنه لا مفر من القضاء المحتوم ، ولا مهرب من القدر المكتوب ، ولا تكليف ولا مسئولية إلا مع الإرادة والاختيار ، قلنا يجاب عن ذلك من ثلاثة وجوه :

الوجه الأول : أن القدر الخاص بأفعال العباد وسلوكهم ، ليس مبنيا ابتداء على إجبار الله الإنسان على فعل ما كتبه عليه وقدره ، حتى يكون منافياً لمسئوليته عن أعماله ومجازاته عليها ، وإنما هو مبنى على سابق علم الله بما سيكون من سلوك الإنسان وعمله بإرادته واختياره ، فالقدر تابع فى التعقل لعلم الله بما سيكون عليه الإنسان فى سلوكه الاختيارى ، فأفعال العباد صادرة عنهم بإرادتهم واختيارهم وإن كانت مكتوبة ومقدرة عليهم ، فلا منافاة بين عقيدة القدر ومسئوليتهم عنها ، ومجازاتهم عليها .

الوجه الثانى : أن كل إنسان يعلم بالبداهة أن أفعاله لا تصدر عنه بطريق الجبر والإكراه ، ولا بقصد تنفيذ ما قدره الله عليه لأنه لا يعلمه قبل أن يفعله ، وإنما

تصدر عنه بإرادته واختياره ، وبدافع البواعث التى تبعثه على فعلها ، والنيات التى تصاحبها وتحدد مقاصدها ، فالذى يفعل الخير يفعله باختياره طاعة لله لا تنفيذاً لما قدره الله عليه ، وكان فى استطاعته بحسب ما يعرف من نفسه أن يترك هذا الخير الذى فعله ، ولكنه آثر طاعة الله تعالى على طاعة الهوى والشيطان ، والذى يفعل الشر يفعله باختياره طاعة للهوى والشيطان لا تنفيذاً لما قدره الله عليه ، وكان يستطيع بحسب ما يعرف من نفسه أن يجتنب الشر الذى فعله ، ولكنه آثر طاعة الهوى والشيطان على طاعة الله تعالى ، فهذا الاختيار الذى يعرفه كل إنسان من نفسه فى أفعاله ، وهذه البواعث النفسية التى تبعثه عليها ، وهذه النيات القلبية التى تصاحبها وتحدد مقاصدها ، هى مناط التكليف والمسئولية والجزاء ، وهى التى تجعل أفعال العباد كسباً اختيارياً لهم ، فلا منافاة إذاً بين عقيدة القدر ومبدأ المسئولية والجزاء .

الوجه الثالث : أن نسالك فى ذلك مسلك الأخذ بما نعلم ، ونفوض الأمر إلى الله تعالى فيما لا نعلم ، فنؤمن بعقيدة القضاء والقدر ، ونؤمن كذلك بمبدأ المسئولية والجزاء ، لأننا نعلم ثبوتهما بالكتاب والسنة وإجماع السلف والخلف ، ونفوض الأمر فيما لا نعلمه من التوفيق بينهما إلى علم الله بذلك ، وإيماننا بحكمته تعالى فى أفعاله وعدله فى قضائه ، ولا يخفى ما فى هذا الوجه من الاحتياط فى الاعتقاد والسلامة من الزلل ، ومناسبته للعامة وقربه من أفهامهم .

ومما تقدم تتضح لنا الحقائق الآتية :

الحقيقة الأولى : أنه لا يصح لأحد أن يحتج بالقدر على عصيانه وسوء سلوكه ، لأنه يعلم أن القدر محجوب عنه لا علم له به ، ويعلم أن الله تعالى بين له طريق الخير وأمره باتباعه ، وبين له طريق الشر ونهاه عن سلوكه ، ويعرف من نفسه أنه كان يستطيع أن يسلك طريق الخير ويجتنب طريق الشر ، وأن عدوله عن طريق الخير إلى طريق الشر كان بإرادته واختياره ، فاحتجاجه مع ذلك بالقضاء والقدر ، إنما هو احتجاج باطل لا يخليه من المسئولية عن أعماله واستحقاقه للجزاء عليها .

الحقيقة الثانية : أنه لا يجوز لنا أن نتعلق بالقدر ابتداء فى الشئون التى تدخل تحت علمنا وقدرتنا ، فلا يجوز لنا أن نحيل الأمر على القدر فى القعود عن السعى والعمل ، والتواكل فى تحصيل مطالبنا وحاجاتنا ، ولا أن نتعلل به فى إهمالنا

وتقصيرنا فى تدبير أمورنا وتصريف شئوننا ، وتفريطنا فى دفع أسباب الشر عن أنفسنا وأوطاننا ، بل يجب علينا أن نبذل كل ما نستطيع من سعى وعمل ، وجهاد وكفاح ، وما نملك من علم وفكر ، وقدرة وتدبير ، وأن نستمد من الله العون والتأييد فى سعينا وكفاحنا ، والهداية والتوفيق لأرشد الأمور فى تفكيرنا وتدبيرنا ، ونفوض الأمر فيما وراء ذلك إلى سنن الله تعالى فى ترتيب المسببات على أسبابها ، وصيرورة الأمور ورجوعها فى النهاية إلى قضاء الله تعالى وقدره ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الشورى : « ألا إلى الله تصير الأمور » .

الحقيقة الثالثة : أن الذى يحال على تصاريف القدر ابتداء ، هو ما لا يدخل تحت علمنا وقدرتنا من الأسباب والسنن الإلهية المحجوبة عنا ، فهذه الأسباب والسنن هى التى نعتصم فى تدبيرها بالقدر ابتداء وانتهاء ، وندع أمورها تجرى فى مجاريها التى رسمها لها القدر ، ونفوض الأمر فيها إلى الله يدبرها بحكمته ويصرفها بمشيئته ، والخلاصة أن ما يدخل فى دائرة علمنا وقدرتنا وتدبيرنا ، فإن الأمر فى تدبيره وتصريفه يرجع إلينا ابتداء ، وإلى تصاريف القدر انتهاء ، وأن ما لا يدخل فى دائرة علمنا وقدرتنا وتدبيرنا ، فإن الأمر فيه يرجع إلى تصاريف القدر ابتداء وانتهاء .

« النوع الثالث عشر » الأساليب التى تعرف الناس بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وتوجه عقولهم وأفهامهم إلى مدلولاتها التى تصعد بالأرواح إلى مشاهدة جمال الله وكمال ذاته وصفاته ، ومطالعة هيمنته تعالى وعظمته وجلاله ، وتملأ القلوب بالرجاء فى فضله ورحمته ، والخوف من عقابه وبطشه ، وتصل بروعة معانيها إلى أعماق النفوس ، وتثير فيها كوامن الشوق والحنين إلى التعرف إلى الله فى الرخاء والشدة ، وتبعثها على الإقبال على طاعة الله والفرار من عصيانه ، كقوله تعالى فى سورة الحشر : « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » إلى غير ذلك مما جاء فى كثير من فواتح السور وفواصل الآيات .

فذكر أسماء الله الحسنى بألسنة صادقة وقلوب مخلصة ، يذهب الغفلة عن القلوب ويملؤها بالسكينة والطمأنينة ، كما قال تعالى فى سورة الرعد : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . وهو يشفى أمراض النفوس ، كما قيل :

إذا مرضنا تداوينا بذكركمو ونسى الذكر أحياناً فننتكس

ويقوى صلتها بالله عز وجل ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى ومسلم : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث ذكرنى » .

ودعاء الله بها فى مواقف الجهاد والكفاح ، ومواقع الشدائد والمحن ، ومواطن الندم والتوبة ، ومشاهد العظة والعبرة ، يقوى العزائم ، ويثبت القلوب ، ويستنزل السكينة على النفوس ، ويقيها شرور القلق والاضطراب ، ويدفع عنها اليأس والقنوط ، ويهون عليها وقع الشدائد والمحن ، ويفتح لها أبواب الرجاء فى تحقيق الآمال وتفريج الكرب ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » .

فالذى يسعى ويعمل ، ويكد ويكافح ، إذا ذكر الله تعالى فى سعيه وكفاحه ، واستحضر فى نفسه أنه القادر المقتدر ، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فإن ذلك يبعث فى نفسه القوة والعزم ، والصبر والجلد ، ويملأ قلبه بالرجاء فى مدد الله وعونه وتوفيقه ، وتيسير أسباب النجاح فى سعيه وعمله ، ووسائل التأييد والنصر فى جهاده وكفاحه .

والذى نزلت به شدة ومحنة ، إذا ذكر الله فى شدته ومحنته ، واستحضر فى نفسه أنه الكريم المنان ، القادر على تفريج الشدائد والكرب ، وتذكر ألطافه الخفية فى قضائه وقدره ، فإن ذلك ينفى عنه الضيق والاضطراب مما قضاه الله وقدره ، ويعصمه من الهلع والجزع ، ويحمله على جميل الصبر والرضا ، ويهون عليه وقع الشدة وأثر المحنة ، ويدفع عنه اليأس والقنوط ، ويملأ نفسه بالرجاء فى كشف الغمة وتفريج الكربة .

والذى غلبه الهوى وزلت به القدم ، إذا تذكر أن الله عفو غفور ، تواب رحيم ، يقبل توبة التائبين ، ويغفر ذنوب المستغفرين ، فإن ذلك يفتح له باب التوبة والرجوع إلى ربه ، ويملأ قلبه بالأمل فى فضل الله وكرمه ، والرجاء فى عفوه ورحمته ، وقبول توبته وغفران ذنبه .

والذى حدثته نفسه بالإقدام على فعل المعصية ، فتذكر أن الله رقيب عليه فى سره وجهره ، وأنه المهيمن العزيز الجبار ، قوى البطش شديد العقاب ، فإن ذلك يحمله على كف نفسه عن فعل المعصية التى حدثته نفسه بالإقدام عليها ، وهكذا الشأن فى ذكر ما يناسب من أسماء الله الحسنى لكل موقف من مواقف الحياة وشئونها .

أما غفلة الإنسان عن ذكر الله فى سلوكه وشئون حياته ، فإنها تميت قلبه ، وتُدسِّى نفسه ، وتوجب قطيعته عن الله عز وجل ، وحرمانه من مدده الغيبىّ ، وألطافه الخفية ، وتنمى فى نفسه نوازع الضلال والانحراف ، وإذا نزلت به شدة ومحنة ، استحوذت عليه هواجس الشر وخواطر السوء ، واستبد به الضيق والاضطراب ، وأوصد اليأس فى وجهه أبواب الأمل والرجاء ، وسد عليه منافذ التفكير السليم والتدبير السديد ، وكان أمره إفراطاً فى الغى والضلال ، وسوء التفكير وفساد التدبير ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الكهف : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

« وبعد ، فهذه صورة إجمالية لمنهج القرآن فى تقرير عقائد الألوهية والربوبية ، وهو المنهج الذى يجعل مجال الفكر والنظر فى دلائل التوحيد والتنزيه سهلا ميسرا ، وطريق الوصول إلى معرفة الله قريباً معبدا ، ويصل بالناظر فيه إلى مرتبة اليقين القلبى والذوق الوجدانى ، بخلاف منهج الفلسفة الجدلية المعقدة ، فإنها لا تصل بالناظر فيها إلى مرتبة الطمأنينة واليقين ، إذ قلما يعرف قضاياها ذوقا واقتناعا ، وإن عرفها صناعة وجدلا ، بل كثيراً ما تحجب عنه نور الحقائق الفطرية ، وتكدر عليه صفو المعارف الوجدانية ، وتملأ نفسه بتأويلات وتشكيكات لا تغنى من الحق شيئا ، فقد رأينا كيف قرر القرآن هذه العقائد تقريراً محكما ، وخلصها من شوائب الوثنية والشرك ، ونفى عنها تحريف المضللين وتأويل الجاهلين ، وكيف جلاها

للعقول والأفهام فى روعة الحق وجلال الصدق ، وجاء بها فى أساليب قوية رائعة ، تعطف بها القلوب النافرة ، وتلين لها العريكة المتعصية ، وتنقاد إليها النفوس الشاردة ، وتكشف عن القلوب غمة الشك وظلمة الجهل ، وتصعد بها فى مراتب الإيمان إلى مرتبة الإذعان النفسى واليقين القلبى ، وتصل بالعقول فى درجات المعرفة إلى درجة الرسوخ العلمى والذوق الوجدانى ، وتكشف للتائهين عن المجاهل التى فيها يتيهون ، وتبين لهم السَّنن[1] اللاحب الذى به يهتدون ، وتغمر بفيض قراها[2] كل سار يَعشو[3] إلى ضوء نورها ، وتملأ قلبه بالتوحيد النقى الخالص ، الذى يطهر قلبه ويزكى نفسه ، ويرفع شأنه ويعلى مكانته ، ويحرر عقله وفكره من رق الأوهام والخرافات ، ويجعله إنساناً كاملا فى إنسانيته ، وعزيزاً كريماً فى نفسه ، وعبداً خالص العبودية لربه ، لايتجه بدعائه وعبادته إلا لخالق الأرض والسموات ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لله الواحد القهار .

فمن عرف للحق قدره وقداسته ، وحكم عقله وفكره وضميره فى هذه الدلائل الصادعة بالحق ، والآيات البينات الناطقة بالصدق ، ووجد فيها إقناعاً لعقله وطمأنينة لقلبه ، وفى قراها غذاء لروحه وسكناً لنفسه ، فقد هدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ومن ركب رأسه واستبد به الهوى والغرور ، واستحوذت عليه العصبية الطاغية والتقليد الأعمى ، واتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وضاقت عليه رحاب هذه الدلائل والآيات ، فلم يجد فيها إقناعاً لعقله وسعة لفكره وانشراحاً لصدره ، فلا وسعته أرض بأوديتها وآفاقها ، ولا رحبته سماء بأجرامها وأفلاكها ، فالله جل جلاله يقول فى سورة الأنعام : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ، وهذا صراط ربك مستقيما ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » وفى سورة الجاثية : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » ؟

---

(١) الطريق البين الواضح المعالم . (٢) القرى : ما يقدم للضيف .

(٣) عشا النار وإليها : رآها ليلا فقصدها .

ندوة فى الأزهر
عن التقريب بين المذاهب الإسلامية

دعت مجلة « المصور » المصرية ، إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية دعوة حارة فى ثلاثة أعداد منها بدأت بالعدد ٢١٠٠ ، إذ كتب الكاتب المعروف الأستاذ أحمد بهاء الدين أحد رئيسى تحريرها مقالا ضافيا عرض فيه لآثار تعدد المذاهب الإسلامية فى مختلف بلاد المسلمين ، وما يقع بين الطوائف من خلافات ومشكلات تؤدى إلى التقاطع والتخاصم ، وإلى الاشتغال بما لا جدوى فيه من المجادلات .

وبالرغم من أن مقاله قد اشتمل على بعض ما لا نقره عليه ، فإنه كان مقالا يتجه اتجاها طيبا نحو جمع كلمة المسلمين ، والعمل على تصفية الخلافات بينهم أو وقفها مع التفرغ لما تصلح عليه الأمة الإسلامية من وحدة وائتلاف ، وقد جاء فى هذا المقال ما يأتى :

إن الذين « تشيعوا لعلى بن أبى طالب » كانوا يشايعونه لأنهم يعتقدون أنه أصلح المسلمين للخلافة أولا ، ولأنه ابن عم النبى ثانيا ، وكانوا يعتبرون معاوية معتديا على حق علىّ فى الخلافة ، ثم جاءت خدعة التحكيم ، وقبول على لنتيجته ، ثم استشهاده على يد قاتله بالمسجد ، فأضافت كل هذه الظروف سببا عاطفيا ونفسيا قويا : فهذا بطل الإسلام وابن عم النبى والخليفة العادل يعزل ويقتل على مرأى ومسمع من المسلمين ، يضاف إلى ذلك أنه باستيلاء الأمويين على السلطة ظهرت الأسر الملكية لأول مرة فى الإسلام بترفها ودهائها وتوارثها العرش ، ومن هذا كله تولدت تلك الطاقة الشيعية الهائلة ، وبقيت الطائفة بتقاليدها العظيمة فى العراق حتى الآن .

وللشيعة فضل على تاريخ الإسلام ، إنهم دعوا دعوة تقدمية تقول إن باب الاجتهاد ما زال مفتوحا ، ما دام هذا الاجتهاد متفقا مع القرآن والسنة ، وما يقضى به العقل السليم .

والشيعة تختلف عن السنة فى أنها تؤمن بالإمامة . وتعتقد فى اثنى عشر إماما متسلسلين من نسل على بن أبى طالب ، كما أنهم يختلفون مع السنة فى الاعتراف بهذا المصدر أو ذاك من رواة الأحاديث النبوية المعتمدة .

وبعد ذلك توجد خلافات طفيفة فيما أعتقد : كاعتراف الشيعة بزواج المتعة ، أى الزواج المؤقت ، وعدم اعتراف السنة به ، وكاشتراط الشيعة ألا يتم الطلاق إلا بحضور اثنين من الشهود لعلهما يفلحان فى إقناع الزوجين بالعدول عن الطلاق ، وكاعتقادهم أن « الطلاق بالثلاثة » لا يساوى إلا طلقة واحدة ، وكلها اتجاهات - دون الحكم لها أو عليها - لها دوافع « اجتماعية » معقولة تقبل المناقشة .

والزيدية : وهى أحد المذهبين الكبيرين فى اليمن حاليا ، نشأت منبثقة عن الشيعة ، فهى تنتسب إلى زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان زيد هو أول أحفاد على فى حمل السلاح ضد بنى أمية ، وقد ظل يحارب حتى مات مستشهدا .

ورغم أن الزيدية تعد من فرق الشيعة ، إلا أنها فى الواقع مذهب وسط بين السنة والشيعة ، فالزيديون يؤمنون بالإمامة ، ولكنهم يعترفون بأنه من الصعب أن يقال إن الإمام يجب أن يكون أفضل الناس جميعا ، فلا بأس عندهم من أن يعين إمام آخر ، يسمونه الإمام المفضول ، إذا كان فى اختياره مصلحة سياسية عامة للمسلمين ، كذلك فهم يجيزون الثورة على « إمام الجور » أى الحاكم الظالم ، وخلعه من منصبه .

والمذهب السنى مذهب حديث نسبيا ، وهو مذهب اتجه إلى المرونة والتسامح واليسر ، كرد فعل آخر لتشدد المعتزلة الذى ذهب بهم إلى حدد التعصب والمغالاة ، وهم فى مسألة الحكم يعتقدون أن الحاكم لا يجب أن يكون من سلالة معينة ولا من جنس معين ، والمذهب السنى يشمل المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة . . . وهى المذاهب المنتشرة فى العراق أيضا وفى سوريا والأردن ومصر والسودان .

وفى تاريخ متأخر ، تفرع المذهب الوهابى السائد حاليا فى المملكة السعودية ، عن المذهب السنى . . وتميز المذهب الجديد بمحاربته للبدع مثل زيارة الأضرحة ، وزيارة المقابر ، وإقامة الأذكار .

وقد عرفت معظم المذاهب الإسلامية الموجودة حاليا ، صورا من التطرف والانحراف على يد بعض المنادين بها ، ولكن معظم هذه الصور المتطرفة والمنحرفة اندثرت وانقرضت باندثار عللها وأسبابها ، وأخذت كلها تميل إلى الاعتدال والتسامح والعقل ، أى أخذت تميل إلى جوهر الإسلام الحقيق ، ولكن خلافاتها القديمة التى طالما خضبتها بالدماء فى بعض العصور بقيت موجودة وإن كانت ساكنة جامدة ، موجودة تظهر أحيانا كعنصر محرك وراء كثير من عوامل التفرقة بين أبناء الدين الواحد ، والشعب الواحد ، والقطر الواحد .

وكالعادة فى كل زمان ومكان ، نجد أن كثيراً من المصالح « الدنيوية » طبقية أو اقطاعية أو عشائرية ، تتحصن وراء هذه الخلافات وتعمل على تعميقها ، لكى تبقى هذه المصالح لأصحابها ، حتى أصبح هناك فريقان : جمهور هو الأغلبية ، وهو أبناء هذه الطوائف الطيبون ، وقلة يحترفون الاتجار بالطائفية ، ويحترفون استغلال المشاعر الطائفية ، تحقيقا لمصالحهم الخاصة . . .

وبعد . . . فإننى لا أعرف بالضبط إلى من أتوجه بالخطاب فى هذا المقال .

هل أتوجه به إلى نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف المهندس أحمد الشرباصى ، أو إلى الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر ، أو إلى الأستاذ أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر . . أو إليهم جميعا وإلى كل القادة الدينيين المستنيرين ، فى كل البلاد العربية ، من شتى المذاهب الاسلامية ؟ .

لابد من مجهود شجاع يبذل للتقريب بين المذاهب الإسلامية ، تمهيداً لتوحيدها على المدى الطويل .

فالخلافات الاساسية بينها يمكن بالتأكيد حلها بالتفسير المستنير السليم للدين .

أما الخلافات الفرعية ، فلم يعد مقبولا أن يختلف المسلمون حول أحكام مثل :

« هل يسير المشيعون فى الجنازة خلف جثمان الميت أم أمامه ، وهل يتم الوضوء بترتيب معين أم بغير ترتيب . . . وهل . . . وهل . . .

ومثل هـذا الجهد يحتاج أولا أن تأتى أكثر من مبادرة من أكثر من جهة . ويحتاج ثانيا إلى أن يتم بحثه فى جو هادىء بعيد عن ضجة الدعاية واستغلال السياسة . ويحتاج ثالثا إلى زمن وصبر طويلين .

* * *

٢ — وقد بعث فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى رئيس تحرير مجلة رسالة الإسلام إلى الأستاذ بهاء الدين إثر قراءته لهذا المقال بالكتاب الآتى نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الكبير أحمد بهاء الدين رئيس التحرير ـ مجلة المصور

سلام الله عليكم ورحمته ، أما بعد : فقد قرأت باهتمام مقالكم المنشور بالعدد ٢١٠٠ الصادر من مجلة المصور فى ٦ من رمضان سنة ١٣٨٤ هـ (٨ من يناير سنة ١٩٦٥ م) بعنوان « السنة والشيعة والزيدية » .

ولا شك أن الموضوع الذى طرقتموه موضوع خطير فى حياة الأمة الإسلامية عامة ، والشعوب العربية خاصة ، فإنه لم يعد هناك مجال لبقاء التناحر القائم على العصبيات المذهبية المنتسبة إلى الدين فى ظاهرها ، والتى يبرأ الدين منها ، وينهى الله ورسوله عنها ، والتى هى فى الحقيقة ميراث ثقيل ورثته الأمة الإسلامية عن عهود اشتجرت فيها بعض الخلافات النظرية ، والمعارف الكلامية ، فى قضايا ليست من أصول الدين ، ولا مما هو ركن فى إيمان المؤمنين .

وربما كان للعوامل التى ذكرتموها فى مقالكم أثر فى خلق هذه الخلافات أو فى تزكيتها ، ثم تطاول العهد عليها فأصبحت فى أذهان العامة وبعض الخاصة أموراً جديرة بالاهتمام ، ومجالات يختصم فيها أهل الإسلام ، ولكن الكارثة الكبرى هى أن المستعمرين المغتصبين لمختلف البلاد الإسلامية اتخذوا من هـذه الخلافات الموروثة أسبابا سهلة ميسرة لما قاموا به من التفريق والتقطيع وضرب الأمة بعضها

ببعض ، وكان من سياستهم ودهائهم أن يؤرثوا نيران العداوة بين أرباب المذاهب المختلفة فى كل شعب إسلامى وعربى ، وأن يعملوا بكل حيلة على أن تبقى هذه النيران مضطرمة متوهجة حينما كانت مذاهب إسلامية ، حتى تظل لهم السيطرة والقيادة ، ويضمنوا اتجاه جميع رجال المذاهب إليهم ، شاكين أو مستنصرين .

وكان من آثار ذلك أن تخلفت الأمة الإسلامية عن الركب العالمى الحضارى ، وقد كانت من قبل فى مقدمته ، وأن تمكن أعداؤها والطامعون فى خيراتها من مرافقها وأحكامها وسلطانها ، وجعلوا يوجهونها فى غفلة أهلها كما يشاءون ، شعبا شعبا ، وطائفة طائفة ، مستعينين بهؤلاء على هؤلاء ضاربين بعضهم ببعض ، مما حقق عليهم سنة الله فى المتفرقين المتنازعين ، وهى المصير إلى الضعف والذل والاستعمار والاستعباد .

والذى أريد أن أقوله لسيادتكم هو أن هناك جماعة من أهل العلم والفكر ، ومن مختلف أبناء المذاهب الإسلامية قاموا بما يجب عليهم أن يقوموا به من تبصير الأمة الإسلامية والعربية فى مختلف الشعوب والطوائف ، بعواقب هذا التفرق الخطير ، ووجوب التخلص من مآسيه الصادرة عن العصبيات الجامحة ، والعداوات الطائشة التى لا مبرر لها .

ألفت هذه الجماعة منذ قرابة عشرين عاما فى القاهرة باسم « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » .

وجمعت صفوة من قادة العلم والدين ، كان فى مقدمتهم المغفور لهم : الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، والأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، والأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، وكلهم قد تولى منصب مشيخة الأزهر ، وكان معروفا بالعلم والتقوى والقيادة الفكرية ، وهم فى مقدمة من يمثلون مذاهب السنة الأربعة المعروفة .

كما كان فى مقدمتهم المغفور لهم : الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الشيعى العراقى ، والشيخ عبد الحسين شرف الدين الموسوى الشيعى اللبنانى ، وكلاهما عالم غزير العلم ، إمام مقدم فى وطنه ، له جهاده وتوجيهه وأعماله العظيمة .

كما كان منهم السيد محمد حسين أقا بروجردى زعيم الشيعة الإمامية بإيران ، وكان مركزه الدينى فى مدينة « قم » الشهيرة بعلمائها وتلاميذها ، كشهرة النجف فى العراق ، والأزهر فى مصر .

وكان أول من دعا إلى هذه الفكرة ، وإلى تأليف هذه الجماعة عالم من علماء الشيعة الإمامية بإيران – ما زال قائماً إلى الآن فى مصر يحمل لواءها – هو سماحة الأستاذ محمد تقى القمى ، أطال الله حياته .

وقد اعتنق هذه الفكرة مئات الألوف فى مختلف البلاد الإسلامية ، فانتسبوا إلى جماعتها ، واتصلوا بدارها فى القاهرة ، ومجلتها « رسالة الإسلام » التى تصدر بانتظام منذ خمسة عشر عاما ، وتعالج دعوة التقريب على مستوى عال ، وفى إنصاف وهدوء وبعد عن التحمس أو التعصب .

ولقد أسست هذه الجماعة مقراً لها بمدينة القاهرة يعرف بدار التقريب بين المذاهب الإسلامية (وهو الفيلا رقم ١٩ شارع أحمد حشمت بالزمالك) وهذه الدار هى المركز الرئيسى للجماعة ، وبها مكتبتها التى تحوى كتب المذاهب الإسلامية ، ويرجع إليها المشتغلون بالفقه الإسلامى الذى يمثلها ، قارئين أو مستعيرين ، وهى تمد الهيئات العلمية بكثير من كتبها .

وهى قائمة بطبع الكتب العلمية فى مختلف المذاهب الإسلامية بنفسها وبمعونة وزارة الأوقاف ، وقد كان لفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد حسن الباقورى مدير جامعة الأزهر ، فضل كبير فى إخراج كتاب من كتبها هو كتاب « المختصر النافع فى فقه الشيعة الإمامية » يوم كان وزيراً للأوقاف المصرية ، وقد أدى هذا الكتاب خدمة كبرى لأهل العلم فى مصر ومختلف بلاد العالم الإسلامى ، وأصبح مرجعا للباحثين وأساتذة الجامعات وطلابها ، كما قامت بطبع موسوعة كبرى من موسوعات تفسير القرآن الكريم ، وهى الكتاب المعروف بمجمع البيان لعلوم القرآن الذى ألفه إمام من أئمة الشيعة الجعفرية الإمامية ، هو الإمام الطبرسى ، ونهج فيه نهجا تحقيقيا محايدا ، والذى أشار بطبعه هو فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

عبد المجيد سليم شيخ الأزهر يوم ذاك ، والذى كتب مقدمته العلميـة القوية ، هو المغفور له شيخ الجامع الأزهر السابق الشيخ محمود شلتوت .

إلى غير ذلك من الكتب والرسائل والبحوث .

وتجمع « دار التقريب » بين سجلاتها ومحفوظاتها كثيرا من الرسائل العلمية التى دارت بين أقطابها من أئمة الشيعة والسنة مما أدى فعلا إلى أن خفت حدة الخلاف بين المسلمين ، وأصبح الشيعة فى العراق ، وإيران ، وسوريا ، ولبنان ، وغيرها يشعرون بأنهم إخوة فى الإسلام والعلم لزملائهم من السنة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى علماء الزيدية الذين لهم من يمثلهم فى جماعة التقريب ، ولجماعة التقريب فى بلادهم وبين علمائهم مقام محمود .

وكان من أثر هـذا التقارب أن الأزهر قرر دراسة المذهب الشيعى الإمامى والزيدى فى أكبر كلية من كلياته وهى كلية الشريعة ، وأن قانون إصلاح الأزهر الجديد أقره على ذلك ، وما زالت كلية الشريعة تطبق مناهجه ، كما أن جامعة إيران أدخلت دراسة فقه السنة فى كلية المعقول والمنقول بها ، وذلك استجابة لسعى جماعة التقريب .

وهاهى ذى مجلة « رسالة الإسلام » التى تصدرها جماعة التقريب منذ خمسة عشر عاما ، تقوم بالسفارة بين أرباب المذاهب الإسلامية فى مختلف الشعوب ، ولها مركزها التوجيهى الإسلامى فى نفوس قارئيها ، وهى ترسل أيضا إلى مختلف المراكز العلمية فى أوروبا وأمريكا ، وتتبادل العلوم والمعارف مع المؤسسات العلمية المختلفة ، ويسرنا أن نبعث إلى سيادتكم ببعض أعدادها ، لتروا بأنفسكم جهودها ، وتدركوا أهمية رسالتها .

* * *

ويتلخص منهج هذه الجماعة فيما يأتى :

١ ـ أن جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية لا تريد المساس بالفقه الإسلامى ولا إدماج مذاهبه بعضها فى بعض ، بل هى على النقيض من ذلك ، ترى فى هـذا

الاختلاف الفقهى مفخرة للسلمين ، لأنه دليل على خصوبة فى التفكير ، وسعة فى الأفق ، واستيفاء وحسن تقدير للصالح التى أنزل الله شريعته لكفالتها وصونها ، وكل ما تبذله الجماعة من جهود فى سبيل الفقه الإسلامى ؛ إنما هو فى دائرة خدمته وتنميته وتسليط نوره الوهاج على شئون الحياة الإسلامية المتطورة ، وبحث المشكلات التى جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها .

٢ ـ ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية التى تعتقد العقائد الصحيحة التى يجب الإيمان بها .

٣ ـ وهى ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية يجعلون لبعض المعارف والآراء التى لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنابز بالألقاب ، ونسيان ماجمع الله عليه القلوب وألف به بين المسلمين ، وترى أن أعداء الإسلام والطامعين فى استعمار بلاده وإذلال أهله ، يتخذون من هذه الخلافات أبوابا يلجون منها إلى مقاصدهم الباغية ، ويعملون كل مافى استطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ، ثم يضربوهم جميعا .

٤ ـ وتؤمن إيمانا عميقا بأن من أهم الواجبات الدينية على كل ذى علم ورأى فى شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلامية العمل على تبصير المسلمين بدينهم ، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ، ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها ، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها ، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنه من العقائد وهو ليس منها .

٥ ـ فالغرض من « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » هو أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة ، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها فى أنحاء العالم شرقيه وغربيه ، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وآراؤهم فى رفق وحسن تقبل ، فيتهيأ لها جو من البحث العلمى الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة ، وحينئذ تتجلى أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها ، ويصلون فى المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأى

الصحيح الذى يهدى إليه المنطق والدليل ، فإذا بقى بعد ذلك ما لم تجتمع عليه القلوب ، أو تقطع به البراهين ، كان أمره بعد ذلك هيناً لا ينبغى أن يفضى إلى التقاطع والتناكر والتقاذف ، وإنما هو الخلاف فى الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضا ، ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين .

* * *

وفى ختام كتابى هذا ، الذى أكتبه إليكم فى صباح يوم الجمعة من بيتى ، لا من دار التقريب ، رغبة فى المسارعة إلى التجاوب معكم ، يسرنى أن أدعوكم لزيارة دار التقريب شخصيا أو باسم مجلة المصور الغراء ، لكى تروا بأنفسكم أوجه النشاط فى هذا المركز الإسلامى الهام ، ولكى تعلموا أن الله قد وفق إخواناً لكم للعمل على تحقيق الأمل الذى تدعون إليه ، ذهب إلى الله بعضهم ، وبقى البعض مجاهدين محتسبين : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »

والسلام عليكم ورحمة الله ؟ محمد محمد المدنى

* * *

٣ — وفى العدد التالى (٢١٠١) تابعت مجلة « المصور » دعوتها ، فنشرت تحقيقا تحت عنوان (ندوة فى الأزهر حول التقريب بين المذاهب الإسلامية) جاء فيه :

فى الدوائر الدينية والثقافية تناولت الأحاديث والتعليقات ما كتبه أحمد بهاء الدين فى العدد الماضى من « المصور » حول توحيد المذاهب الإسلامية المختلفة . . . كانت الدوائر الأزهرية هى أكثر الدوائر جدلا ونقاشا وتعليقا ، ولكن الاتفاق كان بالإجماع حول الدور الذى يلعبه الاستعمار فى إضرام الخلافات المذهبية لكى يجد أسباباً بعيدة الجذور للتفريق حتى يتسنى له أن يضرب الأمة بعضها ببعض ، ويؤلب فريقا من قادة هذه المذاهب ضد الفريق الآخر ، وهؤلاء القادة يسيرون خلفه سواء عن جهل أو عن علم ، والمستعمر وراء كل هذا ينتظر فى زهو مجىء كل رجال المذاهب راكعين يشكون إليه جور بعضهم على بعض ، فينتصر مرة لهذا وأخرى لذاك .

والأصول فى الإسلام ، لا تكاد تختلف عليها المذاهب الإسلامية ، وهى : السنة ، والشيعة الإمامية ، والشيعة الزيدية ، والاثنى عشرية ، فكلهم يؤمنون بالله ربا ، وبمحمد نبيا ، وبالقرآن كتابا ، وبالكعبة قبلة ، وتبقى بعد ذلك بقية الفرق الأخرى ، والمذاهب التى ذكرناها قد قامت بينها عدة محاولات للتقريب على فترات متباعدة ، كان آخرها ما قامت به جماعة من علماء الدين أطلقت على نفسها اسم « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ، واتخذت لها مقراً فى القاهرة منذ عشرين عاما ، والجماعة تؤمن بالتقريب بين المذاهب ، ولكنها تعتبر التوحيد شيئا محال التحقيق ، وكان وما يزال هدفها الأول هو العمل على جمع كلمة أصحاب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها ، والسعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما وقد كان من بين المسهمين فى هذه الجماعة أكثر من شيخ من شيوخ الأزهر السابقين ، وعلى رأسهم المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم .

* * *

ومن أجل هذا الهدف النبيل جلس السيد نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف المهندس أحمد عبده الشرباصى ، ومدير جامعة الأزهر الشيخ أحمد حسن الباقورى ، يناقشان ما جاء فى مقال « المصور » وكان فى نفس الجلسة :

السيد محمد توفيق عويضة سكرتير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

الشيخ عبد الله المشد مدير إدارة الوعظ والإرشاد بالأزهر .

الشيخ يوسف حسن عمر الأستاذ بكلية الدراسات العربية بالأزهر .

الشيخ أحمد كامل الخضرى المراقب العام للتعليم الإعدادى بالأزهر .

السيد / عبد المنعم رمضان الأمين العام بجامعة الأزهر .

السيد / أحمد الشرقاوى مدير إدارة إحياء التراث والنشر ومدرس بجامعة الأزهر

المستشرق الانجليزى المسلم عبد الرشيد الأنصارى .

السيد محي الدين الالوائى « هندى » ومدرس اللغة الانجليزية فى الأزهر

واعتذر الشيخ الباقورى عن القراءة لأن نظارة القراءة ليست معه ، وعهد بالقراءة إلى السيد أحمد الشرقاوى الذى بدأ يقرأ المقال ، وبدأت التعليقات :

المقال : « وكثير جداً من مشاكل هذه الأقطار الشقيقة ، ومن مشاكلها السياسية والاجتماعية بالذات ، يرجع فى جذوره إلى خلافات دينية لم يعد لها مبرر ، لا من دين ولا من مصلحة ، خلافات بات مؤكدا أنها تعرقل مسيرة هذه الأقطار فى اتجاه التمدن والرقى ونفض غبار التخلف » .

المهندس أحمد عبده الشرباصى : المؤلم أن الطبقة المثقفة فى هذه الطوائف هى التى تؤكد هذا التباعد وتبالغ فيه لكى تكسب من ورائه مكاسب غالبا ما تكون مادية أو أدبية ، وأى خطوة للتقارب سيضطر من يبدؤها إلى التحدث مع المثقفين منهم ، وهنا الكارثة .

الشيخ الباقورى : الواقع أن الإسلام لا يطلب التوحيد بين المذاهب ، ولكنه يمقت أن يكون بين المذاهب خلاف يصل إلى حد العداوة ، وما دامت المذاهب قد وجدت نتيجة أمرين وهما نصوص محتملة وعقول مختلفة ، إذن فالتوحيد غير محتمل الوقوع بالمرة ، ولا شك أن بعض أصحاب المذاهب المختلفة قد خدموا الإسلام خدمات جليلة ، كمولاى محمد على مؤسس أحمدية لاهور .

الشيخ عبد الله المشد : الذى أبحث عنه وأريد أن أجد له سببا معقولا هو كثرة الكتابة فى هذه الأيام عن الإسلام فى صحف الغرب بالذات ؟ .

المهندس أحمد عبده الشرباصى : شىء طبيعى جداً أن تهتم الصحف الغربية بالإسلام بعد أن انحسر الاستعمار عن جزء كبير من أفريقيا ، وقد قرأت فى مجلة أفريقية لكاتب أجنبى يقول : إن عدد المسلمين فى أفريقيا عام ١٩٣١ لا يزيد على أربعين مليونا ، وقد أصبح عام ١٩٦٤ - ١٤٤ مليونا ، برغم أن الاستعمار كان فى هذه السنوات يجثم بكل قواه على أفريقيا ، فما ذا سيحدث الآن بعد أن انحسر الاستعمار عن أجزاء كثيرة من أفريقيا ؟ .

المقال : ألسنا نجد بابا الكنيسة الكاثوليكية يبدأ جهداً مستنيراً فى التقريب بين الكنائس ؟ ألسنا نرى الكنيسة الأرثوذكسية توشك أن تعقد مؤتمراً لنفس الهدف التقدمى ، هدف التوحيد بينهما .

أحمد الشرقاوى : شاهدت فى الهند مؤتمراً ضخما عام ١٩٦٢ ، كانت مهمته التقريب بين اتباع جميع الكنائس ، وقد امتلأت نيودلهى يومها بالقساوسة والرهبان من جميع أنحاء العالم لفترة طويلة ، وقد ضاقت بهم فنادق العاصمة ، وحبذا لو عقدنا فى القاهرة مثل هذا المؤتمر مرة أو مرات حتى يكون التقريب على أسس واعية منهجية .

الشيخ الباقورى : الحقيقة أن فكرة التقريب بدأت فى مصر ، وعند ما بدأت الصحف الغربية تكتب عن « جماعة التقريب » بين المذاهب الإسلامية . . تحركت الكنائس لتتقارب فى أوروبا ، وذهب رئيس أساقفة « كانتبرى » فزار الفاتيكان .

المهندس أحمد عبده الشرباصى : أنا أذكر بعض الهنود المسلمين من أبناء مذهب الاثنى عشرية التقوا بى فى أوغندا عام ١٩٥٤ ، وقالوا لى إنهم جاءوا إلى مصر أيام فاروق وطلبوا علماء من الأزهر لكى يعلموهم الإسلام فى أفريقيا ، ولكن المسئولين فى ذلك العهد رفضوا ، وقالوا لى بالحرف الواحد : إننا سنحاكم مصر أمام الله يوم القيامة لأنها الدولة الوحيدة التى تستطيع أن تعلمنا !! وجاء معى نفر منهم إلى مصر ، وبحثت مع المسئولين فى الأزهر يومها عن عالمين يجيدان الانجليزية ، وذهبا مع إخواننا الهنود الذين جاءوا من قلب أفريقيا ، ولكن السلطات الاستعمارية وقتها منعتهما من الدخول فعادا .

الشيخ عبد الله المشد : الكثير من أبناء المذاهب المختلفة توقفت معلوماتهم عن الإسلام عند حد معين ، وذلك يرجع إلى كثير من الأسباب ، فى مقدمتها جهلهم اللغة العربية ، وعدم وجود الوعاظ المرشدين لهم ، واقتصار معلوماتهم على الحد الذى لقنوه من أهلهم فقط .

المقال : « وإذا كان مذهب الخوارج ـ بمدارسه المختلفة ـ قد نشأ فى تربة الخلاف بين على ومعاوية ، فقد نشأ مذهب الشيعة ـ بمدارسه المختلفة ـ أيضا . . . من مقتل على بن أبى طالب .

ومرة أخرى ، وبغير دخول فى التفاصيل نجد أن الذين « تشيعوا » لعلى ابن أبى طالب ، وكانوا وقتها أغلبية المسلمين ، والذين منهم تكون « الشيعة » قد اتخذوا هذا الموقف لأسباب سياسية فى الدرجة الأولى » .

الشيخ الباقورى : إن كثيرا من الخلافات المذهبية فى الإسلام كانت فى أساسها خلافات سياسية ، ثم نسيت الأسباب وبقيت النتائج تتضاعف وتتجدد ، وتتلمس الأسباب لبقائها ، ومن هنا كان لابد من تعميق هذه الخلافات بجعلها عقائدية ، لأن الأسباب السياسية يمكن أن تصبح غير نافذة المفعول فى إذكاء الخلاف بعد زوال أوانها ، فمثلا الاختلاف الذى كان فى الماضى حول شخصيات سياسية معينة فى تاريخنا ، يصبح شيئا مضحكا ، لو وجدت من يتضاربون من أجله الآن !

الشيخ يوسف عمر : لكن أئمة هذه المذاهب فى محاولاتهم هذه أساءوا إلى المذاهب الأخرى لكى يميزوا أنفسهم وبالغوا فى هذه الإساءة .

الشيخ عبد الله المشد : لقد بالغوا إلى حد الانحراف .

الشيخ الباقورى : لقد كانت مبالغتهم فى التقليل من شأن المذاهب الأخرى بمثابة عملية دفاع عن النفس ، كما أن التيارات السياسية والاستعمارية على مدى العصور كانت تلعب الدور الأول والأخير فى احتضان هؤلاء الأئمة .

المقال : « كلها أسباب ولدت لتواجه ظروفاً بعينها ، وهى ظروف تعددت وتشعبت واختلفت بحكم انتشار الإسلام فى أقطار متباعدة ، وبيئات شتى ، وبحكم تغير الحياة وتجددها ، وما تطرحه هذه الحياة من أسئلة جديدة كانت إجاباته المسلمين عنها تختلف من موقف إلى موقف ، ومن قطر إلى قطر » .

الشيخ الباقورى : ولادة المذاهب التى تواجه الظروف يبدو أنها مستمرة ، كما يقول الأخ بهاء ، وستظل مستمرة ، وقد شاهدت فى بعض البلاد الإسلامية التى زرتها ، والتى تحررت عقب الحرب الثانية ، شاهدت بين شبابها من يقول :

« إننى شيوعى لأننى مسلم » وذلك لأن المسيحية فى نظرهم اقترنت بالاستعمار الذى كانوا يناهضونه ، ومثل هذا الفهم الخطير لا يعلم أحد إلى ما ذا سيتحول بعد مائة سنة مثلا ، ما لم تحدث حملة تقارب وتفاهم وتبصير وتوعية .

الشيخ عبد الله المشد : ولكن على أكتاف من ستقوم هذه الدعوة ؟ إن التقارب الذى كان والذى قام فى الماضى حامت حوله بعض الأقاويل .

الشيخ الباقورى : إن كل فكرة إنسانية تجد الشخصيات التى تشجعها . . . ولكن مثل هذه الأعمال الجليلة لا تسلم أبداً من الاحتجاج عليها ، وإذا كنا قد اختلفنا حول فكرة جليلة كهذه ، فكيف نريد ألا يختلف المسلمون يوم أن كانت دولتهم تحكم معظم أجزاء العالم فى مسائل إسلامية أساسية وفرعية .

الشيخ كامل الخضرى : لا جدال فى أن الخلاف لا يستفيد منه دائماً سوى المستعمر ، وإذن فلماذا تحرص الطوائف الإسلامية على خلافاتها العقائدية ، وعبر مئات السنين لم يجدها هذا الخلاف نفعا ؟ .

الشيخ الباقورى : اسمع الرد عن سؤالك ـ عند ما حج المنصور قال لمالك ابن أنس : قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى صنفتها فتنسخ ، ثم أبعث فى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم ، فهذا الإمام مالك يرفض أن يفرض مذهبه على الناس بالقوة ، لأنه أدرك أن كتابه الذى جمعه ليس هو كل شىء فى الشريعة ، فلغيره نظرة كنظرته ، وبحث كبحثه ، وجمع كجمعه ، وقد يكون عند غيره من العلم ما لم يضع يده عليه .

الشيخ يوسف : إذن فكيف السبيل إلى التقارب ، وهذه الخلافات موجودة وقائمة لا سبيل إلى نكرانها ؟ .

الشيخ الباقورى : فى رأيى أن التقارب الواجب هو أن يتفهم كل فريق مذهب الآخر ، وهذا ما حدث من الرسول لأصحابه عند ما قال لهم : « من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » فانطلقوا ، فلما أدركهم العصر فى الطريق صلى بعضهم ، وأصر البعض الآخر على ألا يصلوا إلا فى بنى قريظة ،

واختلفوا ، فلما عادوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واحتكموا إليه قال لكل فريق منهما أصبت !! هذا هو التقريب الذى نرجوه .

وقد ذكرت المجلة بعد ذلك أنه جاءها تعليق من كل من أصحاب الفضيلة : الشيخ محمد محمد المدنى ، والشيخ أحمد الشرباصى ، والشيخ عبد العال عطوه . ووعدت بمواصلة البحث فى عددها القادم .

* * *

٤ — وفى العدد (٢١٠٢) من المصور نشر تحقيق آخر تحت عنوان « الخلاف الفقهى مفخرة للفكر الإسلامى . . . ولكن السياسة استغلت هذا الخلاف وجعلته خلافاً طائفياً » وقد جاء فى هذا التحقيق ما يأتى :

شيخ واحد قال لا . . وقد بنى معارضته للتقريب على أسس أوردها فى حديثه ، وتحمس كل الذين تفضلوا بالإجابة للتقريب ، والشيخ هو أستاذ الشريعة بجامعة الاسكندرية ، بينما أجاب أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة بأن التقريب بين المذاهب ممكن ، بل هو قائم فعلا ، فقد أخذنا ونحن أهل السنة بمبدأ هام من مبادىء الشيعة فى قانون الأحوال الشخصية الجديد !! .

الأسئلة التى أثارها « المصور » عن مدى إمكانيات التقريب أو التوحيد بين المذاهب الإسلامية ، ما زال صداها يتجاوب فى الدوائر الثقافية والدينية .

المعقول والمنقول :

وقد تفضل بالإجابة الشيخ محمد محمد المدنى الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الأزهر والسكرتير المساعد لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية فى رسالة طويلة شرح فيها تاريخ قيام الجماعة التى مارست مهمة التقريب منذ خمسة عشر عاما جاء فيها :

والذين أشرفوا على هذه الجماعة كانوا يمثلون مذاهب مختلفة من المسلمين كالشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الشيعى العراقى ، والشيخ عبد المحسن شرف الدين الموسوى الشيعى اللبنانى ، والشيخ محمد حسين بروجردى زعيم الشيعة الإمامية بإيران ، والشيخ محمد تقى القمى الذى كان أول من نادى بإنشاء الجماعة ، وهو من علماء الشيعة

بإيران ، وكان من جهود الجماعة التى عمل معها أكثر من شيخ من شيوخ الأزهر أن قرر الأزهر دراسة المذهب الشيعى الإمامى ، والزيدى فى كلية الشريعة ، وبالتالى استجابت جامعة إيران فقررت دراسة فقه السنة فى كلية المعقول والمنقول ، وهى تقابل كلية الشريعة عندنا .

العلاج فى يقظة وحذر :

والواقع أن هذه الجماعة قد استطاعت أن تجرى عدة اتصالات سريعة بين أئمة المذاهب المختلفة الذين تفرقوا فى أكثر من مكان ، وقد أثمرت هذه الجهود فى نواحى التأليف والنشر ، وإخراج مجلة الجماعة التى تحمل رسالتها .

والشيخ المدنى يرى أن التقريب ليس معناه المساس بالفقه الإسلامى ، كما أنه لا يرى إدماج مذاهب الإسلام بعضها فى بعض ، لأنه يرى فى الاختلاف الفقهى مفخرة للسلمين ، ودينهم الذى يقف إلى جانب الاجتهاد والاستنباط دون أن يحجر على حرية التفكير التى هى أسمى ما منح الله للإنسان ، ويقول عن التقريب الذى تنشده الجماعة :

أن مركزها فى القاهرة يجب أن يكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة ، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها ، وأن تلتقى أبحاثهم الفقهية وآراؤهم فى رفق وفى جو من البحث العلمى الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة ، وحينئذ تتجلى للسلمين الأسباب التى دعت إلى الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية ، فيعالجونها فى يقظة وحذر ، ويصلون إلى الرأى الصحيح الذى يهدى إليه المنطق والدليل .

حدود الخلاف والاختلاف :

وكان جواب الشيخ أحمد الشرباصى الأستاذ بالأزهر : أنه لا خلاف بين جميع المسلمين فيما يتعلق بأصول الدين وقواعده الأساسية ، والفروض المنصوص عليها فى كتاب الله تعالى ، والصحيح ، المتواتر ، عن سنة رسول الله عليه السلام .

ولكن الخلاف فى تعدد الآراء ، وفى درجات الفهم والنظر فى بعض الجزئيات

والفروع ووسائل التطبيق ، وقد نشأ هذا الخلاف لاختلاف الأفهام والقدرة على الاستنباط ، ولا شك أن حدة الخلاف قد زادت بمضى المدة وتوالى العصور ، وأوقدت لهيبها عوامل سياسية ، وتعصبية ، وشخصية ، ولا جدال فى أن التقريب بين المذاهب المختلفة فى هذه المجالات أمنية يتطلع إليها كل غيور على وحدة الأمة ، واجتماع الكلمة ، وإن كان التقريب لن يقضى على الخلافات الموجودة نهائيا ، فهناك لون من الانفعال الفكرى سيظل موجودا ، فى هذا الجانب من الفروع والجزئيات مادام هناك تجارب فى الإدراك والاستنباط ، ولكن الذى نطمع فيه هو أن يكون الاختلاف مقصوراً على هذه الدائرة الفكرية ، لا أن يتعداها إلى سوء الاستغلال فى المجالات السياسية ، والطائفية ، والتعصب .

أما بالنسبة لخطوات التقريب (الرسمية) التى يجب أن تبدأ فإن بعض هذه الخطوات قد بدأ فعلا ، فقد نص قانون تطوير الأزهر الذى أصدره الرئيس جمال عبد الناصر على إنشاء مجمع للبحوث الإسلامية تنطوى هذه المهمة تحت مهامه الكبيرة ، لا سيما ولائحة هذا المجمع تحتم أن يكون بين أعضائه الخمسين عشرون على الأقل من خارج الجمهورية العربية المتحدة ، وأن يمثلوا إلى حد كبير شتى المذاهب الإسلامية ، وقد عقد المجمع مؤتمراً فى العام الماضى حضره مائة عالم من علماء المسلمين ، يمثلون ٤٣ دولة من آسيا وأفريقيا وأوربا وأمريكا اللاتينية ، غير أنى أخشى أن تتغلب النزعة الأكاديمية على سير المجمع فى معالجة هذا الأمر الخطير ، لذلك أعتقد أنه لا بد من أن ينعقد مؤتمر إسلامى لا يتعدى فكرة التقريب ، وتكون أول مهمة للمؤتمر هى رسم خطة لتحقيق التقارب بما يعود على المسلمين بالخير دون أقل مساس بأصول الإسلام ومبادئه .

ويقول الشيخ محمد زكريا البرديسى أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة :

إن التقريب أمر ممكن ، بل تحتمه علينا مقتضيات الأحوال ، فكل هذه المذاهب ترجع إلى الكتاب وإلى السنة ، واختلاف الناس فى بعض المسائل الفقهية يرجع إلى الاختلاف فى الفهم .

والواقع أن الأزهر بمجمع البحوث الإسلامية قد بدأ خطوة عظيمة بتقسيم

المباحث الفقهية إلى عدة أقسام ، ورأس كل قسم فقيه من الفقهاء الذين يشار إليهم بالبنان ، وقد اختار كل فقيه من يعاونه فى كتابة البحث الذى وكل إليه ، وعلى ما سمعت أنهم قسموا الأبحاث إلى أروقة ، فثلا رواق « السير » ورواق « العبادات » ورواق « المعاملات » وهكذا . . .

فلو تحقق هذا لأسدوا إلى الفقه الإسلامى خدمات جليلة ، وجعلوه سهلا يأخذ الناس منه كل ما يريدون دون عناء ، خصوصا وأنهم كما علمت سيتعرضون للمسائل الجديدة التى يمكن أن تساير عصرنا الحاضر .

وأنا من الذين ينادون بهذا التقريب ، لا سيما وقد أخذنا فى القوانين الجديدة للأحوال الشخصية فى جواز الوصية لوارث بمذهب الشيعة ، وتركنا المذاهب الأربعة التى لا تجيز الوصية لوارث ، وذلك مسايرة لمصالح الناس ، والعمل على كل مافيه مصلحة المسلمين ، مادمنا لانخرج عما رسمه الكتاب ، وما رسمته السنة النبوية .

° ° °

٥ - وفى العدد نفسه من « المنصور » نشر اقتراح للسيدة « نائلة علوبة » تحت عنوان

[نموذج عملى من نماذج التقريب بين المذاهب الإسلامية]
[لماذا لا ترث البنات كل تركة الأب ... أسوة بالأولاد ؟]

وقد جاء فيه ما يأتى :

قدمت السيدة نائلة علوبة نموذجا عمليا من النماذج التى يفيد فيها التقريب بين المذاهب الإسلامية .

فقد أثارت فى لجنة مؤتمر الأسرة موضوع الأب الذى يموت عن بنات فقط ، وطالبت بأن يعدل قانون الميراث بحيث ترث البنات كل التركة ، أسوة بحالة وجود أبناء ذكور ، خصوصا وأن البنت تكون أكثر حاجة إلى ميراث الأب من الابن ، بدلا من توزيع التركة بين أقارب آخرين .

وهو حكم معمول به فى المذهب الشيعى ، لا السنى . . .

ثم قدمت السيدة نائلة علوبة إلى لجنة قوانين الأحوال الشخصية مذكرة حول هذا الموضوع هذا نصها :

يتميز القرآن بأنه وهو كتاب مقدس ، فقد تعرض للعبادات والمعاملات فى أصولها وترك التفاصيل فى جميع مواده للاجتهاد الذى زخرت به الفتاوى والمؤلفات والدراسات الفقهية طوال أربعة قرون إلى أن قفل باب الاجتهاد .

كما أن تعاليم القرآن وأوامره ونواهيه جاءت فى جميع أجزائه متوازنة متكافئة لا رجحان لأحدها على الأخرى ، سواء من ناحية العناية أو التفاصيل .

ولذلك جاءت أحكام المواريث كغيرها من الأحكام ، وترك باب الاجتهاد فيها مفتوحا على مصراعيه لمزيد من الشرح والقياس ، فى غير ما مساس بالأصل أو نسخ له ، وقد اجتهد الشراح ، وما زالوا يجتهدون ، فى تفسير أحكام المواريث ، واقتباس بعض الأحكام التى تتلاءم وصالح المجتمع ، كأحكام الدين الواجبة ، والإذن للمورث بالتصرف فى ثلث ماله بعد وفاته دون تعليق على إجازة الورثة ، وآية ما نقوله أن مذهبا من المذاهب الإسلامية ، وهو المذهب الشيعى ، وصل فى فقهه إلى القول بأن البنت إذا انفردت أو انفردت البنات استأثرن بكامل تركة المتوفى دون أقاربه ، ولا يعنى ذلك بداهة مساواة البنت بالذكر إذا اجتمعا ، ولكن للذكر مثل حظ الأنثيين كصريح نص القرآن إذا اجتمعا من نفس الطبقة .

ورب معترض بأن المذهب الشيعى غير معمول به فى بلادنا ، ولكنه مذهب إسلامى أقرته وزارة الأوقاف ، وأشرفت على تقديم بعض المؤلفات التى تكشف عن حقيقة هذا المذهب العريق ، وتزيل ما علق بأذهان الكثيرين خطأ حول مذهب الشيعة وعقيدتهم ، وهو مذهب يعتنقه نفر كبير من رعايا الوطن العربى ، وفى العناية بفهمه وتأصيله دعم للحركة العربية الواحدة ، وتأكيد للوحدة العربية الشاملة .

وجدير بالذكر أن المذهب الشيعى يتميز فى فقهه بالتشدد والتمسك بأصل التشريع كما ورد فى القرآن وعدم التوسع فى الحديث ، ومع ذلك فقد أقر المذهب الشيعى للبنت بحقها فى الميراث كاملا إذا انفردت .

ولقد اتفق المذهب الشيعى فى كثير من أحكامه مع باقى المذاهب الإسلامية الأربعة المعروفة ، ولا يضيرنا أن نأخذ بالأصلح من هذا المذهب الإسلامى فى شأن ميراث البنات ، وقد أوصت بذلك لجنة مركز المرأة فى المؤتمر الأخير للأسرة الذى عقدته وزارة الشئون الاجتماعية على نحو ما هو ثابت فى محاضرها ؟

رجاء من التقريب

إلى الكتاب والباحثين

---

١ - نرجو من الكاتب الإسلامى أن يحاسب نفسه قبل أن يخط أى كلمة، وأن يتصور أمامه حالة المسلمين وما هم عليه من تفرق أدّى بهم إلى حضيض البؤس والشقاء وما نتج عن تسمم الأفكار من آثار تساعد على انتشار اللادينية والإلحاد.

٢ - ونرجو من الباحث المحقق - إن شاء الكتابة عن أية طائفة من الطوائف الإسلامية - أن يتحرى الحقيقة فى الكلام عن عقائدها، ولا يعتمد إلا على المراجع المعتبرة عندها، وأن يتجنب الأخذ بالشائعات وتحميل وزرها لمن تبرأ منها، وألا يأخذ معتقداتها من مخالفيها.

٣ - ونرجو من الذين يحبون أن يجادلوا عن آرائهم أو مذاهبهم أن يكون جدالهم بالتى هى أحسن، وألا يجرحوا شعور غيرهم، حتى يمهدوا لهم سبيل الاطلاع على ما يكتبون، فإن ذلك أولى بهم، وأجدى عليهم، وأحفظ للودة بينهم وبين إخوانهم.

٤ - من المعروف أن « سياسة الحكم والحكام » كثيراً ما تدخلت قديما فى الشئون الدينية، فأفسدت الدين وأثارت الخلافات لا لشىء إلا لصالح الحاكمين، وتثبيتاً لأقدامهم، وأنهم سخّروا - مع الأسف - بعض الأقلام فى هذه الأغراض، وقد ذهب الحكام وانقرضوا، بيد أن آثار الأقلام لا تزال باقية، تؤثر فى العقول أثرها، وتعمل عملها فعلينا أن نقدر ذلك، وأن نأخذ الأمر فيه بمنتهى الحذر والحيطة.

** ** **

وعلى الجملة نرجو ألا يأخذ أحدٌ القلم، إلا وهو يحسب حساب العقول المستنيرة، ويقدم مصلحة الإسلام والمسلمين على كل اعتبار.

من القانون الأساسى لجماعة التقريب

المادة الثانية

أغراض الجماعة هى : —

ا — العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية « الطوائف الإسلامية » الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التى يجب الإيمان بها .

ب — نشر المبادىء الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج — السعى إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين ، والتوفيق بينهما .

فهـــرس

رسالة الإسلام

مجلة إسلامية عالمية

تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة

المحرم سنة ١٣٨٤ هـ

رئيس التحرير : محمد محمد المدنى   مدير الإدارة : عبد العزيز محمد عيسى

الإدارة : ١٩ شارع حشمت باشا بالزمالك . القاهرة - تليفون ٨٠٤٦٨٩

قيمة الإشتراك فى السنة للأفراد : خمسون قرشاً مصرياً أو ما يعادلها

مطبعة مخيمر تليفون ٩٠١١٩٣